يوميات المعلنة (١)

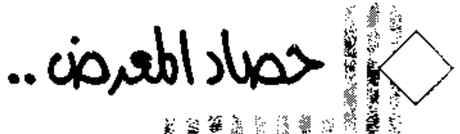
آفاق الذاكرة

جمال الغيطاني



اسم الكتاب: آفاق الذاكرة
اسم المؤلف: جمال الغيطانى
تاريخ النشر: مارس ١٩٩٨
رقم الإيداع: ٣٠٨٤ /٩٨
الترقيم الدولى: I.S.B.N 977-14-0700 -7

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ – ٠١١/٣٣٠٢٨٩
فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى – الفجالة – القاهرة
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ – ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥
فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
ص.ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى – المهندسين – القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ – ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤
فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦
ص.ب: ٢٠ امبابة



هنا سور الأزبكية على التليجرام

mohamed khatab

.. عندما نزل الصديق والأديب النوبى يحيى مختار ليفتح حقيبة السيارة الخلفية حتى أضع شنطة السفر الفارغة قال : «اللهم لا تقطع لنا عادة ..» .

هكذا .. فى كل سنة نمضى إلى المعرض يوما محددًا لشراء الكتب . إلى جانب أيام أخرى . منها يوم أخصصه لابنتى وابنى ، المعرض أشبه بمدينة هائلة للكتاب . نطوف أقسامه ، وكلما ثقل علىّ ما أحمله أعود إلى سيارة يحيى فأضع فى الحقيبة ما اقتنيت ثم نستأنف الجولة من جديد ، سعيى إلى اقتناء الكتب دائم ومستمر ، وإذا قصدت عنوانا معينا لا أهدأ ولا أستريح إلا إذا عثرت عليه ، ولى الآن أصدقاء قدامى خبراء بالكتب القديمة ومصادرها . يساعدوننى فى الوصول إليها .. المهم أن يكون المرجع أو الكتاب على مقربة منى ، فى متناول يدى ، إنه حب الملكية الوحيد الذى لا أُفق له عندى ، ولا حد . قد لا أقرأ الكتاب الذى اشتريه اليوم إلا بعد سنوات عدة . لكن المهم أن يحتل موقعه فوق أرفف مكتبتى التى تكدست وازدحمت . حتى أننى لأنسى كثيرًا مما تحتويه لأنه يقبع فى الصف الثانى أو الثالث فوق الرف . لا أقتنع باستعارة كتاب . المهم أن أستحوذ عليه . وربما يرجع ذلك إلى سنوات لم أكن أقدر فيها على شراء ما أريده . فكنت أستعير ما أحتاج إليه من دار الكتب بباب الخلق ، لكننى حتى فى سنوات سعيى الأولى هذه كنت أحرص على الاقتناء ، فإذا كان الكتاب مرتفع السعر بمقاييس هذه السنوات البعيدة (جنيه مثلا) بادرت إلى نسخه كاملا بعد استعارته . ولكم

نسخت كتبًا يتجاوز عدد صفحاتها الخمسمائة ، بصفحاتها وكل ما تحتوى عليه ، حتى الهوامش التى تكتب بلغات لا أتقنها مثل الألمانية . أو اليونانية . وبالتأكيد . . فإننى مدين لسوريّ الأزهر والأزبكية ، أما الآن فحتى أسعار الكتب فى هذين السورين أصبحت مرتفعة . أما سور الأزبكية العريق فيلفظ أنفاسة الأخيرة الآن تحت زحف البوتيكات التى تبيع ما ظهر من براويز ولوحات رخيصة . وما خفى مما لا نعلمه . ولهفى على فتيان يطرقون أبواب الأدب والمعرفة فلا يقدرون على القراءة بسبب ارتفاع سعر الكتاب ، وتجاوزه الطاقة ، مشكلة كبيرة . فى المعرض انتابتنى مشاعر متناقضة فى مواجهة شاب ، طالب فى الثانوية العامة ، ضبط متلبسا بسرقة كتابين ، الأول عن ثقب الأوزون ، والثانى ديوان شعرى لفؤاد حداد ، انهال عليه مدير المكتبة صفعًا . ولم يبد الشاب أى رد فعل ، بدا مذعورًا . مرتجفا ، ثم استدعوا له الشرطة . صحبه الضابط وقتًا قصيرا ثم عاد يمسك به ، انتحى بمدير المكتبة جانبا ، ورجاه أن يتنازل عن بلاغه ، فالشاب طالب وأبوه رجل محترم . وتحويله الى النيابة يعنى تشويه حاضره ومستقبله . عندئذ تطلع إليه مدير المكتبة . صاح فيه ، «يعنى مش هتعمل كده تانى » .

وقال الشاب :

«لا والله . .» .

وأنهى مدير المكتبة الموقف بصفعتين أخريين وأسرع الفتى مختفيا ، حرت والله ، هل أتعاطف مع الشاب الذى يغامر بسرقة

كتاب لأنه لم يقدر على دفع ثمنه (بعد تفتيشه وجدوا معه خمسة وستين قرشًا) ، أم أتحامل عليه ، أم على المجتمع الذي لا يدعم الوعاء الرئيسى للثقافة ، ولا يهتم به ، بل إن الكتاب يتراجع تماما الآن من دائرة السياسة الثقافية المعلنة ، والتى تهتم أساسا بالمهرجانات والأنشطة ذات الطابع الثقافى ، مع أن الكتاب هو الوسيلة الأولى التى مارست مصر من خلالها دورها وتأثيرها منذ أيام التدوين على ورق البردى ، وحتى شرائط الكمبيوتر ، أفكر طويلا فى هذا الفتى وأمثاله . وأعود للتفكير فى البائع الذى سوف يخصم ثمن الكتاب منه ، وهو موظف محدود الدخل ، قليل الحيلة ، لا شىء يبرر السرقة أبدا ، ولكن الأمر وعر .

الإقبال الهائل من شبابنا على المعرض مفرح حقا ، ولكن ما يثير الأسى ارتفاع سعر الكتب ، خروجها على المتناول ، إن دولا عظمى مثل فرنسا والاتحاد السوفيتى (فى زمن الاشتراكية الآفل) ، تدفع أموالاً طائلة لدعم الكتاب ، ونقله أحيانا إلى الخارج على نفقتها ، إن الاستثمار الثقافى الحقيقى هو بعيد المدى ، العميق ، الذى لا يأخذ من الأمور عناوينها البراقة . وهذا الاستثمار يكون له عائد مادى كبير أيضًا ، فقط ، لو أدركنا قيمة الكتاب وإتاحته ، وهذا موضوع كبير سأعود إلى مناقشته .

. . أتجول مع الصديق يحيى مختار ، ونعود إلى الحقيبة ، عند نهاية اليوم ، كانت قد امتلأت ، فماذا عن حصادى من معرض اليوم .

* * *

فرحتى بالعثور على كتاب طال بحثى عنه ، كبرى ، هكذا . . امتدت يدى بسرعة إلى المجلدات الستة التى تحوى «البصائر والذخائر» لأبى حيان التوحيدى . أحد أئمة النثر العربى ، إن لم يكن إمامهم جميعا ، ثلاثة أضعهم نصب عينى دائما ، أعتبرهم ذرى النثر العربى البعيد عن التكلف ، المتدفق ، هم : الجاحظ ، والتوحيدى ، وبديع الزمان الهمذانى . وبكل مقاييس عصرنا يعتبر نثرهم معاصرًا ، بدأت علاقتى بالتوحيدى بعد أن قرأت «الإشارات الإلهية» . تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وتحقيق آخر أصدرته الدكتورة وداد القاضى منذ سنوات والإشارات الإلهية ، من المؤلفات التى أقرأها بشكل دورى . بل ألجأ إليه إذ تحوم فى سماء الوجدان غمامات رمادية ، شجنة . لايبددها إلا تدفق هذا الناثر العظيم ، وتعبيره الرائع عن خبايا ذاته ، فى زمن لم يكن الأديب العربى يبوح كثيرا عن ذاته . بلغ من حبى للإشارات الإلهية أننى أضعه على مقربة منى ، بحيث تقع عليه عيناى باستمرار ، فى متناولى ، وفى الليالى التى أطالعه فيها حتى ساعة متأخرة ، أكاد أصغى إلى أنفاس أبى حيان الحرى ، الفياضة ، أضعه إلى جوارى ، ولو تمكننى أن أتوسده لفعلت . هكذا علاقتى بالنصوص العظمى التى رست عليها قراءاتى التى تمتد الآن أكثر من خمسة وثلاثين عاما متصلة .

بعد (الإشارات الإلهية) ، رحت أتعقب ما كتبه شيخى أبو حيان ، فاقتنيت (الامتاع والمؤانسة) ، (الصداقة والصديق) ورسائله ، والهوامل والشوامل ، أما (المقابسات) الذى طبع فى مصر عام ١٩٢٩ . فاشتريته من سوق الكتب القديمة فى بغداد

منذ ثلاثة أعوام ، والتى تقوم مكان السوق القديم التى كانت مخصصة للوراقين ، وكان أبو حيان واحدًا منهم ، يعمل فى نسخ الكتب ليكتسب قوته ولكن كانت حياته شاقة . وعرة ، حتى أنه أحرق كتبه ضيقا واحتجاجا فى نهاية عمره ، ولحسن الحظ أفلت بعضها فوصلنا سالما مثل (الامتاع والمؤانسة) ، أو ناقصا مثل (الإشارات الإلهية) أو اندثر بعضها فلم يصلنا ، ومصير أبى حيان ، وابن المقفع ، أو الهمذانى ، وغيرهم ، لا يقدم إلينا وضعا مثاليا للأديب فى حضارتنا العربية . كان الأديب وما زال ، بين مطرقة السلطان ، وسندان الحياة اليومية ولوازم المعيشة التى لم يكن الأدب فى أى وقت من تاريخنا قادرًا على سدها . حتى فى الحد الأدنى . لنصغى إلى هذه الشكوى التى بثها بديع الزمان فى القرن الرابع :

«يا أبا الفضل ليس هذا بزمانك ، وليست هذه بدارك ، ولا السوق سوق متاعك ، بئستِ الكتُبُ وما وَسَقت . والأقلامُ ما نَسَقتْ والمحابرُ وما سَقتْ ، والأسجاعُ إذا اتَّسقت واللؤمُ ، ولا هذه العلوم . وعند الله احتسبت عُمرا أضعناهُ فى الأدب وأتلفناهُ فى العلومِ ونسألهُ خاتمة خير . .

المهم . . لم يتبق لى من آثار أبى حيان إلا كتاب (البصائر والذخائر) طبع فى دمشق منذ سنوات ونفد ، ولم يطبع مرة

أخرى ، بحثت عنه فى كافة العواصم العربية التى زرتها ولم أجده ، وهنا هو أمامى فى معرض القاهرة ، تحقيق جديد للأستاذة اللبنانية وداد القاضى ، حملته ككنز طال بحثى عنه ، بدأت قراءتى على الفور ، إنه خلاصة ما قرأه وما سمعه أبو حيان ، من نحو وبلاغة وحوادث تاريخية واجتماعية وتأملات ، عدت به إلى مكتبى . أخليت له موقعا بجوار مؤلفات التوحيدى الأخرى ، أما العناوين الأخرى ، فأكتفى بذكرها ، لأننى لو سردت قبسا من علاقتى بكل منها لاحتجت كتابا ضخمًا .

* * *

«تاريخ مسلمى الأندلس - الموريسيكيون» ، للأسبانى أنطونيو هورتز ، ترجمة عبد العال صالح ، صدر فى بيروت . الموريسيكيون هم العرب المسلمون الذين بقوا فى الأندلس بعد سقوطها . واهتمامى بتاريخ الأندلس يرجع إلى سنوات لأننى أعتبرها بداية الانحسار العربى منذ سقوطها . وهذا الانحسار مازال مستمرا . وأخشى أن يتزايد بعد الاتجاه الآن إلى انفراد قوة واحدة بالعالم . وهى الولايات المتحدة ، والنظام الغربى ، بعد انحسار الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى وتراجع دوره التقدمى ، وتزايد النفوذ الصهيونى داخله ، بحيث لا أبالغ إذا قلت أن الاتحاد السوفيتى بالاتجاهات السائدة فيه الآن سوف يتحول إلى قوة معادية للعرب . وبضراوة ، فالدولة الاشتراكية العظمى التى كانت تمثل حلما إنسانيًا عظيما تتفكك الآن ، ويتبدل دورها . وتصدر إلينا جيشا من عدة ملايين صهيونى سوف يحاولون الوثوب على

العالم العربى وتمزيقه ، بعد اكتمال إسرائيل الكبرى ، ولا مناجاة للعرب إلا بالاعتماد على قوتهم الذاتية ، فهل من مضعٍ ؟ اقرأوا تاريخ الأندلس جيدا .

أحاول سرد العناوين التى اقتنيتها فتتداعى هموم الساعة . نحن الجيل الذى قدر له أن يشهد نقطة تاريخية تنهار فيها الأحلام ، والكيانات العظمى ، حتى نيلنا الخالد نعيش الآن ما يتهدده من أخطار .

سأحاول وقف التداعيات ، وأعود إلى حصاد المعرض .

* * *

«المختار من رسائل أبى إسحق بن زهرون الصابى» ، حققها الأمير شكيب أرسلان ، من كتب البلاغة العربية . «القيان» لأبى الفرج الأصبهانى ، تحقيق جليل العطية ، جمعه من مصادر تاريخية مختلفة ، ويقوم عالم المغنيات الجوارى فى الزمن القديم . صدر عن دار رياض الريس فى لندن .

«فصول التماثيل فى تباشير السرور» لعبد الله بن المعتز ، صدر فى بغداد ، من كتب التراث التى تتناول الخمريات .

«مقالات الإسلاميين» للإمام أبى الحسن الأشعرى ، تحقيق المستشرق الألمانى هلموت ريتر ، صدر فى مدينة فيسبادن بألمانيا الغربية .

«أمالى ابن دريد» تحقيق مصطفى السنوسى ، صدر فى الكويت ، ومن الكويت أيضا «مباهج الفكر ومناهج العبر»

للوطواط ، يتضمن صفحات من جغرافية مصر ، دراسة وتحقيق د . عبد العال الشامى . «رسائل عن الحرب والسلام» من إنشاء القاضى الفاضل ، تحقيق الدكتور محمد نعنش صدر عن الهيئة العامة للكتاب .

«جامع العبارات فى تحقيق الاستعارات» لمصطفى التونسى ، تحقيق د . محمد رمضان الحربى ، صدر فى ليبيا . من كتب البلاغة العربية ، «مقامات العلماء بين يدى الخلفاء والأمراء» لأبى حامد الغزالى ، تحقيق محمد جاسم الحديثى ، صدر فى بغداد .

«تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير» لروبن هاليست ، ترجم وطبع فى ليبيا .

«مجاعات مصر الفاطمية» للدكتور أحمد الصاوى ، صدر فى بيروت .

«موسوعة العمارة الإسلامية» للدكتور عبد الرحيم غالب . صدر فى بيروت .

«العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية» مجموعة دراسات ، صدرت فى تونس .

«شخصية العمدة فى المسرح المصرى» للدكتورة نجوى عانوس- الهيئة المصرية للكتاب .

«استنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية» لبرنارد لويس ، ترجمة د . سيد رضوان على . طبع فى ليبيا .

«سجن النساء» للدكتور عبد الله غانم . صدر عن المكتب الجامعى الحديث بالإسكندرية .

«حدس اللحظة» لغاستون باشلار ، الفيلسوف الفرنسى ، ترجمة رضا عزوز ، وعبد العزيز زمزم . صدر فى بغداد .

«الكلمة فى الرواية» بحث نقدى لميخائيل باختين ، ترجمة يوسف الحلاق ، صدر فى دمشق . أيضا «قضايا فى النقد الأدبى» تأليف ك . روثغن ترجمة الدكتور عبد الجبار المطلبى ، وهنا نلاحظ قلة الكتب المترجمة فى مصر من الآداب الأخرى وتلك ظاهرة تتزايد فى كل عام .

«المدينة العربية» للدكتور خالص الأشعب ، صدر عن جامعة الدول العربية» ، أيضا «دراسات فى المثل العربى المقارن» وكلاهما صدرا فى بغداد .

«الترانسنفير» أو الإبعاد الجماعى فى العقيدة الصهيونية ، ترجمات مختارة من العبرية ، قدم لها المناضل فى صفوف الثورة الفلسطينية . الدكتور محجوب عمر . والكتاب يلقى أضواء عديدة على موضوع الاستيطان الصهيونى ، وقد صدر فى وقت مناسب تماما مع كارثة هجرة اليهود السوفيت إلى الوطن الفلسطينى المحتل . عن فلسطين أيضا (الحكاية الشعبية فى المجتمع الفلسطينى) . نصوص جمعها الدكتور عمر الساريس وصدرت عن دار الكرمل فى عمان ، وكتاب آخر «بين التراث الرسمى والتراث الشعبى» لعبد اللطيف البرغوث . «الفن الإسلامى» لدافيد رايس ، صدر فى دمشق . وفى مكتبة الخانجى ، وجدت عددا من الكتب القيمة التى صدرت فى الأربعينيات وأصبحت في ندرة المخطوطات ، منها «نظامى الكنجوى» دراسة عن الشاعر الفارسى

العظيم للدكتور عبد المنعم حسنين ، ودراسة أخرى عن (سعدى الشيرازى) لمحمد هنداوى . والأدب الفارسى من الآداب العظيمة والقريبة منا ، لكننا نكاد نجهله على المستوى العام ، ويكفى أن ترجمة الدكتور عزام للشاهنامة ، ملحمة الفردوس الخالدة . لم تطبع فى مصر منذ عام ١٩٢٦ . بينما صورتها طهران وطبعتها عدة مرات . ومن الخانجى أيضا كتاب (التعليم فى مصر) لأمين سامى صاحب تقويم النيل ، هذه الموسوعة الفريدة التى تباع النسخة القديمة منها الآن بعدة مئات من الجنيهات ، ليت الدكتور سمير سرحان يتبنى إصدارها من جديد عن الهيئة . فى الإسكندرية وعن دار المعرفة الجامعية وجدت كتابا فريدا ، «الإعلان بأحكام البنيان» لابن الرامى . دراسة أثرية عن إحكام العمارة ، واهتمامى بالعمارة رافد من روافد اهتمامى بالبناء المعمارى للراوية ، أعتقد أن العمارة هى أقرب الفنون إلى الرواية . وسعيى إلى محاولة فهم العمارة الإسلامية جزء من محاولتى لفهم الخصوصية التى تتميز بها ، تلك الخصوصية التى أسعى إلى تجسيدها فى الإبداع الروائى ، من النصوص الروائية التى عدت بها رواية للأديب الروسى الذى عاش فى القرن الماضى سالتكوف شدرن ، صدرت فى دمشق ، و(باهيا) لجورج أمادو . صدرت فى بيروت ، و«قصة مدينة الحجر» لإسماعيل كادار الأديب الألمانى ، ومجموعة من إصدارات دار توبقال الغربية ، والتى يديرها الشاعر محمد بنيس ، والتى أصبحت خلال أعوام قليلة من أهم دور النشر العربية المعنية خاصة بترجمة نصوص النقد الفرنسى الحديث ، ونشر ما لا تنشره الدور المتخصصة فى التراث العربى . ومن أحدث إصداراتها

فى هذا المجال «كتاب الواحد والوحدة» للفارابى . تحقيق محسن مهدى ، ومن الجناح السوفيتى الذى شهد هذا العام فقرا شديدًا فى الكتب الجديدة . وجدت كتابين ، (المدن الأولى) عن أول مدن العالم فى وادى الرافدين ، ومصر ، وأمريكا اللاتينية ، و(سورية وفلسطين تحت الحكم العثمانى) لقسطنطين بازيلى ، المستشرق السوفيتى .

* * *

كم كلفنى حصاد المعرض ، إنه ادخار عام كامل ، حيث أعد له العدة ، ولكن السؤال الذى يتردد دائما عندى كلما أضفت جديدا إلى مكتبتى .

هل يتسع العمر لقراءة هذا كله ؟

بالقطع لا ، وهنا أذكر ما قاله شيخى بديع الزمان الهمذانى .

إذ قال :

«العمر لا يتسع للعلوم أجمعها . فلينفق على أحسنها»

وهذا ما أحاوله طبقا لتصورى ، ولميراثى الروحى والثقافى .

صديقي.. موسى صبري

يناير ١٩٩٥

ما أسرع كر الأيام .

تمضي سنوات ما بعد العشرين بإيقاع أسرع . ينتبه المرء فجأة فيجد نفسه في الثلاثين . وما بين ضحى وأصيل يبلغ الأربعين ، وبسرعة نزول الشمس إلى موضع مغربها تتوالى السنوات التالية . كل عقد كأنه باب أوصد إلى الأبد ، باب يفتح في اتجاه واحد فقط ، تجتازه إلى الأمام ، ولكن لا يمكن العودة منه ، هذا الباب المتوهم وصفته في قصة لي بعنوان (خروج) ، ضمنتها مجموعتي الأخيرة (ثماد الوقت) .

هذا العام . أبدأ عقدي الثالث في عملي بمؤسسة أخبار اليوم ، واحد وعشرون اكتملت ، منذ أن ألحقني الأستاذ محمود أمين العالم ، أثناء رئاسته مجلس الإدارة في نهاية الستينيات . محدثا بذلك تحولا عميقا في حياتي ، في البداية عملت في قسم المعلومات الذي أسسه الدكتور الصاوي في نهاية الخمسينيات ، كان يرأسه وقتئذ الصديق الدكتور حسين رجب ، ويعمل فيه واحد من أطهار البشر الذين عرفتهم ، شابا ، جنوبيا ، يحمل كل القيم الجميلة ، أقصد الراحل حنفي سليمان . الذي قضى مبكرا في حادث سيارة ، كانت ظروف عملي بالقسم مثالية بالنسبة لي ، حيث أصل الجريدة في الخامسة بعد الظهر ، وأمكث أربع ساعات نقرأ خلالها «بروفات» الأخبار ، والمقالات . ونصحح ما قد نجده من معلومات خاطئة . فإذا ورد اسم علم خطأ ، أو عاصمة أو حدث تاريخي ، ندققه ، مستندين إلى عدد هائل من المراجع ، كنت أنصرف والليل في بدايته ، متجها إلى مقهى

الفيشاوى فأمضى ساعة أو أكثر ، أعود بعدها إلى بيتى فى الجمالية حيث أقطع الليل كله حتى الصبح ما بين اطلاع وكتابة وإذا ما أشرقت الشمس أهجع سويعات ، كان ذلك مناسبا جدا ، فكل مبدع يحاول أن يطوع ظروف عمله الذى يمكنه من العيش ، حتى يمكنه توفير الوقت لإبداعه ، وقد كنت وما زلت أضع ذلك فى أولويات جهدى ، فالإبداع محور حياتى ، وما عداه إطار ، هو المتن أما الظروف الأخرى فحواشى عليه ، هكذا استمر الأمر ، حتى وقع تغير فى الظروف ، وانتقل موسى صبرى من جريدة الجمهورية إلى الأخبار ، لم أكن أعرفه ، بل لم ألتق به من قبل ، وبعد وصوله بعدة أيام . فوجئت بأحد الزملاء يقول لى : الأستاذ موسى يريد أن يتعرف بك ، وأصغيت وفى داخلى حذر وتساؤل ، ثم مضيت لأقابله .

* * *

كان يجلس فى مكتبه ذاته الذى يقبع فيه الآن ، لم يتغير فيه طوال هذه الأعوام إلا وضع المكتب ، كان فى مواجهة الداخل ، فأصبح فى منتصفها ، وفى مواجهة صورة للمرحومة السيدة زوجته ، بصحبة أبنائهما الثلاثة ، وكتب فوق أرفف ، وأوراق . قابلنى مبتسما ، قال أنه قرأ لى (أوراق شاب عاش منذ ألف عام) كتابى الأول . وأنه معجب به . أومأت شاكرا ، مرحبا بما سمعته ، وقلبى يحدثنى أنه ثمة غرض آخر للمقابلة ، وبالفعل ، سألنى فجأة «أنت بتعمل إيه فى قسم المعلومات؟» ، وقبل أن أجيب قال بسرعة : «أنت لازم تروح قسم التحقيقات» . وهنا

تطلعت إليه بملامح حاولت بقدر الإمكان ألا تعبر عن رد فعلى الداخلى الذى كان يتلخص فى الرفض ، قلت أرجو أن تعطينى فرصة لأفكر ، أبدى دهشة ، وقال أن التحقيقات قسم متميز وهو نقلة كبيرة بالنسبة للمعلومات . ولسنوات تالية ظل يردد ؛ أنه عندما عرض على ذلك أبديت ترددًا ، وذهبت أسأل محمد عودة وأستشيره الرأى .

وسبب ذلك هو خوف أظنه تقليديا عند الأدباء المبدعين من العمل الصحفى اليومى ، قال همنجواى يوما أن الصحافة تدمر مراكز الذاكرة ، وأن الأديب يجب أن يتركها فى وقت معين ، فالصحافة طابعها السرعة ، والأدب طابعه التأمل البطىء ، ودائما تسعى الصحافة للاستفادة من موهبة الأديب ، فلا يوجد أديب مهما كان حجمه يعمل كمبدع ، أى تكتفى جريدته بنشر قصصه أو قصائده فقط . لكن لابد من إدخاله فى دائرة العمل الصحفى بشكل أو بآخر ، وبالفعل ، كنت حذرًا فى بداية عملى الصحفى . وكان عملى بقسم المعلومات يشكل وضعا مثاليا ، وبالفعل أيضا ذهبت إلى صديقى وأستاذى محمد عودة الذى كنت أصحبه منذ سنوات طويلة ، فقال لى بلا تردد : إن موسى صحفى كبير ، وسوف تستفيد كثيرا من عملك معه ، والتحقيقات الصحفية سوف تمنحك خبرة .

هكذا . . التحقت بقسم التحقيقات ، وعملت مع زملاء أفاضل تعاقبوا عليه ، أحمد الجندى ، وعادل حسين ، وعفاف يحيى ، ومن خلال التجربة أدركت أن للإرادة دورًا كبيرًا ، فحرصت على

أن تضيف الصحافة إلى تجربتى الحياتية ، ولا تأخذ من رصيدى الحى ، وكان لابد أن أختار المجالات التى تثرى تلك الخبرة ، فى هذا الوقت البعيد ، كانت هزيمة يونيو لا تزال طرية ، والجراح الغائرة تنزف ، سافرت إلى الجبهة أول مرة فى نهاية عام ١٩٦٩ ، وعدت لأكتب تحقيقا مطولا بعنوان «المقاتل المصرى كما رأيته على خط النار» ، وكان بصحبتى الفنان مصطفى حسين الذى رسم لوحات معبرة . والأستاذ أحمد زين ، والمراسل الحربى المخضرم صلاح قبضايا ، نشر ما كتبت على صفحة كاملة ، وكان رؤية إنسانية للمقاتل المصرى فى أوج حرب الاستنزاف المقدسة ، ثم تكررت رحلاتى إلى الجبهة ، وكان موسى صبرى لا يبدى أى ممانعة ، عندما أبدى الرغبة ، كان وما زال مكتبه مفتوحا باستمرار . لم يحجب نفسه قط ، فى أية لحظة يمكن الدخول إليه ، ويبدو أن هذا تقليد قديم فى مؤسسة أخبار اليوم فمكتب الأستاذ مصطفى أمين مفتوح دائما ، وكذلك الأستاذ سعيد سنبل . أما السكرتارية فلتنظيم الأوراق وللرد على المكاتبات ، ويبدو أن ما كتبت عن قواتنا المسلحة وعن معارك حرب الاستنزاف البطولية لاقى أضواء طيبة ، وإذا بموسى صبرى يخبرنى بقرار اتخاذه .

* * *

كنت أتجه مشيا إلى الدار ، وعندما توقفت سيارته إلى جوارى ، كان يمتلك عربة نصر رمادية ، قديمة ١٣٠٠ ، يقودها بنفسه ، قبل أن تتيسر أحوال المؤسسة ويصبح لمعظم المسئولين عربات خاصة ،

كان موسى صبرى وما زال يسكن فى شقة صغيرة من ثلاث حجرات بالزمالك ، أخبرنى من دخلها أنها ضيقة ، وأنه استعان بالدكتور ميلاد حنا ليقفل له الشرفة حتى تصبح بمثابة حجرة صغيرة لأحد أبنائه ، ولو شاء موسى صبرى من خلال موقعه أن تكون له إحدى شقق المحافظة ، أو الحراسة ، لأراد ، وأعرف زملاء أصغر منه بكثير حصلوا بصلاتهم وعلاقاتهم على شقق فسيحة ، وفى أماكن ممتازة من القاهرة ، ولكننى لم أعرف يوما عنه أى استغلال لموقعه ، حتى عندما أصبح أقرب المقربين إلى أعلى مستوى فى الدولة ، وأظن أن عنده حساسية مفرطة تجاه هذه النقطة .

المهم . . أطل من نافذة السيارة . وطلب منى أن أركب إلى جواره ، قال على الفور أنه قرر أن يرسل خطابا إلى القوات المسلحة لاعتمادى كمراسل حربى للأخبار ، وفى هذه المرة فرحت وتلقيت ذلك بسرور . إذ كان يتيح لى فرصة معايشة ظرف تاريخى فريد ، واستثنائى يمر به وطنى ، وكان عملى كمراسل حربى وسيلتى للمعايشة ، وما زلت أعتبر السنوات التى أمضيتها فى الجبهة أغنى سنوات خبرتى المهنية والإنسانية ، وحتى الآن لم يكتمل تعبيرى الإبداعى عنها . ومنها ارتبطت بعلاقات إنسانية نادرة ما زالت مستمرة ، أطرافها الآخرون هم المقاتلون العظام ، الذين دافعوا عن الوطن فى محنته ، من هنا اعتزازى ومصدر فخرى ، ودفاعى عن تلك الأيام ضد كل من يحاول المساس بها وتشويهها ، فقد شاهدت بأم عينى ، وعشت بحواسى ، وعلى المستوى المهنى حققت ما يسمى فى عرف مهنتنا بالخبطات الصحفية . فقد كنت

أول من أعلن عن إغراق البحرية المصرية للغواصة الإسرائيلية (داكار) ، يومها هنأني موسى صبرى ، وقرر لى مكافأة عشرة جنيهات . واعتذر لى لأنه لا يستطيع أكثر ، وفى ٣٠ يونيو ١٩٧٠ كنت مع رفيق أيامى تلك مكرم جاد الكريم فى الجبهة ورأينا بأعيننا سقوط طائرات الفانتوم بالصواريخ المصرية . وعندما قام الزعيم الراحل جمال عبد الناصر بأخر زياراته إلى الجبهة ، كنت مع مكرم الصحفيين الوحيدين اللذين تابعا الزيارة ، لم أكن أعتمد على صلات بمصادر عليا ، ولكننى كنت مع مكرم دائما فى الخطوط الأمامية ، فندرك الحدث وقت وقوعه مباشرة . وفى أحد الأيام عند خروجنا من مدينة السويس تحطمت سيارة الأخبار فى حادث تصادم مع عربة عسكرية أثناء غارة جوية ، أصيب مكرم وأصبت أنا ، وتم إخراجنا من السيارة بصعوبة . ولكن قبل إخراجنا كان كل من يرى العربة يتساءل (فين الجثث؟) . حتى أن المرحوم حسن غنيمة تصادف مروره نازلا القاهرة ، وسمع من أخبره بمصرعنا فأخطر الرجل موسى صبرى ، وعندئذ أمر بتوجه عربات الأخبار الموجودة كلها فى الخدمة لإحضار جثثنا (من غير بهدلة) ، وأبدى حزنا كبيرا ، وتصادف بعد إخراجنا مرور المرحوم بدوى الخولى محافظ السويس وقتئذ . فاصطحبنا بسيارته ، رفضنا الذهاب إلى المستشفى فمعنا شغل مهم ، ونزلنا أنا ومكرم ننزف دما أمام مؤسسة أخبار اليوم فى الوقت الذى كان زميلنا فاروق الشاذلى يتجه إلى الجبهة للعودة بجثثنا . وكانت مفاجأة ، بعد أسبوع ، إثر عودتنا قرر موسى صبرى التأمين علينا بمبلغ كبير . أنا ومكرم وفاروق الشاذلى . ولكن ما من شركة تأمين واحدة

قبلت ، لأننا معرضون دائما لأخطار الحرب ، واستمرت إقامتنا بالجبهة .

* * *

يحترم موسى صبرى الموهبة ، ولا يغار منها ، بل يسعى إلى إبرازها ، ويحترم من يخالفه الرأى ، وبالنسبة لى كنت على الطرف الآخر منه تماما ، خاصة فى زمن السادات ، ولكننى أشهد أنه لم يلحق بى أى أذى بسبب آرائى ، ولم يضغط علىّ إطلاقا لأحيد عنها ، ولم يستدع أحد الصحفيين أو الكتاب ليساومه على إبدال رأيه ، أو تغيير موقفه ، صحيح .. كان المنع من الكتابة أو التجميد ممكنا ، لكنه ليس نتيجة قرار شخصى ، إنما بتأثير ظروف عامة ، أو كما كنا نقول «جاء تليفون» .. ، وأعتقد أن موسى صبرى يكن احتراما عميقا لمخالفيه فى الرأى ، الذين يثبتون على وجهة نظرهم ، بل أحيانا ألمح فى لهجة حديثه إعجابا بالبعض من ذوى الصلابة ، وكأنه يتمنى أن يكون موضعهم ، واحترام المخالف فى الرأى مبدأ قديم من مبادئ مدرسة أخبار اليوم ، هكذا . كان سلامه موسى ، وصلاح حافظ ، وسعد كامل ، من ألمع المحررين والكتاب ، مع أن آراءهم وقناعاتهم تختلف جذريا مع مصطفى أمين وشقيقه الراحل . موسى صبرى تلميذ مخلص لأستاذه مصطفى أمين ، ولقيمها المهنية التى تضع المهنة فوق كل اعتبار ، حتى وإن بدا خلاف بينهما فى لحظة ما قد يصل إلى حد التراشق بين الصفحة الأولى والأخيرة . وفى السنوات الأخيرة ، بعد تقاعد موسى صبرى ، اعتدت أن ألقاه وأن أجلس مطولا

إليه . نتحدث فى الحياة ، وعن الناس ، ويمكن القول أننى أرى فيه قدرا من الحكمة . والقدرة على تقييم البشر والأشياء ، بتأثير من اكتملت له رؤية الحياة ، وأدرك زوالها الحتمى . لقد عاش طوال حياته هدفا لكثيرين . وخاض معارك جمة ، وهو بالمناسبة مهاجم ممتاز ، مقاتل هجومى ، لكنه فى رأيى لا يجيد الدفاع . ولذلك أحيانا يدخل فى معارك غريبة ، مثل هجومه على الفنانة سهير البابلى ، ولكنه فى كل الأحوال والظروف يحترم من يختلف معه ، بل وينحنى له عند المواقف التى تبرز فيها المبدئية .

* * *

منذ سنوات ، صدر السفر الأول من روايتى (كتاب التجليات) . قرأها فنان كبير راحل ، كان صديق عمر له ، وكنت على علاقة هذه الذكريات ، ولماذا تلح علىّ خلال الأيام الأخيرة ربما لما تعرض له مؤخرًا مصدره شاب أجنبى وربما لأن سنى العمر تولّت ، وأحيانا يشعر الإنسان أنه ينبغى المجاهرة بقول حق فى بعض من عرفهم عن قرب . وعايشهم سنوات جميلة بما حوته من مباهج ومرارات . سنوات لن ترجع أبدا .

الخميس:

كابوس روعنى .

هذا السفاح الأمريكى تشارلز الذى يقدر عدد الأطفال المصريين الذين فتك بهم حتى الآن بأكثر من مائتين طفل ، مائتى لغم حامل بفيروس الإيدز . أسئلة عديدة تتردد عندى وعند كل من يتابع هذه القضية المرعبة .

كيف أقام لمدة ثلاث سنوات فى مصر ، تحت أى وضع ؟

لماذا كان يتردد بين مصر وإسرائيل بانتظام ، ولماذا كان يتقاضى راتبا من السفارة الأمريكية .

هل هو جزء من مخطط صهيونى لنشر الإيدز فى مصر ، بالتأكيد ليس وحده ، وهنا أذكر تحقيقات صحفية أجراها الزميل محمود بكرى فى جريدة الشعب منذ حوالى عامين عن فتيات إسرائيليات مصابات بالإيدز يقمن علاقات مع الشباب المصرى . هل من علاقة بين الطرفين . المعروف أن المصادر العلمية تشبه الإيدز بالقنبلة النووية ، إذ أنه ينسف الحياة البشرية الآن من مناطق كاملة فى أفريقيا .

ومعروف أن كثافة مصر السكانية من الأمور التى تثير قلق إسرائيل بشدة .

أخيرا .. لماذا تم ترحيله ، لماذا لم يعاقب على جرائمه البشعة تلك .

كنت أقرأ باستنكار فى الصحف الأجنبية ما ينشر عن دعارة الأطفال فى الفلبين وجنوب شرق آسيا ، هل أصبحت مصر مرتعا للشواذ والمرض ، والسفاحين ؟؟

وا آسفاه !!!

◇ البصرة .. شرقا

يناير ١٩٩٥

.. من أى العناصر تستمد البصرة حضورها الطاغى اللامرئى ؟ من التاريخ ، أو الأسطورة ، أو الحاضر الأشم ؟ ، لا أنزلها إلا وأشعر أنه أولج بى فى أزمنة متجاورة ، وتلفنى أطياف لا تُرى ، جئتها أول مرة منذ ست عشرة سنة ، يومئذ وقفت محدقا فى المراكب العتيقة الشراعية وبحارتها الهنود الفقراء عراة الأجسام ، لم أتصور قط أن المراكب التى أقلع فيها السندباد سبع مرات لاتزال موجودة ، تعمل ، تعبر المحيط الهندى ، تصل الشواطىء العربية ، بالشاطىء الهندى ، ومنذ شهور رأيتها فى دبى .

تلقاك البصرة بتماثيل لشعراء وأدباء وعلماء ، للفراهيدى واضع علم العروض ، لبدر شاكر السياب الذى يقف على الشاطىء واضعا قصيدة فى جيبه مكتوبة فوق ورق مطوى ، خلال سنوات الحرب ، طارت شظية فنالت منه ، جرحت جيبه ، فاكتمل التمثال كما قال أحد أدباء البصرة ، كان هذا التمثال مؤثرًا ، ولكن التماثيل التى قامت إلى جواره والتى رأيتها منذ أسبوعين لأول مرة تبعث فى الفؤاد رعدة وفى القلب شجنًا . وفى الذاكرة غصة .

* * *

جئت البصرة مرات عدة خلال زمن الحرب ، وفى كل مرة كنت أجوس فى أذقتها ، وأمشى بمحاذاة نهر العشار ، وأتأمل واجهات بيوتها الخشبية ، وأسعى إلى سوقها القديمة لأدخن النرجيلة العتيقة فى مقهى التجار ، أتأمل أزياء أهلها القديمة ، وأستشعر دمائتهم ، وفى الفراغ تحلق أرواح بلا حصر ، بدءا من عتبة بن غزوان الذى أسسها فى العام السادس عشر من الهجرة بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . سميت البصرة أى الحجر

الأبيض . لون الأرض ، وحتى روح أبى موسى الأشعرى الذى بنى أول مساجدها . وسيدنا ومولانا على بن أبى طالب الذى وطأ هذه الأرض ومشى فوقها ، إلى أرواح أخوان الصفاء ، والحريرى صاحب المقامات ، وسائر الأدباء العرب الذين مروا بها وذكروها أو أقاموا بها ، والمتصوف الكبير الحسن البصرى ، ورابعة ، أما الشخصية التى كنت أفكر فيها دائما كلما جئت هنا ، على بن محمد قائد ثورة الزنج ، أو صاحب الزنج كما تسميه المصادر التاريخية ، قاد ثورة العبيد الهائلة التى أقضت مضجع الخليفة العباسى ، أسس دولة يحكمها العبيد استمرت أربع عشرة سنة ، وعندما نزلت المدينة أول مرة كنت ملما بكافة التفاصيل الممكنة التى جاءت بها المراجع التاريخية ، والدراسات الحديثة القليلة عنها ومنها دراسة لعميدنا طه حسين ، وأخرى لباحث لبنانى هو أحمد علبى ، كان أحد أهدافى هو معاينة الطبيعة الخاصة للمكان فربما شرعت فى كتابة رواية يوما ما عن تلك الثورة ، فأكون مستوعبا بالذاكرة للمكان ، هكذا زرت الأبلة ، المدينة القديمة المندثرة ، وغابات النخيل الكثيفة التى تتخللها قنوات المياه المتفرعة من نهر شط العرب ، ولى بالنخيل علاقة وطيدة وخاصة ، فمنه الرسوخ والبسوق والإحساس بالأبدية ، يستدعى إلىّ خصوصية صعيدنا الحبيب ، حيث أول أرض لامسها رأسى عندما وفدت إلى هذا العالم . من هنا كان تأثرى العميق عندما زرت المدينة عام ١٩٨٦ وفوجئت بقص مئات الآلاف من أشجار النخيل للضرورة العسكرية ، وقد رأيت بقاياها الذاوية ونحن فى الطريق إلى مدينة الفاو ، كم من السنوات يحتاج هذا النخيل ليسترد خضرته ؟ لا أدرى ، ولكننى أعرف أن الأشجار تتشبث بالحياة تمامًا كالإنسان ،

وأذكر شجرة ضخمة فى الحديقة الخلفية لبيت السحيمى ، أطلعنى عليها الصديق محمد مجاهد ، شاخت ومالت ، غير أن خضرتها لم تجف ، وظلت متصلة بأصولها الأولى عبر جذر نخيل لا يتجاوز قطره بضعة ملليمترات ، وأمام بيتى العمارة التى أقطنها جزوا شجرة عتيقة عند الشروع فى بناء جديد ، لم يتبق منها إلا جزء من الساق ، وقد كانت باسقة . مورقة ، ولكن بعد فترة يسيرة فوجئت باللون الأخضر ينبت من الجذع المقصوص ويتفرع ، مقاوما للعدم ، للفناء ، الشجرة كائن حى ، يشعر ، يولد ويموت ، وفى زمن الحرب التى خاضتها بلادى كانت الأشجار فى الجبهة تذوى ، تتضاءل أمام مطر الشظايا ، وكان الجنود يقولون لى (الشجر بيتخض) أى يفزع ، وأخبرنى من أثق به عن شيخ فاضل عاش منذ أعوام طويلة كان ينزل إلى حديقة بيته ، فيخاطب الأشجار ، يتوقف أمام أحداها ، ويتساءل :

«مالك حزينة ليه ؟» ، أو «إيه إللى جرى لك النهارده ؟»

من يدري . ربما ثمة حوار لا يدريه إلا أهل الكشف ، ربما كان للأشجار صريخ عند الاحتضار ، لكننا لم نصغ إليه ، غير أن قلبى انفطر على نخيل البصرة ، فدمعت وكأن حزنى على بشر من لحم ، ودم ، وانقضى قبل الأوان . قبل أن ينجب ويملأ الدنيا ذرية صالحة ، فهل يعود اللون الأخضر إلى نخيل البصرة من جديد ؟

* * *

من نافذة الحافلة التى تنقلنا من المطار إلى الفندق ، لمحت التماثيل . . لا . . بل الشواهد . النصب الحية التى لم أرها من قبل ، بل المعانى التى تجسدت أحجارا مصاغة من جديدة ، فكرة رائعة تجسدت فى فضاء المدينة العبقة بالتاريخ والبطولة .

على امتداد شاطىء نهر شط العرب . طول واجهة المدينة ، على النهر مباشرة . بعد تمثال السياب ، وعلى مسافات متساوية يقف مقاتلون عراقيون من رتب مختلفة ، ومن أسلحة متعددة ، كلهم يولون وجوههم شرقا . ذراع كل منهم اليمنى مفرودة فى الهواء على امتدادها ، تشير الأصابع المتتالية إلى الشرق ، إلى الضفة الأخرى من النهر ، إلى الأرض التى نحرت فوقها الدبابات والجنزرات وانفجرت ملايين القذائف ، وسعت الشظايا مختلفة الأحجام ، استقر كل منها داخل أجسادهم فغادروا الحياة وبقى المعنى ، تتعدد الأسلحة وعيارات القذائف ، والصواريخ ، وتتعقد وسائل الإطلاق والتفجير . ولكن يظل الهدف جليا ، واضحا ، بسيطا فى حدة وهو أن تنفذ قطعة من الحديد الساخن إلى عمر الإنسان فتجهز عليه تتوالى الشواهد التى صيغت تماثيل .

فى منتصف التسعة والتسعين شهيدا يشهق تمثال ضخم مغلف بضبابة حزن . ملامح البطل العربى ، الشهيد الذى قضى بعد أن أدى واجبه كاملا ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها . الفريق أول عدنان خير الله . تمتد ذراعه اليمنى فى اتجاه الشرق أيضا ، غير أن وجهه يستدير ليواجهه رجاله الذين رحلوا . فى وقفته رسوخ الثقة وهيبة الثقة . وهيبة القيادة ، وإنسانية الحضور ، عندما تطلعت من غرفتى فى الفندق المطل على نهر شط العرب ، كانت الإشارات الصامتة الأيدية تطالعنى من بين غصون الأشجار ، وقممها الفارهة ، فى الليل كانت القطع الحجرية البرونزية المنحوتة تبرز بظلالها من بين العتمة ، والأضواء الشاحبة حضور هذه التماثيل غير شخصية المدينة تماما .

* * *

مطر رذاذى ثقيل والصباح باكر ، خرجت من الفندق إلى الشاطىء المواجه يصحبنى الصديق الدكتور يسرى العزب ، مشينا نتطلع إلى التماثيل ، والغمام الرمادى الكثيف يثقل السماء الدانية ، لكل وجه ملامح صاحبه الذى رحل . وفوق القاعدة لافتة صغيرة من نحاس حفر فوقها الاسم والرتبة وتاريخ الاستشهاد . ورقم الوحدة العسكرية .

عقيد ركن برجس عدنان ، مدرعات . استشهد شرق بحيرة الأسماك فى ١٣ يوليو ٨٧ .

رائد صلاح زكى حميد ، مدرعات ، استشهد فى الطاهرى ٤ مايو ١٩٨٢ .

رائد طيار فاضل عبد الرازق ، استشهد فى جزر مجنون ٢٣ فبراير ٨٤ ، تتوالى الأسماء والرتب ، ومواقع وتاريخ الاستشهاد فتضفى حيوية . وهيبة على الحجر ، حتى نصل إلى اثنين يحيطان تمثال الشهيد عدنان . الأول عميد ركن على جاسم الحيانى ، قائد فرقة مشاه استشهد فى ٢٥ فبراير ١٩٨٦ . والثانى عميد ركن طاهر عبد الرشيد قائد فرقة مدرعة استشهد فى ٢٣ يوليو ١٩٨٨ ، أى قبل وقف إطلاق النار بفترة قصيرة ، ثم نصل إلى تمثال الشهيد عدنان خير الله ، الذى وصفه صديقى يوسف القعيد بحق أنه قمر شط العرب الغائب الحاضر .

تزايدت قطرات المطر بينما رحت أتطلع إلى التمثال من زوايا مختلفة . وصور بلا حصر تتوالى على الذهن . بدءا من أول لقاء

به فى مرتفعات الشمال عام ١٩٧٥ ، وحتى استقباله لنا فى بيته الريفى بضاحية الرشيدية القريبة من بغداد ، وحديثه لى عندما صحبنى ليطلعنى على ما تحتويه المزرعة ، من بحيرات صناعية للسمك ، وزهور نادرة ، وأمنيته أن يتفرغ هنا للزراعة وتمضية ما تبقى من العمر ، كنت أستعيد نبرات صوته فى مرات لقاءاتنا الهادئة ، أو الصاخبة بتأثير القصف فى مواقع قيادته المتقدمة ، كان فارسا بحق ، لا يكل ولا يمل ، وكما قال لى واحد من أقرب العاملين معه «رحمه الله .. تعب كثيرا وتعبنا معه» ، فى الفاو زرت مسجده بناء معمارى جميل ونادر ، المسجد كله عبارة عن قبة هائلة ، يؤدى إليها ممر من أعمدة خرسانية متشابكة ، قبة مهيبة تحتوى القبلة والذكرى والتاريخ ، لم يمتد به العمر حتى يحقق أمنياته البسيطة الحالمة زمن الحرب ، وبدلا من لقائه ، والحوار حول الأدب والشعر والقتال واحتمالات المستقبل ، والغناء العراقى القديم ، هأنذا أحاول أن أتلمس ذكرى أفلتت من النسيان بتأثير هذا التمثال المهيب الذى يشير إلى البصرة شرقا .

عندما فارقنا البصرة ليلا كان آخر ما وقع عليه بصرى التماثيل ، ما أجمل الفكرة ، عرفوا كيف يخلدون شهداءهم ، وفى المقابل تذكرت ما أثير حول وضع تمثال لدليسبس فى مدخل القناة ، أليس من الأجدر أن نقيم نصبا لشهدائنا الذين قضوا فى معارك مصر الحديثة ، وليتهم يشيرون إلى الشرق أيضا ، حيث مطلع الشمس ، أم أن الزمن الذى تغيب فيه ذكراهم ويأتى من يشكك فى حروبهم المقدسة التى خاضوها وبذلوا أرواحهم من أجل أوطانهم .

ليتنى أمر يوما بشاطىء القناة فأرى نصبا كتماثيل البصرة تشير إلى الشرق . فكلهم هنا أو هناك استشهدوا جهة مطلع الشمس .

* * *

.. هناك نزوح جماعى للمصرين الآن من العراق ، سافرنا على طائرة ضخمة تتسع لأكثر من أربعمائة ، لم يكن عليها أكثر من أربعين . وفى قدومنا لم يكن هناك مكان خال . أما الرحلات فمحجوزة حتى مطلع يونيو القادم ، بالتأكيد حدث تغير كبير فى المعاملات اليومية بعد الضجة التى أثيرت مؤخرا ، وكان ذلك بتأثير تعليمات الرئيس صدام حسين الذى يكن وداً خاصا لمصر ، ولكن تجربة انتقال العمالة المصرية أصابتها عثرات . لقد بدأت بمشروع قرية الخالصة ، وكانت بداية موفقة ، إذ انتقل الفلاح مع عائلته وأطفاله ليقيم هناك نهائيا ، ثم فتح الباب على مصراعيه فتدفقت أعداد هائلة ، بلا ضابط من الوطن الأم ، ولا رابط هناك ، قابلت شبابا مؤهلين ، جامعيين . وفى تخصصات نادرة يعملون فى المقاهى ، أو يبيعون السجائر . وفلاحين خبراء بالأرض وقد أصبح الفلاح الآن عملة نادرة ، يعملون فى مهن لا علاقة لها بالفلاحة ، وهكذا خسرتهم مصر والعراق . لم يكن هناك تخطيط أو تنظيم لانتقال العمالة . من ناحية أخرى انتقلت عناصر أساءت إلى جهود العاملين الشرفاء الذين حملوا عبء الجبهة الداخلية طوال زمن الحرب ، وبالطبع ضخمت الأخطاء ويجب ألا ننسى أن هناك قوى داخل المجتمع العراقى ضد انتقال المصريين الكثيف . لقد كان انتقال العمالة المصرية إنجازًا قوميا كبيرا ، ولكن التجربة تعثرت ، وأدت إلى نتائج عكس المراد

منها . الآن . . يمكن أن يلحظ الزائر بسهولة قلة الوجود المصرى ، كما أن العديد من المطاعم أغلق أو توقف عن العمل بسبب عودة العمالة ، إن ما أرجوه هو دراسة السلبيات التى صاحبت التجربة ، فربما تتكرر فى المستقبل البعيد تجربة الهجرة مرة أخرى ، عندئذ يمكن تلافيها ، وأتمنى أن يتم ذلك بصراحة تامة وبعيدا عن الحساسيات التى اعتدنا نحن العرب على تجنبها أو الدوران حولها ، إن ذلك ضرورى لمصلحة الشعبين .

* * *

خرجت مع الصديق يوسف القعيد نبحث عن مطعم نتناول فيه الغداء ، لقد تدهور مستوى الخدمة فى فندق المنصور ميليا . الذى أختير كمقر لندوة القصة والحرب ، ولا أدرى السبب . هل لأنه طرح للملكية القطاع الخاص كما قال لنا أحد الأصدقاء ، أو لأن مديرا جديدا أسبانيا وصل منذ شهرين وحوله إلى مايشبه المعسكر ، فلا يوجد مكان ، المهم نصحنا البعض بالذهاب إلى شارع النضال ، حيث تصطف مجموعة من المطاعم التى تقدم وجبات عراقية ، خاصة (الباحة) أى لحمة الرأس والكوارع . قالوا لنا هناك مطعم شهير جدًا ونظيف . ركبنا عربة أجرة ، قطعنا مسافة ، وأخيرا لاحت لافتة تحمل اسم المطعم ، غادرنا السيارة ، لكننا فوجئنا به مغلقا ، ولافتة ضخمة من القماش تسد المدخل كتب فوقها «مغلق . . لمخالفته الشروط الصحية بأمر وزارة الصحة» . توقفنا حائرين ، ثم تبادلنا الابتسام ، وعدنا إلى الفندق مرغمين !

◇ عَمَّة البشر

فبراير ١٩٩٥

.. فى اليوميات السابقة رثيت نخيل البصرة ، مئات الألوف من أشجار النخيل التى قصت خلال الحرب للضرورة العسكرية ، حدثنى صديقى الكبير عبد الوارث الدسوقى أحد شيوخ مهنتنا ، وسدنتها . الحافظين لكل قيمها الشريفة ، والنبيلة ، ولو مضيت متحدثا عنه فإن ذلك ليطول ، ويتشعب .

قال لى : اكتب منبها إلى ثروة مصر من النخيل ، فما يتهددها من مصير سيلحقها بنخيل البصرة ، ولكن بدون حرب ، إنما هو الإهمال . وعدم إدراك القيمة . شاطىء النخيل الفريد فى العريش يتآكل أمام زحف الأسمنت ، نخيل الصعيد يهمل ، وكثير منه لا يلقى العناية اللازمة .

على أى حال هأنذا أمتثل لشيخنا عبد الوارث الدسوقى ، وأستأنف الحديث عن النخيل المصرى . تلك الثروة القومية المهددة بالفقد ، تدفعنى أيضا صلة قديمة وطيدة تشكل ركنا من تكوينى الروحى .

* * *

نعم .. فللنخيل عندى منزلة وهوى ، يضرب ، بجذوره فى عمرى ، ويبسط ظلال سعفه على أيامى ، خاصة نخيل جهينة الباسقات ، الأشجار التى تمنح طبيعة صعيدنا رسوخا وأبدية ، **فالنخلة فرعها فى الهواء ، منطلقة ، محددة ، لا تميل مع الهوى ، ولا تنحنى للأعاصير ، سامقة كأنها إشارة التوحيد ، منها استوحى الفراعنة شكل المسلات ، وقدسوها ، اعتبروها شجرة الفردوس ، وفى سفر التكوين اعتبرت شجرة المعرفة . أما الملك سليمان فنقشها على خاتمه ، وحفرها الأغريق على نقدهم .**

ولكن أرفع تكريم من قبل ومن بعد ورد فى القرآن الكريم ، إنها الشجرة التى أوت إليها سيدتنا العذراء فى مخاضها ، وهزتها فتساقط عليها رطباً جنيا .

وفى حديث منسوب إلى نبينا وشفيعنا رسولنا الكريم أنه قال : «أَكْرِموا عَمَّتَكُم النخلَة فإنّها خُلقتْ من الطين الذى خُلِقَ منه آدم ، وليس شىءٌ من الشجر يُلقّح غيرها ، وأطعموا نساءكم الوُلَّد الرُّطَبَ فإن لم يكن الرطب فالتمر ، وليسَ شىءٌ من الشجر أكرم على الله جَلَّ وعزّ من شجرةٍ نزلت تحتها مَرْيَمُ ابنةُ عِمْران» .

ورد الحديث بسنده فى «النهاية فى غريب الحديث والأثر» ، و«الدرر المنتشرة فى الأحاديث المشتهرة» و «غريب الحديث للخطابى» إذن فالنخلة هى عمتنا . عمة البشر .

بالتأكيد . . لم أكن أعرف هذا كله فى طفولتى ، عندما كنت أمضى بصحبة الأسرة إلى أول أرض لامسها رأسى ، لنقضى شهور عطلة الصيف فى جهينة ، كلما أوغل القطار جنوبا تزداد كثافة النخيل ، تقصر المسافات بين أشجاره يقترب من الخط الحديدى حتى ليكاد السعف أن يلامس العربات المنطلقة ، وعند الأفق خط متصل منها ، رشيق ، باسق أنثوى المشهد ، للسعف حضور راقصات رشيقات قادمات من أزمنة سحيقة البعد ، كنت دائما أحلق إلى النخيل ، أطبع حضورها فى ذاكرتى الأولى . .

* * *

. . ثمانية كتب خصصت للنخيل فى التراث العربى لم تصلنا للأسف ، أما ما وصل إلينا فكتاب «النخلة» لأبى حاتم

السجستانى المتوفى عام ٢٥٥ هجرية ، نشر نصه فى مجلة المورد العراقية عام ١٩٨٥ ، وكتاب «النخل والكرم» المنسوب إلى الأصمعى . وكتيب النبطى نشر أيضا فى المورد عام ١٩٧١ . وهناك فصول وأبواب أفردت للحديث عن النخلة فى المصادر التراثية . ومن أحدث ما كتبه فى أدبنا ذلك الفصل الفريد ، الجميل ، الذى كتبه الأديب والفنان عبد الفتاح الجمل فى رحلته إلى الساحل الشمالى وإلى واحة سيوة «آمون وطواحين الصمت» وصدر عن الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٧٤ . وهناك دراسة علمية مركزة للدكتور عثمان خيرت نشرت عام ١٩٧٠ فى مجلة الفنون الشعبية أما حديث الأغانى الشعبية عن النخيل فلا حصر له . يا نخلتين فى العلا لى يا بلحهم دوا ، أو . . يا جريد النخل العالى طاطى ورد السلام ، نجد ذكره فى التراث الفرعونى . كانت النخلة شجرة مقدسة ، نقشوا صورها على جدران المقابر ، عثروا فى مقبرة قرب ارمنت على مومياء من عصر ما قبل التاريخ ملفوفة فى حصير من وريقات نخل البلح ، استخرجوا من منقوع البلح نوعا من الخمر استخدموه فى عمليات التحنيط ، دخل النخيل حياتهم وما زال ، استخدم كأسقف للمنازل ، وفى تشييد الحظائر ، وعمل الأقفاص ، وتجهيز الحصر لتجفيف الجبن القريش ، وصناعة الحصر ، والمناخل والأطباق والمراوح والصنادل ، والمكانس ، والحبال المجدولة من الليف . يقول عبد الفتاح الجمل :

«لا شىء فى النخلة يذهب هدرًا ، النخلة لا تعرف الهباء ، النخلة التى تجعل من خدها للإنسان مداسًا ، ومن قلبها الجمار له

طعاما وشرابا سائغا ومشعا ، يطلق روحه كالحمامات من أبراجها ، ومن جسدها مأوى وملبسا ومعبرا ووقودا ونارًا ودفئا ، ومن أطرافها أدوات ، مفردات توشَى بفيء الزخارف من يومه المزغلل بالضوء الباهر ، ومن سعفها حمى وطقوسا وظلالا وغناء وحجابا واقيا ورجما بالغيب . .»

* * *

كانت جدتى لأمى - رحمها الله - تصحبنى طفلا إلى الساقية التى تدور لتسقى الزرع ، كانت عجلتا الساقية مصنوعتين من خشب النخيل ، وهذا الخشب يمكث فى الماء ويقاومه أكثر من الحديد ، لا يفوقه إلا شجر الدوم ، كانت العجلة تبدو لى كبيرة ، هائلة الحجم ، أما البئر فعميقة ، غويطة ، حتى إذا كرت السنون ، وركضت الأيام فى إثر الأيام . عدت إلى موقع الساقية فلم أجد منها فى الزيارة الأولى إلا بقايا ، توقفت عن رى الأرض بعد أن أحلت إلى المعاش ، عجلة واحدة رأيتها أما الأخرى فلم أدرِ مصيرها ، إما البئر نفسها فبدت لى حفرة ضئيلة ، يكاد الردم أنَ يسويها بالأرض ، أما ما افتقدته فرائحة خشب النخيل المبتل بالماء ، وعبير الأرض الخصبة ، وصرير الساقية ، فى زيارة تالية لم أجد لها أثرا ، فالأرض سويت وحفرت ودقت فيها الخوازيق الأسمنتية ، وأُحتزت النخلات ، قام بناء من عدة طوابق ، كان لأبى نخلات عزيزة عليه . .

* * *

يقول داود الأنطاكى فى «تذكرة داود» : إن لب النخل إذا فرش أو لبس حلل الأورام والترهل والاستسقاء . كما أنه يسكن البواسير .

بعض بدو الصحراء فى مصر يستعملون أطراف الأشواك الورقية (السَّل) بعد استبعاد قواعدها وغلى منقوعها فى علاج السعال الشديد ، ويقال إن مسحوق النوى إذا سحق وجفف يفيد بعض الأمراض الصدرية ، تداوى النخلة أمراض البشر . وهى أيضا تعرف الألم ، يقول عبد الفتاح الجمل : إذا دق أحدهم مسمارا فيها ، تبكى وتذرف دموعا مالحة ، تفرز مادة صمغية ، تجفف ومع الغزروت تسحق وتستخدم كدواء للجروح ، وعندما تكبر النخلة ، وتطعن فى السن ، حينما تهرم وتضمر فيها عروق الحياة وتتخشب عند الشيخوخة والإحالة إلى المعاش ، يقطشون رأسها حتى يتعرى الجمار أصل الحياة والنمو ، ويعلقون فى رقبة النخلة العقيرة مقطفا كالمخلة للحمار ، يخدشون الجمار ويثبتون فيه بوصة تصب فى إناء ، الإناء فى المقطف المعلق ، والجمار ينز فى الإناء عسلا ، وكلما جفت طبقة ، خدشت طبقة أخرى من الجمار ، حتى يعتصروا كل ما فيه .

ترى هل تتألم النخلة عند ذبحها كما يذبح الحيوان ؟ فى التقاليد العربية نجد قمة الكرم عندما يذبح المضيف نخلة إكراما لضيوفه ويطعمهم جمارها ، أى قلب النخلة ، وهو ثمر طرى يشبه اللوز النيئ :

يقول المثل الشعبى «الله يعطيك عمر النخل» ، ويقول أيضا «ساقى النخلة له سبعون حسنة» و«عنده المال والنخل حمال» و «يابالع النخلة بسلّها» و «فى الوش مراية وفى القفا سلاية» و «هزى تمر يا نخلة» ويقولون أيضا «قاطع النخلة عمره قصير» .

* * *

إذ أذهب إلى جهينة زائرًا أضل عن نخلات أبى ، لا أعرف الطريق الآن إليها ، ولا أدرى إن كانت باقية أو زالت ، كان لهذه النخلات عنده منزلة وقيمة ، ومعنى ، ورث عن جدى لأبى أكثر من ثلاثين ، وخاض ظروفا صعبة حتى لا تنتزع منه ، كان يصحبنى فى طفولتى ، يدى فى يده ، نعبر المنحنيات ورائحة التين العسلية وأشجار الجوافة والماء فى القنوات تتدفق كالدم فى الشرايين ، يلج الحقول المزروعة بالذرة أو القمح أو السمسم . يتوقف أمام نخلات بعينها ، يشير إليها قائلا :

«هذه لنا . .»

كان يعرفها واحدة . واحدة ، يسلك طريقه بين مئات النخل المتشابه ، المتجاور ، المتساوى فى الطول ، لكنه يشير إلى نخلة بعينها ، وينبهنى إليها ، أذكر واحدة بعينها ، كانت تنبثق من الأرض بميل ثم تصعد فى الهواء ، كنت صغيرا ولم أكن أرى العلاقة الخفية بين أبى وبين النخلات التى ورثها عبر أجيال متعاقبة ، وكاد يفقد حياته للحفاظ عليها ، وقد فصلت هذا كله فى كتاب تجلياتى يا عم عبد الوارث ، لا أذاقك الله وحشة الفرقة والنأى ، كان خالى يحصد بلح هذا النخيل كل عام فى وقت معلوم ، يبيعه ويرسل ثمنه إلى أبى ويرسل أيضا مقطفا مليئا بأنواع مختلفة من البلح ، أذكر منها الأصغر الطويل المسحوب الذى نضج جزء منه فأصبح بنى اللون والأحمر المتجعد ، والبنى ، كنا ننتظره بلهفة ، وكان أبى يضع حفنات منه فى أكياس ويهديها إلى الأقربين ، ثم انقطع هذا عندما اضطر أبى إلى بيعها ، بيع

النخلات لينفق على تعليمى . . على تعليمى أنا بالتحديد فما أنا أيضا إلا ثمرة من ثمار هذا النخل الذى لا أعرف مصيره الآن ، ولو نجحت فى الوصول إلى نخلة واحدة باقية منه ، لسعيت والله وإن كنت فى أقصى الأرض ، وجثوت عند ترابها . حتى وإن كانت تخص الغير الآن !!

* * *

ذقت بلح العراق بأنواعه العديدة ، وبلح الجزائر المشهور بـ «دجلة نور» ، وبلح تونس ، وبلح أمريكى ، وأقول بتجرد أنه ما أجمل ولا أحلى من البلح المصرى . خاصة السيوى منه ، والأسيوطى ، والسكوتى . يقول كلوت بك أن مصر فيها ٨٤ صنفا ، وتقديرى أنها أكثر . وللأسف فإن هذه الأصناف الجميلة مهدرة . فلا توجد خطة علمية لتصنيع البلح أو تجفيفه كما نجحت العراق فى تعليب بلح البصرة وحشوه بالجوز واللوز ، ما زال البلح المصرى يجفف بطرق عتيقة أو يحفظ كعجوة فى السلال بنفس الطريقة التى كانت متبعة فى العصر الفرعونى . تلك ثروة أهملت ، والآن تهدر بعد أن تسرب الإهمال إلى النخل من أهله ، وليت الدكتور يوسف والى يهتم بهذه الثروة القومية التي يمكن أن تصدر إلى أوروبا وتدر عملات صعبة . بدلا من اهتمامه بالكانتلوب الإسرائيلى ! ولكن يبدو أن إهمال النخل ليس ظاهرة نتفرد بها ، بل موجودة فى أقطار العالم العربى . فى إحدى الإسواق ببلد عربى وجدتهم يبيعون بلحا غليظا . طويلا ، استوردوه من فلوريدا الأمريكية .

هكذا يهمل النخل فى دياره ، وقديما قال الرحالة العربى أنه شجر لا يوجد إلا فى بلاد الإسلام . كرمه الله تعالى بذكره فى القرآن الكريم .

وفى الأسبوع الماضى كان إخواننا المسيحيون يحملون السعف وقد صنعوا منه أشكالا جميلة . إحياء لذكرى عتيقة ، عندما لوحوا بالسعف للسيد المسيح يوم الأحد فى عيد الشعانين ، يوم أحد السعف . إنه نفس السعف الذى ضفر منه الفراعنة الأكاليل ورسموها على جدران مقابرهم .

إسأنه النخيل الذى دفع كل من اقتلعه ربع كيلو فضة مقابل النخلة الواحدة ، طبقًا لشريعة حمورابى .

النخلة رمز الخصب ، والنماء وطول العمر .. هذه النخلة مهددة الآن ، فهل ينقرض النخل من وادينا بسبب الإهمال ووجود الأسمنت ، هل يصبح مجرد ذكرى . هل قرر لنا أن تتحول كل الأشياء الجميلة إلى أطياف بعيدة ..

حقا .. أتمنى - يا شيخنا عبد الوارث الدسوقى - ألا يقع ذلك أبدا .

القناص.. الفنان

فبراير ١٩٩٥

الخميس

.. جرى ذلك فى زمن حرب الاستنزاف المقدسة عصر يوم خريفى من عام ١٩٦٩ . خرجت مع زميلى الشجاع . مكرم جاد الكريم . الذى رافقنى كمصور طوال سنوات عملى كمراسل حربى ، وهو إنسان يفيض وطنية وشجاعة . كان يدفع بنفسه إلى أقصى مواقع الخطر من أجل التقاط صورة . تبرز بطولة مقاتل ، أو تسجل لحظة من مجريات الصراع . الحديث عن مكرم يطول ، ولكننى أعود إلى عصر هذا اليوم .

كان هدفنا منطقة الدفرسوار جنوب الإسماعيلية ، سمعنا عن قناص مصرى شاب تمركز فى هذه المنطقة ، وأثار رعبا فى خطوط المواجهة بالنسبة للعدو ، كان يكمن فى موقعه لمدة طويلة ، يلاحظ أفراد العدو ، ويرصد خطواتهم وتحركاتهم . وعاداتهم اليومية ، ومواعيد تناول طعامهم ، وتبديل دورياتهم ، ونوبات حراستهم ، حتى .. ذهاب كل منهم إلى دورة المياه ، من موقعه غرب القناة يمضى الساعات الطوال فى مربضه ، صبورا ، كامنا بيده بندقيته المزودة بمنظار مقرب دقيق . فى لحظة معينة ، لحظة يحددها هو من واقع خبرته ومتابعته ، لحظة تعقب صبر طويل ودراسة . يضغط الزناد بيد واثقة ، هادئة ، شجاعة .

تنطلق رصاصة واحدة فقط . رصاصة لا يعقبها أخرى ولكنها رصاصة وكفى .

كثيرون حدثونا عنه . عن ست عشرة رصاصة أطلقها فى اتجاه مواقع العدو . لم تفلت واحدة منها الهدف قط ، لكن أغرب ما

قيل لنا أنه فى الأصل فنان تشكيلى مشهور لم يخبرنا أحد باسمه . وعلمتنى خبرتى كمراسل حربى ألا أستفسر كثيرا . غير أننى سعيت للوصول إليه لمقابلته ، كنت أجند قلمى خلال تلك الحقبة لإبراز الوجه الإنسانى ، والبطولى للمقاتل المصرى ، ومازلت دفاعا عن فترة مجيدة فى التاريخ المصرى الحديث ، كانت قواتنا المسلحة تتجاوز خلالها محنة وعرة استعدادا للوثبة الكبرى فى أكتوبر .

خرجنا من مدينة الإسماعيلية إلى الطريق المحازى للقناة ، كنا نستقل عربة جيب عسكرية يرافقنا ضابط شاب من قيادة الجيش الثانى ، كان الطيران الإسرائيلى يعربد فى سماء الجبهة وقتئذ ، ولأننا داخل العربة وصوت محركها مرتفع . فلم يكن ممكنا لنا أن نصغى إلى صوت الطائرات المحلقة .

فجأة . . لحنا جنديا يجرى فى اتجاه شجرة يتيمة ، وحيدة ويختبئ تحتها . أشار إلى السماء بإصبعه ، يعنى ذلك وجود طيران معادى فى المنطقة .

على الفور توقفت العربة ، ونزلنا نعدو إلى جانب الطريق ، كان الطيران المعادي ينزل إلى ارتفاعات منخفضة وقتئذ ويطارد الجنود بالرشاشات ، فما البال بعربة معروف أن من يركبها يكون ضابطا ذا رتبة ، هذا الطريق يبدو هدفا سهلا . انبطحت فوق الرمال . بينما هدير كثيب يدوم فى الأعالى ، الطائرات فوقنا ، تطلعت إلى السيارة . أبوابها مفتوحة ، يبدو على الحديد مظهر الذعر الإنسانى . الاضطراب ، كنا كلنا منبطحين عدا مكرم الذى رقد

موليا وجهه صوب السماء . مشرعا آلة التصوير ذات العدسة الطويلة ، المقربة ، على أمل أن يلتقط صورة للطائرة لحظة سقوطها إذا أصيبت ، وقد ظلت هذه الصورة هدفا له ، حتى حققه بالفعل ولكن عام ١٩٧٣ . ونشرت زمن الحرب فى الصفحة الأولى لأخبار اليوم تردد صوت انفجار رهيب . قنابل زنة ألف رطل . كان الهدف جسرا قريبا فوق ترعة الإسماعيلية ، وعندما سادت السكينة ، عدنا إلى العربة ، ولكن عند أول نقطة شرطة عسكرية ، أخبرنا قائدها أن الطائرات ألقت شراكا خداعية ، وقنابل موقوتة فوق الطريق وأن هناك خطرا فى استمرارنا باتجاه الدفرسوار ولا يمكن المرور إلا بعد أعمال التطهير .

إذن .. يعنى هذا عودتنا إلى الإسماعيلية مرة أخرى ، فشلنا فى الوصول إلى القناص الفنان ، وقد كنا ننوى قضاء الليل كله فى الموقع المتقدم ، والحديث إليه ، والإصغاء إلى تجربته الفريدة .

لم يقدر لنا اللقاء به بعد ذلك . وإن سمعت عنه مرات وقرأت عن فيلم تسجيلى أعد عنه ، ثم توارت التفاصيل خلال كر الأيام وما حملته من أحداث جسام ، وأمور قدر لنا أن نعيشها ، ونكتوى بنارها ، أو ثقلها ، أو نعانى وطأتها .

منذ ثلاثة أسابيع فقط التقيت بالقناص ، ولكن فى منزل سفير المكسيك الدكتورة جرازيك التى دعتنا للقاء فنانة باليه مشهورة كانت تزور مصر . فى المعادى ، وفى منزل السفيرة ، وجدت نفسى أمام رجل يماثلنى عمرا تقريبا . عندما صافحته ، ابتسم قائلا :

- كان المفروض أن نلتقى منذ واحد وعشرين عاما ، تطلعت إليه صامتا ، لم أكن قد قابلته من قبل ، وحتى لا تطيل حيرتى قال الرجل :

- أنا قناص الدفرسوار . .

تطلعت إليه دهشا ، خافق القلب . فقد انبعثت مرحلة كاملة أعتز بها من عمرى ، مرحلة تبدو الآن بعيدة ، نائية لشسوع ما يفصلنا عنها ، ليس لعدد السنوات ، إنما لما حوته . ثم سرعان ما تزايدت دهشتى عندما قدمته السفيرة إلىّ التى كانت تتبع حوارنا بالعربية ، قالت :

- أقدم إليك الدكتور أحمد نوار رئيس المركز القومى للفنون التشكيلية . .

نعم . .

لم يكن هذا القناص إلا الدكتور أحمد نوار . الذى يتولى حاليا مسئولية المركز القومى ، والفنان الكبير المشهور عالمياً بلوحاته فى فن الجرافيك ، والمعروف دوليا ، والذي قاد مع وزير الثقافة حملة وضاءة ناجحة للآراء التى دعت إلى بيع مقتنيات مصر الفنية ، وانتهت بالمؤتمر الهام الذى انتهى يوم الجمعة الماضى وأجمع فيه المثقفون على الوقوف ضد تفشى منطقه البيع ليشمل كنوز مصر الفنية . . نعم . القناص هو أحمد نوار الفنان .

كانت أول مرة نلتقى فيها . لكننا تحدثنا وكأننا نستأنف حوارًا توقف منذ ساعات ، ألم تشملنا تلك الأيام ، ألم نعشها من موقعين مختلفين ، ولكَم أتمنى الآن أن يكتب أحمد نوار تجربته

صوتاً للأجيال الحالية والمقبلة ، تلك الأجيال التى أصبحت عرضة لبلبال الآراء الفاسدة والمغرضة ، وتحية إلى الصديق القديم الجديد أحمد نوار . الذى كان فى أقصى المواقع تقدما عندما كان محاربا يدافع عن تراب مصر ، أو فى منصبه الحالى وهو يدافع عن تراثنا ومقتنياتنا .

رحيل رمضان:

ساعات ويرحل الشهر الكريم ، رمضان من علامات الزمن البارزة ، كنا نتلهف حلوله ونحن صغار ، لما يعد به من مسرات . وتبدل فى النظام المعتاد ، مثل امتداد السهر واجتماع الأسرة واكتمالها عند الإفطار ، وترقب العيد وما يعد به من مباهج .

كان بدء الأيام العشرة الأخيرة يثير فى النفس الغضة وقتئذ وحشة ، كنت طفلا أصغى إلى الوالد الكريم وهو يقول أن الشيخ رمضان يلملم حاجاته خلال تلك الأيام الأخيرة استعدادا للرحيل ، وأتخيله شيخا مهيبا ذا لحية بيضاء كثة ، طيب الملامح . آمن الحضور ، يحمل خُرجا كبيرا ويقف استعدادا للرحيل ، الرحيل الغامض ، عبر محطات الزمن ، يختفى ولا يرجع إلا بعد عام كامل . كنت امتلئ حزنا ووحشة إذ يتردد فى سمعى ذلك النداء الذى يتردد فى الموشحات :

«لا أوحش الله منك يا شهر الصيام أبدا . .»

وبقدر ما كنت أشعر من بهجة صباح أول أيام العيد ، بقدر ما كنت أشعر بوحشة عندما يحل غروب أول أيام عيد الفطر ، فأفتقد العادات الرمضانية ، ترقب الأذان ، والمدفع ، والجلوس إلى مائدة

الإفطار . ثم تطوينا الأيام وتتضاءل العلامات الرمضانية حتى تتجدد مرة أخرى .

مع التقدم فى العمر ، تبدلت العادات ، ولم تعد مباهج الزمن القديم تثير ما كانت تبدلت فينا بنفس القدر . غير أن الشعور بافتقاد الشهر الكريم يظل قويا ومرهقا ، ربما لأنه علامة قوية على انقضاء الوقت !

الكلاب الضالة :

.. ميدان التحرير ، الواحدة ليلاً . أقف فى انتظار عربة أجرة بالنفر . فجأة لمحت سربا من الكلاب . حوالى عشرة أو أكثر . كانت تمرح فى حرية . الذكور منها تشم الإناث ، بدأت آخذ حذرى ، فما يترتب على عضة كلب مسعور أمر مزعج قد يؤدى إلى الوفاة ، وما زالت ذكرى زميلتنا الصحفية التى عقرها كلب فى المطار ودفعت حياتها ثمنا ماثلة فى الأذهان . تذكرت أسراب الكلاب التى تحيط البيت فى حلوان ، وواحد منها راح يعوى كالذئب منذ أيام طوال اليوم . كلما استعدت جزءا من المدينة . يمثل فيه كلب ضال . باختصار الكلاب الضالة تنتشر فى القاهرة بكل ما تحمله من أخطار ، وما من إجراء مضاد ، يبدو أن فرق صيد الكلاب لا تمارس عملها على الإطلاق . إذ لم نعد نراها منذ سنوات . وبالتالى راحت الكلاب تمرح فى شوارع المدينة وتتكاثر بسرعة رهيبة وهذا خطر كبير .

أتمنى من المحافظ الطيب الدكتور محمود شريف . أن يضع له علاجا حاسما ..

طفل .. ضال

مارس ١٩٩٥

كنا ثلاثة . .

الروائى العربى عبد الرحمن منيف ، والدكتور نشأت الحمارنة ، وهو طبيب وسياسى سورى قديم ، هجر الطب والسياسة . وتفرغ لكتابة وتدوين تاريخ الكحالة العرب كما عرفوا فى الزمن القديم ، أو أطباء العيون كما يعرفون الآن . من أجل ذلك يقيم الدكتور نشأت فى برلين - التى كانت شرقية - منذ عدة سنوات .

دعانا الرجل إلى إحدى ضواحى برلين ، للأسف لم أدون اسم المكان فى مفكرتى ، ربما شغلنى جماله وتفرده ، فثمة بحيرة مترامية الأطراف تحيط بها منطقة خصبة الخضرة ، كثيفة الأشجار ، تتخللها فنادق أنيقة لا يتجاوز ارتفاعها أربعة طوابق ، كانت مخصصة كاستراحات للعاملين فى المؤسسات والمصانع لقضاء أوقات الأجازات ، أما الآن فقد تم بيعها إلى إحدى المؤسسات الفندقية الغربية ، ارتفعت أجور الإقامة بها ، وبدأ يفد إليها الأثرياء من الغرب ، وظهرت فى صالات الاستقبال الصحف الغربية كلها بما فيها المجلات الجنسية العارية التى كانت ممنوعة فى زمن الاشتراكية المندثر .

كنت أتطلع إلى مثل هذه المنشآت ، وأردد لأزمة ساخرة كان يبتسم لها عبد الرحمن منيف :

«طيب وما لها الاشتراكية . . ما عملت حاجات كويسة برضة أهه ! ! » .

كان المؤرخون العرب القدامى عندما يموت شخص ما ، يعددون محاسنه ومساوئه ، خاصة إذا كان حاكماً أو سلطانا ، ولو اتبعنا

نفس الطريقة مع النظام الاشتراكى ، فسوف نجد المحاسن والمساوئ ، والحديث فى هذا يطول ، ولكننى أكتفى بالقول معلقا على ما جرى من تحولات أن القول العربى القديم «راحت السكرة وجاءت الفكرة »ينطبق الآن على الناس فى ألمانيا الشرقية ، المهم . . أننا كنا نتبادل الحوار حينا ، أو نصمت فى معظم الوقت بتأثير الخضرة الكثيفة ، والهدوء الطاغى ، والجمال المنتشر ، كان الوقت قد تجاوز العصر ، وحضور الناس قليل جدا ، وفى إحدى الممرات التى تتخلل الغابة ، ظهر طفل صغير ، ربما فى العاشرة ، أو التاسعة ، اعترض طريقنا ، كان يمسك بين أصابع يديه بضعة ماركات معدنية ، وعندما مشى بمحاذاتنا متطلعا إلينا ، سألت الدكتور نشأت عما يقول فأجابنى أنه يريد منا أن نعطيه قليلا من المال لأنه جائع ، ويريد طعاما .

هذا غير مألوف فى المأنيا الشرقية ، هل من المعقول ظهور أعراض الرأسمالية بسرعة هكذا ، حتى فى الغرب لا أذكر أننى رأيت شحاذين يمدون الأيدى ، خاصة الأطفال الصغار .

أبدى الدكتور نشأت اهتماما ، وبدأ يتكلم مع الطفل الذى بدا ذكيا ، ولكنه يعانى حالة من الإهمال الشديدة ، فشعره الأشقر الغزير مترب ، متسخ ، وقميصه ممزق عند الكتف ، وحذاؤه كالح الجلد ، قال عبد الرحمن منيف أن حالته غير طبيعية ، وعندما انثنى الدكتور نشأت إلينا ، سمعنا منه ما أثار شفقتنا وأحزاننا . .

* * *

قال الدكتور نشأت أن الطفل يمر بحالة نفسية صعبة ، أفقدته

مناطق من الذاكرة ، فهو لا يعى إلا أنه من إحدى القرى الصغيرة الواقعة على الضفة الأخرى من البحيرة ، لكنه لا يذكر اسمها ، وإنه اضطر إلى مفارقتها أمس ، جاء إلى هنا بالعبارة ، لماذا فارقها وهرب منها .

بصعوبة ، وفى جمل مشتته ، قال أنه كان يعيش مع أمه فى شقة صغيرة ، فى بيت من طابقين ، لا يذكر والده ، ولم يره فى حياته ، كانت أمه عاملة فى إحدى المؤسسات الصغيرة ، لا يذكر اسمها أيضا ، ولكنها لا تفيق من الخمر وتشرب دائما ، معظم الوقت لا تفيق . فى الطابق العلوى يسكن رجل مع أسرته ، يضايقونها دائما ، وأول أمس عادت الأم مخمورة ، نامت ، وفى الليل استيقظ الطفل على صمتها ، وليس على ضجيجها ، أو شخيرها المعتاد .

لسبب ما شعر بالقلق ، وعندما نظر إلى مرقد أمه شعر أنه يواجه شيئا ما لم يسبق له أن عرفه ، أو اطلع عليه ، ناداها فلم تجبه ، لمسها فلم تبد رد فعل ، دفعها لم تتحرك ، أصيب بحالة من الرعب ، صرخ ، صرخ ، جاء الجار غاضبا ، لماذا يثير الضجيج فى الليل ؟ ، دخل الرجل مع امراته الشقة الصغيرة ، وبدلا من إسعاف الأم ، أو محاولة طلب إغاثة ، انطلقا فى المكان الضيق يقلبان الأشياء ، يبحثان عن أى شىء مخبأ ، مخفى ، وعندما التقت عيناه بعينى الطفل المرتاع ، حدق فيه بقسوة جعلت الصبى الصغير يرتجف رعبا وفزعا ، تراجع خطوتين ، وبما تبقى فيه من طاقة يجرى محاولا الاختفاء عن العيون ، مفارقا المكان كله .

* * *

إن حالته النفسية سيئة جدا .

عبثا حاولنا عن طريق الدكتور نشأت - الوحيد منا الذى يجيد الألمانية كأهلها - أن نعرف أى تفاصيل أخرى ، كانت نظراته شاردة ، يتحدق وهو يتطلع حوله خائفا ، ثم يضحك فجأة ، اتفقنا على أن الطفل يعانى صدمة عصبية شديدة ، خاصة عندما يذكر الجار الشرير الذى سرق كل ما تحتويه الحجرة قبل تفكيره فى إنقاذها ، أو تغطية وجهها !

أى شر تحويه الدنيا ؟

أى طفولة معذبة ؟

أى مأساة حية ألقت بها المقادير فى طريقنا ، نحن الذين ما جئنا إلى هذا المكان إلا لتمضية ساعة أو ساعتين قبل عودتنا إلى مقر إقامتنا فى برلين .

الواجب الإنسانى يدعونا إلى إنقاذ الطفل ، لا ندرى ماذا سيحدث له ، خاصة أن الليل يقترب وهو جائع ، وحيد كما يبدو أنه ائتنس بنا ، إذ راح يتطلع إلينا بود ، وأحيانا يبتسم .

كخطوة أولى ، لابد أن يتناول طعاما ما ليسد جوعه . اتجهنا إلى داخل الفندق القريب ، المطعم أغلق ، قص الدكتور نشأت على موظفة الاستقبال الشابة ما جرى للصبى ، أبدت تأثرا ، دخلت إلى الغرفة الملحقة بالمكتب ، رجعت بزجاجة مياه غازية ، وبسكويت ، ربتت عليه ، قال الصبى أنها المرة الأولى فى حياته التى يدخل فيها إلى فندق .

اصطحبته الموظفة إلى إحدى غرف الطابق الأول الخالية ، بعد ذهابهما تساءلنا عن الخطوة التالية ، قال الدكتور نشأت أنه ملتزم بإنقاذ الطفل ،لن يتركه ، وإذا تعزز الوصول إلى قريته من خلال حديثه ، فسوف يصحبه معه إلى أسرته حيث يقيم ويحيطه بالرعاية حتى يتجاوز صدمته .

قلنا أن هذه أفكار جيدة ، ولكن ألا توجد جهة رسمية يمكن أن نضع أمامها حالة الطفل .

قال نشأت : طبعا يوجد البوليس .

تبادلنا الرأى ، واتفقنا على ضرورة إبلاغ الشرطة ، قالت موظفة الاستقبال أن الطفل يمكن أن يبقى بصحبتها فى أمان ، ولكن من الأفضل الاتصال بالبوليس ، فمراكز الشرطة لديها بيانات بالمتوفين ، وبأسماء المواطنين ويمكنهم بسهولة التوصل إلى معرفة اسم أسرته . وأقاربه إذا كان له أقارب .

قام الدكتور نشأت إلى الهاتف . أجرى اتصالا ، ثم اتصالا آخر .

كان الطفل يتابع ما يجرى وكأن الأمر يخص غيره ، وبدا آمنا سعيدا بوجوده فى الفندق ، قال إن الغرف نظيفة جدًا ، وأن المكان جميل ، ثم قال أنه لم يرقد فوق سرير مثل الذى رآه .

ودمعت عينا موظفة الاستقبال ، وانتابتنا جميعا حالة من الأسى .

وعندما قال الصبى أنه يريد الذهاب إلى دورة المياه ، أشارت الموظفة إلى الباب المرسوم فوقه رجل . بعد لحظات عاد الصبى ، قال بمرح أنه وضع ماركا فى الطبق الصغير الموضوع فوق المنضدة

الصغيرة المجاورة للباب ، أدرك أن هذا هو المتبع فامتثل .

تحدثت إلى الصديقين عن استعداد الولد الخلقى ، والذكاء البادى من عينيه ، تساءلت حائرًا ، كيف يجهل اسم والده ، كيف لم يلمح إليه ؟

قال الدكتور نشأت : إن النظام الاجتماعى فى أوروبا الآن مختلف فعندما تنجب امرأة طفلا ، لا يسألها أحد ، من أين هذا ، ليس ضروريا أن تكون متزوجة أو لا ، وفى الدول الغربية حيث يتناقص عدد السكان ، ما يهمهم هو أن يأتى الطفل ، وليس مهما الطريقة التى جاء بها ، وفى كثير من الأحيان تكون الأم جاهلة بوالد الطفل لتعدد علاقاتها الجنسية حتى إذا كانت تعرفه فإنها تعطى ابنها الاسم الذى تحدده هى ، وفى الغالب لا يكون اسم الأب . هذا وضع شائع جدا الآن فى أوروبا بشرقها وغربها ، وخلال زيارتى الأخيرة لباريس ، رأيت فى محطة التليفزيون الإمريكية إن . إن . سى . والتى تبث أخبارًا لمدة أربع وعشرين ساعة ، رأيت برنامجا عن أب أمريكى فى الثالثة والأربعين متزوج من ابنته - تسعة عشر عاما - وخلال البرنامج كان المذيع يسأل عن أدق التفاصيل ، وشكل العلاقة ، والمشاهدون يتصلون على الهواء مباشرة ، ليسألوا الأب والابنة التى كانت الأم قد منحتها اسما آخر بعد انفصالها عن والدها ، كان واضحا من ملامحهما أنهما يمثلان حالة مرضية ، ولكنها فى تقديرى ليست حالة فردية ، ولكنها حضارة بأكملها تتحلل خلقيا واجتماعيا .

أخيرا . . وصل البوليس . .

* * *

سبحان مغير الأحوال !

كان مجرد ظهور رجال البوليس الألماني الشرقي بزيهم الرمادي ، والنجمة الحمراء التي تتوسط غطاء الرأس يثير الرهبة والحذر ، نزل من السيارة ثلاثة ، تقدم أعلاهم رتبة ، كانت تفوح منهم رائحة عرق ، وكان يبدو عليهم الضجر ، واللامبالاة ، ولاحظت أن ملابسهم غير معتنى بها .

راح الضابط يصغي إلى الدكتور نشأت ، كتب بعض المعلومات في مفكرته ، قدم نشأت بطاقته ، وأكد على ضرورة الاتصال به عند التوصل إلى أي نتائج محددة . لم يفت نشأت أيضا أن يكتب اسم الضابط ورقم هاتفه . . صافحنا الصبي ، رحت أتأمل هذا الكيان الإنساني الصغير الذي جاء إلى العالم ربما كنتاج لحظة ضجر ، أو ملل ، أو علاقة عابرة ، وفي مكان ما الآن يسعى والده المجهول ، كنت أفكر في وحدته ، ورعبه كلما تذكر الجار الشرير ، عندما استقر في المقعد الخلفي للسيارة كان مبتسما ، راضيا ، لوحنا له ، ولوح لنا حتى دارت السيارة عند المنحنى .

* * *

العاشرة ليلا من منزل الدكتور نشأت . نتأهب للانصراف عبدالرحمن منيف وأنا إلى مقر إقامتنا .

رن الهاتف .

اتجه نشأت إليه ، راح يصغى ، وتعبيرات عديدة تتوالى عليه ، لسبب ما خمنت أن المكالمة لها علاقة بالصبى ، بعد أن وضع السماعة ، وبعد لحظات صمت .

- فعلا ، الشرطة كانت تتكلم ، لقد عرفوا اسم الصبى ، وتوصلوا إلى والديه ، الأب والأم . . نعم ، فالصبى اعتاد الهرب منهما ، وتلك هى المرة الثالثة التى تعيده الشرطة والموت المفاجىء للأم المخمورة ، والجار الشرير ، والصدمة ، والقرية النائية . . . قال عبد الرحمن منيف . .

- تصوروا !

ولم أعلق !

فى تونس .. قابلت ياسر عرفات

مايو ١٩٩٥

.. فى الليلة الأولى السابقة على السفر ، أو التالية على الوصول يعسر نومى ، ويصعب هجوعى ، مع أننى فى ترحال دائم منذ اكتمال وفادتى إلى هذا العالم . هكذا .. نال منى أرق بغيض . وكل ما رجوته أن يغمض وسنى ولو ساعة لا غير ، فأمامى سفر شاق صباح الغد بعد وصولى من القاهرة إلى مدينة تونس . القطار سيتحرك فى السادسة والنصف إلى مدينة صفاقس ، ومنها بالسيارة إلى مدينة قابس ، حيث تعقد ندوة أدبية دُعيت إليها مع صديقى الروائى يوسف القعيد . المسافة طويلة ، حوالى ستمائة كيلو متر .

لم أدر لحظة انتقالى بين اليقظة القلقة . والنوم المستعصى ، هكذا تذوب الفواصل ، بين المحسوس واللا محسوس ، تتميع الموجودات ، ثم يبدأ السفر ، ما بين الحياة وشبه الموت ..

يرن جرس الهاتف رنينًا متصلا .

أتطلع إلى الجهاز الراقد على مقربة منى ، ما زال الليل مخيما ، كنت أحاول استرجاع شتات وعيى ، جاءنى صوت يوسف متحفزا .

– سنلتقى أبى عمار بعد عشر دقائق .. اتصل بى مكتبه الآن ..

فى نفس التوقيت الذى قابلناه فيه منذ خمس سنوات هنا ، تلك عادته . بعد أن يفرغ من اجتماعاته ومهامه يبدأ فى مقابلة أصدقائه من الكتاب ، أو الصحفيين الساعين إليه فجرا .

فارقت الفراش . فى أقل من دقيقتين كنت مرتديا حلتى ، بعد أن أزحت عن عينى آثار النعاس بقليل من الماء ، أمام الفندق كانت

تقف سيارة بيجو بيضاء داخلها السائق وشخص آخر ، وبدأ عبورنا الشوارع الخالية . والليل المسدل للقاء زعيم الثورة الفلسطينية .

* * *

أكثر من مرة . أوقفنا رجال الأمن التونسى ، كانوا يتطلعون إلى بطاقة يبرزها السائق ، يسمحون على الفور بالمرور ، وكلما تقاربت نقاط التفتيش أدرك أننا نقترب . إجراءات الأمن أكثر كثافة مما كانت عليه ١٩٨٥ ، ويبدو أن هناك استنفارًا ما ، تذكرت ما قرأناه فى جريدة (الصباح) التونسية عند وصولنا عصر أمس عن اختراق طائرات إسرائيلية للمجال الجوى التونسى ، أو اقترابها منه ، ومعلومات تتحدث عن عملية صهيونية ، إرهابية متوقعة ضد قيادات منظمة التحرير ، وضد أبى عمار شخصيا ، تهبط بنا الطرقات وترتفع ، لم نكن ندرى الجهة التى نتجه إليها . عند نقطة معينة هدأت العربة من سرعتها ، وتغيرت ملامح الحراس ، لا يرتدون الزى الرسمى التونسى ، الرمادى ، ثياب مدنية ، يشرعون رشاشات مختلفة الأنواع والأحجام ، وعلى باب البيت الذى اتجهنا إليه كان يقف اثنان يمسكان رشاشا صغير الحجم ، لكن مظهره يوحى بالفتك ، تذكرت أننى رأيت مثله إلى جوار الشهيد الفريق أول عدنان خير الله وزير الدفاع العراقى رحمه الله ، كل من قابلنا فى عمر الشباب ، يبدو عليهم التحفز . بعضهم يقف موليا ظهره لنا ، صعدنا سلمًا قصيرًا إلى الطابق الأول ، عبرنا صالة غير فسيحة ، كان ثمة باب مفتوحًا تصورت أننا سنجلس بعده قليلا قبل لقائنا أبى عمار ، لم نكن نعرف المكان ،

أو طبيعة البيت ، منذ خمس سنوات قابلناه فى بيت حكم بالعاوى سفير دولة فلسطين فى تونس الآن ، أبو عمار بغير مكان إقامته ، لا ينام فى مكان واحد ليلتين متعاقبتين ، دائم الترحال والحركة ، حقا . . هذا هو الرحيل والوعر الحقيقى ، فالرجل مستهدف من الصهيونية ، وقوى عديدة ، بما يمثله من رمز لشعب يمر بمرحلة وعرة وشتات عجيب ، صعب ، بحيث أصبح وجوده عبئا على الأقربين أكثر من الغرباء ، يطلق المحيطون والعاملون معه لقب (الوالد) أو (الاختيار) عليه ، ويخاطبه الجميع بالأخ ، عبرنا الباب المفتوح ، إلى جواره مكتب متوسط الحجم ، فوقه مصباح مضاء ، وأوراق عديدة متناثرة ، وكتب ، وجدنا أنفسنا فى مواجهة أبى عمار ، تبادلنا العناق ، فمنذ اللحظات الأولى تذوب أى مسافة فاصلة . للرجل ذاكرة مدهشة ولا يذكرنى ولا يخاطبنى إلا بـ «جمال التجليات» ، مشيرا إلى روايتى الطويلة (كتاب التجليات) . بعد الترحيب جلسنا فى مواجهته ، كنت أتأمله ، وألتقط تفاصيل اللحظة . .

* * *

قابلت أبا عمار مرارًا ، غير أننى لم أره حزينا ، متألما ، كهذه الليلة ، والسبب المباشر هو الأزمة التى تفجرت فجأة ، وكانت أهم ملامحها ما نشر فى الصحف المصرية ، وما تعرض له من هجوم شخصى ، عنيف ، جارح فى بعض الكتابات ، كنا فجر السبت ، كانت آخر صحفنا التى اطلعنا عليها تلك الصادرة صباح الجمعة ، وكان على مكتبه صور لمقالات صادرة فى صحف السبت أرسلت إليه بالفاكس ، كنا نلتقى به فى لحظات دقيقة وحرجة ، تلقى

بظلالها على هذا اللقاء ذى الطابع الشخصى . بالنسبة لى هو رمز لقضية قومية ، أرى أنها تمس الحضور والتاريخ المصرى فى الصميم ، ومحاولة استبدال إسرائيل بفلسطين من جانب البعض أرى فيها سباحة ضد المنطق والتاريخ والانتماء الوطنى والقومى والدينى ، فمصر عربية ولن تكون عبرية ، هذا من الناحية السياسية ، ومن الناحية الإنسانية فلا يمكن لكاتب حقيقى صحفى كان ، أو أديبا ، إلا وينبغى أن يكون ضميره مرتجفا أمام ما يجرى للأطفال الفلسطينيين على أيدى قوات الاحتلال الإسرائيلى ، وتضافر القوى العظمى بما فيها الاتحاد السوفيتى نفسه الذى كان قوة إلى جانب العرب يوما لإبادة شعب ، يعيش الآن مأساة الشتات ، تمهيدا لإبادتنا نحن كجنس وكدين . وهذا موضوع يطول الحديث فيه .

مشاعرى الشخصية تجاه أبى عمار حميمية ، أعتبره رمز القضية ، وإن بدا لى خلاف ذلك يوما مع اتجاه أو خطوة سياسية ، فهو خلاف من يقف فى نفس الخندق . هذا على المستوى الشخصى ، والتزامى أمام ضميرى الإنسانى والأدبى .

كان أبو عمار متألما جدًا ، قال إن الصحافة حرفت ما قاله ، وأن حديثه حول الزعيم الراحل مصطفى النحاس ، والسياسة المصرية نقل منحرفًا ، وأفاض فى الحديث عن محاولات إسرائيل المتعلقة بالمياه العربية ، وهذه نقطة تتعلق بصميم الأمن القومى العربى .

كان أبو عمار متألما ، لما قيل عنه من هجوم على مصر ، انفعل وهو يتحدث عن علاقته بمصر ، عن شرف انضمامه إلى الجيش المصرى حقبة من عمره كضابط احتياط ، ودخوله بورسعيد أثناء

العدوان الثلاثى ، عن عواطفه تجاه مصر والمصريين ، كان متألما للعبارات التى سخرت من جملته الشهيرة إنه (مصرى الهوى) . كان يتوقف بين لحظة وأخرى مردداً . «الله يسامحهم» ، فيما بعد قال لنا أديب فلسطينى صديق أن داخل منظمة التحرير توجد تيارات عديدة . منها من هو معادٍ للسياسة المصرية ، وأن أبا عمار كان يكبح جماح هذه التيارات التى ستجد الفرصة فى هذا الخلاف ، والتجريح الشخصى الموجه إلى قائد الثورة الفلسطينية لتثبيت أو تدعيم وجهة نظرها ، وعلى الرغم من عنف اللهجة التى صدرت عن بعض أقلام الزملاء فى القاهرة إلا أن توجيها لم يصدر إلى أجهزة الإعلام أو المجلات والصحف الفلسطينية للرد أو استخدام الأسلوب نفسه . ثمة رغبة حقيقية فى رأب هذا الصدع العارض .

هذا ما قاله لى الأديب الفلسطينى ، أما ما سمعته من أبى عمار خلال اللقاء القصير فلم يكن يعبر إلا عن ألم عميق وكنت أتطلع إليه صامتًا ، فكأن الرجل كان فى حاجة إلى أن يفضفض عن نفسه . فوجد فى لقائنا فرصة لكى يعرب عن ألمه ، منبهًا كل فقرة من حديثه بقوله «سامحهم الله . .»

فى الفجر عانقنا الرجل الذى لمحت لأول مرة أثار تقدم العمر عليه . . كان يتأهب للسفر ، إلى أين ، لم أسأل ، وكنا نتأهب أيضا للسفر إلى قابس ، ولم يكن هناك مجال لإغفاءة ولو قصيرة جداً ، كان الطريق أمامنا طويلا ، وخلاله كانت ملامح الأسى على وجه أبى عمار تطالعنى أينما نظرت ، وكنت مكتئبا !

* * *

لكى نتخيل مأساة الآخرين ، لنضع أنفسنا مكانهم ، ولو

بالخيال المحض ، هكذا .. عندما أقرأ عن وقوع زلزال فى أقصى العالم أتخيل لحظات الانهيار والألم ، وعندما أقرأ عن نسف القوات الإسرائيلية لمنزل فلسطينى أجهل صحبه أتساءل ، أين سيمضون ، وأى مأوى سيشملهم ؟

فى مدينة تونس ، خلال زيارتنا الأولى منذ خمس سنوات زرنا صديقًا ، روائيًا فلسطينيًا ، عاش فى الأردن ، ثم بيروت ، ثم الجزائر ، ثم .. تونس ، كان منزله أنيقا ، هادئا . فى منطقة جميلة من المدينة ، لكن ثمة أحساسًا خفيًا فى المكان يبث القلق ، هذا الشعور الذى تجده فى الشقق المفروشة ، أماكن الإقامة المؤقتة . كنت أصغى إليه وهو يتحدث عن مكتبته التى تركها فى بيروت . وتلك التى يحاول تكوينها فى تونس ، وكنت أفكر فى ارتباطى بالمكان ، بكتبى ، إن اختلال وضع كتب فوق رف ما ، يحدث اضطرابا عندى .

كان أطفال صديقنا يدخلون علينا يصغون بعض الوقت يتحركون هنا وهناك ، وكنت أفكر .. فى أى أرض سيكونون بعد عدة سنوات ؟

نعم ، البيت جميل ، والضوء نقى ، والمدينة الهادئة تصلنا أصداؤها من هنا ، ولكن من الممكن أن يتبدد هذا كله فى لحظات إلى مغادرة المكان ، أن يجد صاحبنا هذا نفسه فى لحظات مضطرًا إلى مغادرة المكان . إلى مكان آخر وربما يستعصى عليه بلوغ جهة آمنة ، ولو لفترة محدودة ، وهذا عين الشتات ، ولب افتقاد الوطن . وجوهر المأساة الفلسطينية ، هذا الجوهر الإنسانى ، الذى يجب ألا يغيب حتى فى خضم الخلافات ، والعواصف الطارئة .







مايو ١٩٩٥

الكمساري:

.. السادسة صباحًا ، يفارق القطار رصيف محطة تونس ، يطلقون على عربات الدرجة الأولى المكيفة ، عربات الرفاهة . من ناحية المستوى توازى الدرجة الثانية الممتازة فى قطاراتنا . كنت مرهقا ، لم أغمض جفنى إلا قليلا طوال الليل ، على هدهدة العجلات غفوت ، استيقظت عندما نبهنى صديقى وزميل الرحلة الروائى يوسف القعيد إلى وصول الكمسارى .

رجل تجاوز الأربعين ، يرتدى قميصًا رماديًا ، وبنطلونا أزرق ، من كتفه الأيمن تتدلى حقيبته الجلدية ، يمسك مقراضًا حديديًا يقضم به التذاكر ، ملامحه جادة ، خاصة تحت القبعة عسكرية الطراز .

بعد قيام القطار من مدينة سوسة . ما بين اليقظة والنوم . سمعت حوارًا بين يوسف وأحد الأشخاص ، انتبهت ، كان الكمسارى يجلس فى المقعد الذى خلا بمحاذاتنا ، لا أدرى كيف بدأ الحوار بينهما ، لكننى رأيته ممسكا بدفتر صغير وقلم ، يدون فيه ما يسمعه من إجابات .. كان يسأل :

– وعمر أم كلثوم ؟

يجيبه القعيد ..

– لو أنها عاشت إلى الآن لتجاوزت الثمانين ..

يقول الكمسارى ..

– إن معلوماتى أدق منك ، أثق أنها ولدت عام ١٩٠٤ .

يلتفت إلىّ القعيد متسائلا :

- هل تعرف تاريخ ميلاد محمد عبد الوهاب ؟

يتأهب الكمسارى للتدوين ، غير أننى لا أجد إجابة حقيقية ، قاطعه . قلت إن عمر محمد عبد الوهاب يبدو كلغز ، ولكننى سمعت من يقول أنه غنى فى حفل عام ١٩١٠ .

- أى أنه تجاوز التسعين ؟

أهز رأسى نافياً ، الحق أننى لا أدرى ، يتساءل الكمسارى .

- من حكم بعد الملك عبد العزيز آل سعود ؟

- الملك سعود . .

- هل كان أكبر أبنائه . .

أقول أن أكبر أبنائه - فى حدود معلوماتى - كان اسمه الأمير ترك ، وأنه قتل فى إحدى المعارك ، أو توفى متأثرًا بمرض ما ، لست واثقا .

- لابد أنكم تعرفون من حكم بعد محمد على باشا ؟

نجيبه بسرعة . .

- سعد باشا . .

- هل تعرفون أولاده ؟

- أولاد من ؟

نجيبه كلانا .

- إبراهيم باشا القائد العسكرى العظيم ، ولد سنة ١٧٨٩ ، وتوفى قبل وفاة والده . . كان يدون ما نقوله بعناية ، ثم ينظر إلينا لنكمل . .

- وسعيد باشا الذى كان قومندانا للأسطول فى حياة والده ، وحسين بك ، وحليم بك ، وعلى بك ، واسكندر بك .. ، و .. محمد على بك . يسألنا الكمسارى بعد أن كتب ما قلناه .

- هذا عن البنين .. ماذا عن البنات ؟

لم أدر عندئذ ، هل يستوثق معلوماته ، أم أنه يختبرنا ؟ قلنا له .

- كانت له ابنة واحدة ، ولدت مع مطلع القرن التاسع عشر ، وابنة أخرى أصغر ولدت عام ١٨٢٤ ..

- ما اسمهما ؟

- لا نعرف .

بعد لحظات صمت ، سأل ..

- كم مرة تزوجت السيدة ليلى مراد ؟

نظرنا إلى بعضنا .

- ثلاث مرات .. هذا ما نعرفه .

- من ؟

- الممثل أنور وجدى .

- ومن ؟

- ثم وجيه أباظة ، ثم فطين عبد الوهاب ..

- وماذا عن المطربة لور دكاش .. هل هى مصرية أم لبنانية ؟

- نظن أنها لبنانية .. تطلع إلينا بعد أن كتب ما قلناه .. تساءل ..

- كم فيصل حكم العراق ؟

- فيصل الأول . وفيصل الثانى . .

- ومن قاد الثورة فى أوائل الأربعينيات ؟

- رشيد عالى الكيلانى . .

هز رأسه بتأنٍ ، تطلع إلينا متسائلا على مهل . .

- كم أغنية لحنها محمد القصبجى ؟

مباشرة قلنا أننا لا نعرف بالضبط . أبدى أسفا إذ مط شفتيه ، كان القطار يهدئ من سرعته ، كنا نقترب من مدينة صفاقس ، وعندما عبرنا القسم الثانى من العربة متجهين إلى باب الخروج ، لمحنا الكمسارى بجوار أحد الركاب ، ممسكا بمفكرته الصغيرة ، والقلم الجاف ، يدون بعناية ما يسمع ، ولم نكن ندرى أى معلومات يستفسر ، وأى وقائع يسأل عنها ، تبادلنا التحية معه ، وعندما فارقنا مبنى المحطة ، كان القطار يبتعد به جنوبا ، لم أدر وأنا أستعيد ملامحه ، هل يمضى الرجل وقتا ، أم أنه مشروع مؤرخ؟

مبروكة..

سيدة عجوز ، أمومية المظهر ، قوية التكوين ، ثمة شىء ما فى هيئتها يجعل الإنسان قريبا منها ، ربما نظرتها المتجهة إلى أسفل دائما ، ربما ملامحها الأمومية ، كانت تقوم بترتيب غرف الفندق المطل على البحر الأبيض ، والذى نزلنا فيه خلال إقامتنا بمدينة قابس .

كانت قادمة من الريف ، تقيم في المدينة ، لسبب ما أجهله ابدت اهتماما شديدا بصديقي يوسف القعيد ، إذ لمحته في الطرقة تبتسم ، وإذا شاهدته داخلا غرفته تظهر فجأة لتسأله عما إذا كان يحتاج إلى شيء ما . كان في اتجاهها إليه تدفق غريب ، أمومي ، وكان حضورها الاستسلامي . الطيب ، يحرك عندي مشاعر غامضة ، قبل انتهاء نوبة عملها كانت تجيء حاملة كوبا من الماء ، تقدمه إلى يوسف ، وكوبًا آخر إليّ ، تقول أن الماء رمز الأمان في تونس ، إذا نزل ضيف غريب على أسرة فإنهم يقدمون إليه الماء كرمز للأمان . إذا نام الطفل بمفرده في غرفة . وأمه في غرفة أخرى ، فإنها تغمض عينيها مطمئنة طالما أنها وضعت كوبا من الماء إلى جواره .

لهذا تأتينا بالماء قبل انصرافها .

صرت أعابث صاحبي ، أقول له ، أن العجوز الطيبة هامت به ، وكان يبدو حائرا من إقبالها الغامض ، عندئذ أقول جادا .

- ربما كنت تذكرها بعزيز غائب . .

صباح يوم مغادرتنا ، عند تأهبنا لمفارقة قابس إلى جزيرة جوبة ، جاءت ، راحت تروق حقائبنا ، بدت حزينة جدا ، تطلعت إلى يوسف . سألت :

- هل ستجيء مرة أخرى ؟

- يا عالم . . ربما في السنة القادمة . .

أشارت إلى عينيها ، قالت باختصار ، بتلقائية . .

- سأبكى . . أنا حزينة . .

قال لها :

- مصير الحى يتلاقى . . هكذا نقول فى مصر . . مدت يدها بنصف رغيف من الخبز الكبير المستدير ، وفوقه ورقة صغيرة داخلها ملح . .

- أمامكما سفر . . زاد للطريق .

تطلعنا إليها متأثرين . لا ندرى ما نقول ، قالت مخاطبة يوسف
- وحتى لا تنسانى !!

اليتيم..

. . فوق أعلى القمة التى يقوم عليها حى سيدى بوسعيد ، يوجد المقهى ، مطل مباشرة على البحر ، متدرج بسيط ، يتوسطه ضريح سيدى الشبعان ، أحد المتصوفة المجهولين ، عرف يختار المكان الذى يدفن فيه ، سيدى بوسعيد من أجمل الأماكن التى رأيتها فى العالم العربى خاصة وفى العالم عامة ، مبان قديمة حوفظ عليها بصرامة وحساسية ، لونان فقط هما السائدان ، الأبيض للجدران والأزرق للنوافذ والأبواب .

المقهى مطل على البحر ، يغص بالزائرين ، رجال ، نساء معظمهم تونسيون . طلبت نرجيلة . هم هنا يدخون المعسل ، أتى إلينا شاب فى مطلع العمر ، قوى البنية ، يرتدى قميصا رماديا . وبنطلونا قصيرا إنه المختص بخدمة النرجيلة هنا ، أصغى إلى لهجتنا المصرية ، فسعى إلى التعرف ، وعندما ذكرنا أسماءنا ،

تهلل وجهه مرحبا ، ومد يده ليصافحنا من جديد ، يعرفنا من خلال كتاباتنا فى إحدى المجلات العربية ، مرة أخرى يتكرر نفس الموقف معنا ، الناس تعرف أسماءنا وعناوين كتبنا ولكنهم لا يجدون هذه الكتب لأنها تطبع فى مصر ، ولأن ما يطبع من كتب فى مصر الآن أصبح شبه محلى ، للأسف لا وجود للكتاب المصرى فى تونس ، ولا فى الجزائر ، ولا المغرب ، تلك هى الأقطار التى زرتها ، والسبب ، ما يفرض عليه من قيود بيروقراطية بح صوتنا ونحن نطالب برفعها ، والآن ندفع الثمن من دورنا الثقافى ، حتى صحفنا ومجلاتنا أصبحت شبه محلية بعد أن كانت تقود العالم العربى ، هذا حديث يطول .

نعود إلى محمد . .

أتى إلينا بزجاجة ماء هدية منه ، دائما الماء ، ثم اختلس وقتا ليجلس إلى جوارنا ، أبدى رأيه فى بعض ما نكتب ثم حدثنا عن نفسه ببساطة . بتلقائية . .

محمد يتيم الأبوين .

توفى والده فى ١٧ يناير عام ١٩٧٤ ، وأمه فى ٢٥ يناير ١٩٧٤ ، وشقيقته فى فبراير ، بعد شهر واحد ، وجد نفسه يتيمًا ، ألحقه بعض الصالحين بمؤسسة لرعاية الأيتام ، لها فروع فى كل أنحاء تونس ، رعته ، وقدمت له العناية ، ومن خلالها تعلم ، حتى كبر والتحق بالجامعة . . عندئذ غادر المؤسسة ، يتلقى إعانة شهرية قدرها أربعون دينارًا .

يبسط يده فوق صدره . يقول :

- الحقيقة أننى مدين لهذه المؤسسة ، فيها تربيت ونموت .. وتعلمت ..

- هل أنت وحيد ..

يضحك

- تماما ..

- وعملك . ألا يعطلك عن الدراسة ؟

- أبدا ، فى الصيف أعمل هنا فى المقهى ، صباحاً ومساءً ، وعندما تبدأ الدراسة أبيع السجائر فى الطرقات ..

حدثنا عن حياته ، عن علاقاته . ملاحظاته حول المقهى ، عندما تأهبنا للانصرف . سألناه :

- ألاتريد شيئا من مصر ؟

قال :

- كتبكما ..

وكان أول ما قمت به فى اليوم التالى لوصولى أن أرسلت كتبى فى البريد ، بعد أن كتبت فوق المظروف ..

- محمد إبراهيم الشحابى .

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية .

طالب علم اجتماع ..

تونس

تعليق عما حدث

أغسطس ١٩٩٥

تماماً . .

كالخطو فوق أرض ملتهبة ، متقدة ، من يحاول أن يعمل صوت العقل الآن . حيث يمر العالم العربى بأكمله فى منعطف خطير ، لا أبالغ إذا قلت إنه يهدد الوجود العربى والإسلامى فى مثل هذه الأيام الصعبة ، يمتزج الشخصى بالعام . .

لا فرق .

اللجوء إلى المذياع ، التقاط البث من هنا أو هناك ، ذلك همى الأول فى مثل تلك الأيام ، أعرف الآن نوبات المذيعين والمذيعات ، أصواتهم ، اتجاهاتهم ، منذ الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل ، وقبل محاولة التفكير بصوت عال فيما يجرى ، لابد أن شعورا بالأسف والحزن العميق يلف كل عربى لتفجر هذه الحملات الإعلامية الشرسة ، والتى نسفت كل درجة من الوفاق الذى كان قد تحقق .

أتمنى ألا تضيع كلمات الرئيس مبارك فى بيانه الذى ألقاه قبل انعقاد مؤتمر القمة . عندما أشار إلى إمكانية الخلاف فى الرأى بدون اللجوء إلى التجريح أو الاتهامات . لا أشك فى شعور الإنسان العربى فى مصر عندما يصغى إلى الاتهامات والسباب المتبادلة بين القاهرة وبغداد .

مبارك قائد وطنى ، ولست بحاجة إلى الدفاع عنه ، ولكن أن يوصف قائد الطيران المصرى الذى قطع الذراع الطويلة لإسرائيل يوما . وأوجعها . أن يوصف بما يوصف به الآن . فهذا باعث على الغضب والأسى ، والحق أن الرجل عف اللسان . لم ترد على

لسانه كلمة خطأ واحدة ، وعندما تحدث عن الرئيس صدام حسين ، استخدم عبارات رفيعة المستوى .

وفى حدود ما أسمعه وما أقرأه . فلم يصدر على لسان صدام حسين ما يمكن اعتباره إساءة إلى الرئيس مبارك ، هذا يجعلنى آمل فى توقف حملات السباب المتبادلة والتى بدأت تصل إلى مس الأعراض ، والمضى فى التدنى أمر لا نهاية له .

لقد أصدرت نقابة الصحفيين بيانا قويا ، يدعو إلى وقف الحملات الإعلامية المتبادلة ، وأتمنى أن تتجه الجهود الشعبية الآن إلى تحقيق هذا الهدف العاجل . أن تنشط النقابات ، والاتحادات المهنية والعمالية ، ومنظمة التضامن الآسيوى الأفريقى ، والشخصيات ذات الثقل القومى فى مصر والعراق ، أتمنى أن تتاح فرصة الحركة للوفود الشعبية كى تتحرك فى اتجاه وقف الحملات الإعلامية العنيفة المتبادلة الآن ، لن نظل أعداء إلى الأبد ، فحتى الأمس القريب كان قادتنا يتعانقون . وما أظن أن ذلك ببعيد غدا ، وقد تبادلنا من الشتائم ما تنوء به الجبال خلال السبعينيات ، ثم التقينا من جديد وسال الود .

فليكن هناك خلاف ، هكذا السياسة ، اتفاق وخلاف ولكن ليس معنى الخلاف فى الرأى أن أسعى إلى إبادة مخالفى . من هنا تأتى أهمية كلمات مبارك التى أشار فيها إلى هذا المعنى . وفى رأيى أن محاصرة هذا التدهور نقطة هامة يجب العمل فى اتجاهها لأن ما يتهددنا أخطر مما نتصور .

* * *

فى عام ١٩٨٧ ، فى فبراير شاركت فى مؤتمر ضخم عقد فى الاتحاد السوفيتى ، تحت شعار «من أجل بقاء البشرية» وحضره أكثر من ثلاثة آلاف شخصية بارزة من جميع أنحاء العالم . كتاب ، ممثلون ، رجال دين ، رجال سياسة وشاركت فى أعمال اللجنة الثقافية وكان مقررها الأديب الإنجليزى الشهير جراهام جرين .

أستعيد التفاصيل الآن ، وأكتشف أن ملامح الواقع السائد الآن كانت ترسم فى تلك الفترة .

وقف الأديب الأمريكى نورمان ميللر ، قال أن الحرب النووية ، التى قد تنشأ بين العملاقين سوف يستفيد منها الشرق ، وقال عبارة لا أذكر الآن نصها ولكنها كانت تعنى الإسلام . حتى أننى ملت دهشا على زميلى الأديب الجزائرى الطاهر وطار .

وعندما رفعنا أيدينا نطلب الكلمة تجاهلنا الشاعر السوفيتى الذى كان يدير الجلسة . وعندما سمح للشاعر الفلسطينى سميح القاسم بالحديث . فى آخر الجلسة ، قال سميح «أنتم تتحدثون عن موت محتمل ، ونحن نعيش موتا حقيقيا . يوميا فى فلسطين فى جنوب أفريقيا . فى أمريكا اللاتينية» ولم يصغ إلى كلماته أحد ، وعندما وقف محمود العالم المفكر الماركسى المصرى ذو الثقل فى العالم العربى والمعروف جيدا فى الاتحاد السوفيتى . راح الشاعر السوفيتى يقاطعه وينبهه الى الوقت ، حتى أنه لم يتح له الفرصة للتعبير عن أفكاره . كان العملاقان يتخازلان ، يتقاربان ، وبدا لى واضحا أنه لا مكان لنا فى هذا التقارب ، ثم جاءت السنوات التالية بما أكد هذه الحقيقة .

انهار المعسكر الاشتراكى أسرع مما تصورنا ، وظهرت الاتجاهات الصهيونية فى الاتحاد السوفيتى الذى راح يتضاءل دوره على الساحة العالمية ، وينقلب على نفسه وعلى المبادىء التى كانت جزءا من وجوده ، بل إن الدعاية الصهيونية صورت للشعب السوفيتى أن مناصرة العالم الثالث كانت سببا فى إفقاره .

هذا حديث يطول ، ولكننى لا أبالغ إذا قلت أن الاتحاد السوفيتى الذى كان قوة عظمى يوما ما أصبح الآن تابعا للولايات المتحدة ، ولن أدهش كثيرا إذا ما أصبحت موسكو عضوا كامل العضوية فى حلف الأطلنطى .

إذن .. انفردت الولايات المتحدة بالعالم ، أصبحت القوة العظمى الوحيدة ، التى لا تجد من يردعها ، وخلال زيارتى للمكسيك فى نوفمبر الماضى لمست مدى الانكسار عند المثقفين والكتاب اليساريين . ولم تمض إلا أسابيع وقامت الولايات المتحدة بما قامت به ضد بنما ، والآن يقف كاسترو فى مواجهتها وفى مواجهة الاتحاد السوفيتى أيضا ! رمزًا على عصر ولى وانقضى ، قد يبعث من جديد ولكن بعد زمن لا ندرى الآن مقداره ، وبعد تحولات لا ندرى مداها .

المهم .. أن الطاقة العدوانية الكامنة فى الغرب توجهت إلى الشرق . إلى الجنوب ، إلى العرب والمسلمين تحديدا ، والإسلام فى الغرب يرتبط تماما بالعرب ، وعندما يقال الإسلام فإن ذلك يعنى العرب وليس سكان ماليزيا مثلا ، أو بروناى .

وتحرك الولايات المتحدة العسكرى الى الخليج ، وتواجدها فوق الأرض العربية - فى رأيى - اخطر ما واجهه العرب فى تاريخهم حتى الآن . لست مقتنعا أن قوات الولايات المتحدة تحركت من أجل نصرة القانون الدولى ، أو الدفاع عن هذا البلد العربى أو ذاك ، ولكن هذا التحرك يتضمن عوامل عديدة ، لا استبعد منها عنصرًا يمتد إلى زمن الحروب الصليبية ، خاصة فى فترات وهن العالم العربى ، عندما نزلت حملة صليبية على سواحل الحجاز وسعت باتجاه الحرمين الشريفين بغرض هدمهما ، لولا أن مصر هى التى أوقفتها وردتها على أعقابها .

فكرة إبادة العرب ، وتوجيه ضربة ساحقة إلى الإسلام ليست بعيدة عن ذهن الغرب الاستعمارى ، المتعصب وأيضا السيطرة التامة على هذه المنطقة التى تعد قلب العالم بما تحويه من مصالح هائلة ، أولها الآن النفط ، النفط هو ما يهم أمريكا الآن ، وليس الكويت ، وليس القانون الدولى ، أيضا العداء التاريخى القديم للعرب وللمسلمين .

ما هذه الشراسة غير المعهودة فى تطبيق الحصار على العراق ؟ أتصور أن تمنع الأسلحة والمواد الاستراتيجية ، ولكن أن يمنع السكر والحليب عن الأطفال والمرضى ؟ ، أظنها المرة الأولى فى التاريخ التى يتم فيها تجويع شعب بأكمله إلى حد الموت ، وهذا الشعب عربى ، إن محاولة إسقاط نظام سياسى معين لا تبرر إطلاقا حصارًا فظيعًا لا مثيل له فى التاريخ ، حصار مخالف لمبادئ الأمم المتحدة كما قال أمينها العام يوم الخميس الماضى .

أخطر ما يواجهه العرب الآن هذه القوات الأجنبية وبالتحديد الأمريكية التى سوف يصعب السيطرة على توجهاتها حتى لو اجتمعت الدول العربية كافة .

اقرأوا التاريخ جيدا ، لقد كانت بداية النهاية للأندلس عندما استعان العرب المسلمون بالأجنبى الأسبانى على أخوانهم ، وانتهى الأمر بضياع كامل .

لقد كنت أجلس فى مواجهة الرئيس مبارك يوم أن ألقى بيانه الذى دعا فيه إلى عقد القمة العربية ، وكانت أذناى تستمعان إلى ما يقوله ، غير أن حواسى كانت متعلقة بالكيفية التى يقول بها . وتعبيرات وجهه الذى بدا حزينا ، ولأول مرة أراه مرهقا ، ولكم احتدت نبراته ، وألفاظه عندما تحدث عن التدخل الأجنبى .

هذه قوات جاءت لتقيم ، وليس لمهمة محددة ، هذه قوات جاءت لتؤكد انفراد أمريكا بالعالم ، ولتثأر تاريخيا من العرب . لكم كنت أتمنى أن يكون الحل عربيا - عربيا ، قبل انفتاح أبواب الجحيم ، ويكون العرب هم الوقود الرئيسى للمعركة عندما يحارب العراقى ضد المصرى ، والسعودى ضد العراقى ، واليمنى ضد السعودى ، والمصرى ضد المصرى ، هل نسينا أن هناك مليون مصرى فى العراق . بعضهم تطوع فى الجيش الشعبى ؟ أى كارثة؟

* * *

هذا ما يتمناه كل عربى مخلص ، وإذا ما قدر لهذه المأساة أن تحل على أيدٍ عربية ، فلابد من إعادة النظر فى أساليب توزيع الثروة العربية ، لقد هالنى رقم الاستثمارات العربية فى الغرب من جانب دولة واحدة . مئات المليارات ، وهذه المليارات تم السطو عليها من قبل الغرب ، ولنتخيل العائد الذى يصل إلى عشرات المليارات الذى كانت تدره هذه الاستثمارات . هذا العائد تحصل عليه الدول الغربية الآن ، فالتجميد يعود على أصحاب الأموال نفسها وليس على الاستثمارات ، الأموال تدور داخل عجلة الاقتصاد الغربى نفسه !

كم من الأموال تم استثمارها فى مصر ؟

مليار واحد فقط وكسور صغيرة لا أذكرها . إنه المال الوحيد الذى لم يجمد ، لنتصور أن هذه المليارات المجمدة الآن فى الغرب لو كانت مستخدمة فى مصر ، فى السودان ، فى المغرب ، فى سوريا ، فى الأردن ، لنتصور حجم القوة العربية الذاتية التى كانت ستبرز إلى الوجود ، إضافة إلى الأمان الذى كان سيتوفر لتلك الاستثمارات ذاتها .

أتصور أنه بعد اجتياز المحنة التى يعيشها العالم العربى الآن ، لابد من إعادة النظر فى أساليب استخدام وتوزيع الثروة العربية ، بحيث لا تستأثر بها قلة . وتتصرف بها بما يؤدى إلى ما جرى فى الغرب من فرصنة .

فليحصل سكان الأراضى التى ظهر فيها النفط بالصدفة نصف الدخل وليخصص النصف الآخر ليصب فى صندوق قومى

للتنمية ، يتولى تمويل وإدارة مشروعات ضخمة ذات طابع قومى ، مثل تأمين الغذاء للعالم العربى ، بزراعة الأراضى الشاسعة فى السودان ومصر بالقمح مثلا ، بحيث يكتفى العالم العربى بالقمح ، قيام صناعة حربية متقدمة ، تتكامل فيها الصناعة الحربية العربية لتحقق القوة الذاتية ،لست متخصصا فى الاقتصاد ولكنها أفكار تدور فى مخيلتى ، تماما كما أثق أنها تتردد فى أذهان الكثيرين ؟

ليست تجليات سياسية ، أو أحلام يقظة ، فلا شك أن المحنة الحالية إذا مرت بسلام ولمصلحة العرب فسوف تسفر عن نتائج إيجابية لمصلحة الأمة . . إذا بقيت الأمة واجتازت عوامل الفناء التى تهددها ، سواء من الداخل أو الخارج !

◇ حرب الإذاعات ..

أغسطس ١٩٩٥

. . فى الزمان القديم ، كانت الجيوش تخرج إلى الحروب سافرة ، راجلة وراكبه . وفى الأغلب الأعم كان القادة يتفقون على المكان الذى سوف تجرى فيه الموقعة الفاصلة .

يذكر المؤرخ ابن إياس أن السلطان الغورى أرسل إلى السلطان سليم الأول العثمانى يقول له :

«لاقينى عند مرج دابق . .»

وفى هذا السهل الذى يقع شمال مدينة حلب جرت هذه الموقعة الفاصلة التى لاتزال آثارها عاملة حتى يومنا هذا فى حياتنا . فلنتأمل !

فى عام ١٩٧٣ . فى نهاية شهر أكتوبر . وبعد توقف المعارك على الجبهة المصرية سافرت إلى الجبهة السورية ، وأثناء عودتى من مدينة اللاذقية بعد زيارتى مقر قيادة القوات البحرية ، عدت الى الشام عن طريق حلب . كنت أسعى لزيارة مكان الموقعة الشهيرة التى قرأت عنها كثيرا ، ووصفتها فى روايتى «الزينى بركات» ، عندما وصلت إلى المكان الفسيح ، المترامى ، استغرقنى التأمل .

كان ذلك يوم أحد (وكما يقول شيخنا ابن إياس فهو يوم نحس مستمر) . صلى السلطان الغورى صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه إلى تل الغار ، قيل أن هناك قبر داود عليه السلام ، ثم انتقل الى مكان قواته فصار يرتب عساكره بنفسه . على يمينه وقف أمير المؤمنين الخليفة العباسى ؛ وحوله أربعون مصحفا فى أكياس حرير صفراء على رؤوس جماعة من الأشراف ، وفيهم مصحف بخط

الإمام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وحوله أيضا جماعة من الصوفية الفقراء هم خليفة السيد البدوى ، ومعه أعلام حمر ، والسادة الأشراف القادرية ، ومعهم أعلام خضر ، وأتباع الشيخ أحمد الرفاعى . وأتباع السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود ، وكان قائد الميمنة سيباى نائب الشام وقائد الميسرة خاير بك .

هكذا . .

كانت الجيوش تتواجه فى الزمان القديم ، الجيوش على مرأى من بعضها ، وكثيرا ما يتبادل الجانبان كلمات قاسية ، فى الزمن الأقدم كانت شعرا ، وهذا الدور تقوم به الإذاعات . وقبل التطرق إليه . أستعيد ما تخيلته فى وقفتى تلك بمرج دابق . .

قيل أن أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام ، والمماليك القراصنة ، فقاتلوا قتالا شديدا ، وهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة ، وأخذوا منهم سبعة مناجق ، وأخذوا المدافع ، وعندئذ هم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان إذ قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان . . كانت النصرة لعسكر مصر أولا .

يقول ابن إياس بحسرة :

وياليت لو تم ذلك . .

بعد ما يقرب من خمسة قرون أردد نفس القول ، وأحاول أن أتخيل ما كانت سوف تصير إليه الأمور لو انتصر السلطان الغورى فى مرج دابق ، مع إيمانى المطلق أن «لو» لا مكان لها فى التاريخ ،

ما جرى جرى ، وما وقع وقع بالفعل . كانت مصر قوة عظمى فى ذلك العصر ، تحمى الحرمين والبحرين وبعد قرنين فقط حاول محمد على أن يؤسس من جديد تلك الدولة العظمى ، ولكن تآمر العالم كله ضده .

بعد أن لاح النصر لجند مصر ، سرت الإشاعات بين المماليك أن السلطان الغورى حرص على إبقاء مماليكه الجلبان بعيدا عن المعركة ، وأدى ذلك الى تقهقرهم ، ومن ناحية أخرى كان خاير بك قائد الميسرة موالسا مع السلطان العثمانى . فانسحب وانكشف الميسرة .

وجد السلطان الغورى نفسه واقفا فى نفر قليل من مماليكه صار يصيح فى العسكر .

«يا أغوات هذا وقت المروءة ، قالوا وعلىّ رضاكم . .»

ولم يسمع له أحد قولا ، وصار المماليك يتسحبون من حوله ، فلما تحقق من الهزيمة نزل عليه خلط فالج (أى شلل) وقيل فقعت مرارته ، وطلع من حلقه دم أحمر ، مات السلطان الغورى شهيدا ، ولم يعثر له على أثر ، اختفت جثته تماما ، وبقيت القبة التى بناها لتكون مدفنا له خالية من جثمانه ولتكون مركزا ثقافيا أشهر ما فيه الآن . . رقصة التنورة .

كنت أسأل نفسى فى مرج دابق وأنا أجيل الطرف حائرا ، متأثرا ، ترى . . هل يرقد السلطان الغورى تحت الثرى فى مكان ما هنا ؟

المهم . . أننى قرأت الفاتحة على روحه وما زلت أمعن التفكير والرحيل إلى هذه الحقبة النائية . وإلى الحقب الأقدم .

عندما كانت الجيوش تخرج إلى الأماكن المتفق عليها ، وتصطف متواجهة ، أشجع رجالها فى المقدمة ، ثم يبدأ التصايح ، وتبادل العبارات العنيفة .

الآن ، تصطف الجيوش متواجهة ، ولكن خفية ، بدءا من تمويه المواقع ، وحتى الطائرة الوطواط التى لا يرصدها الرادار ، ولكن المعارك الكلامية لا تزال تقليدا متبعا ، يسبق المعارك الساخنة ، صحيح أن الرجال لا يرى كل منهم الآخر ، بل يقبع هذا أو ذاك ربما على طرفى المحيط ويضج الأثير فوقنا وحولنا وداخلنا بالمعارك الكلامية .

* * *

يمكن القول أنه منذ الثالث من أغسطس الماضى لم أفارق المذياع ، فهو ملازم لى ، ملاحق لأذنى ، والأسبوع الماضى أمضيت أيامًا فى شرم الشيخ ، إجازة لمدة أيام معدودات كل ما استطعت اقتناصها من أجل الأسرة ، وقبل بدء العام الدراسى الجديد .

وفى شرم الشيخ تبدو السماء مفتوحة أكثر ، وموجات الإذاعات المختلفة تنطلق بلا رادع .

الآن ثمة حروب مشتعلة فى سماء العالم العربى ، تزداد ضراوة مع مغيب الشمس ، حيث يمكن سماع الإذاعات على الموجات المتوسطة .

إذاعات المملكة العربية السعودية قوية وتسمع بوضوح طوال النهار ، إذاعة الرياض ، وإذاعة القرآن الكريم ، وإذاعة نداء

الإسلام من مكة المكرمة ، والبرنامج الثانى ، تبث مواد دعائية عنيفة ضد العراق . ولا تخلو أيضا من الشعر النبطى أو الفصيح . ولكن أكثر ما يثير التأثير نداءات الكويتيين النازحين إلى أسرهم ، والتى تذاع ليلا وتذكرنا بنداءات الفلسطينيين . (اطمئنوا وطمئنونا عنكم) فى الليل . . تسمع الإذاعات العراقية واضحة ، إذاعة بغداد ، إذاعة صوت الجماهير ، وإذاعة جديدة موجهة إلى المملكة السعودية باسم المدينة المنورة . وطبعا المواد المذاعة شديدة اللهجة ، والطريف أن هذه الإذاعة تقع بجوار إذاعة الرياض مباشرة ، ملليمتر واحد فقط يفصل بينهما ، ولكن شتان بين ما يقال هنا وما يقال هناك . حرب إعلامية ضروس لا أظن أن أثير الشرق الأوسط . شهد مثيلا لها من قبل .

ثمة إذاعة عراقية أخرى تبث نهارا على الموجة القصيرة موجهة إلى القوات الأمريكية فى الصحراء العربية ، الإذاعة بالإنجليزية ويقوم صوت نسائى ناعم جدا بتوجيه فقرات دعائية تدعو الجنود الأمريكيين إلى العودة إلى أوطانهم ، وبالطبع تحذرهم وتنذرهم .

نهارا تسمع الإذاعة المصرية على الموجة المتوسطة من خلال موجة تقوية ، ولكن الأقوى منها إذاعة الشباب والرياضة ولا أدرى السبب .

ما أدعو المسئولين عن إعلامنا إلى إعادة النظر فيه منهج عمل المراسلين فى الخارج ، إذ لا يقدم أى منهم معلومات كافية تفيد المستمع ، باستثناء مراسل قديم فى بون ، إن ما أنتظر سماعه هو المزيد من المعلومات المحايدة عن موقف هذا البلد أو تلك القوة السياسية ، ولكن ما نسمعه لا يخرج عن ردود أفعال القرارات

السياسية المصرية فى العواصم التى يوجد بها هؤلاء المراسلون . إذا تخيلنا حوارًا - على طريقة مسرح أيوجين يونسكو مثلا- بين سمير التونى وأحد المراسلين فى الخارج فسوف يكون كالآتى :

«سمير» : الشمس أشرقت اليوم فى القاهرة ، ترى ما هى ردود الأفعال عندكم ؟

المراسل : فى الواقع عبرت كل الصحف الصادرة صباح اليوم عن ترحيبها التام بشروق الشمس فى القاهرة ، وقالت إن هذا علامة هامة فى الموقف .. الخ»

الطريف أن الإذاعة المصرية لها مراسل فى بغداد ، وقد سمعت إحدى رسائله فى بداية أزمة الخليج ، وكان سمير التونى يسأله عن الموقف فى بغداد بعد غزو القوات العراقية للكويت . فيرد المراسل بعبارات متطابقة تماما مع قاموس الإعلام العراقى ، لكن الأخ سمير لا يقتنع فيعاود الاستفسار ، ويواصل مراسلنا فى بغداد متحدثا عن طلب الحكومة الثورية فى الكويت الوحدة .. الخ .. طبعا توقفت إذاعة رسائل بغداد ، وإن علمت من أحد الأصدقاء فى الإذاعة أنه ما زال يملى رسائله ولكنها لا تذاع . إن ما يحتاج إليه المستمع من المراسل المقيم فى الخارج أكبر قدر من المعلومات وهناك نموذج رائع تقدمه الزميلة الكبيرة مها عبد الفتاح التى تجعلنى وكأنى أعيش فى العاصمة الأمريكية ، من خلال رسائلها الصحفية لجريدتنا الأخبار .

من خلال متابعتى للإذاعات المختلفة ، يمكننى القول أن الإذاعة التى تقدم أدق تغطية إعلامية ، هى الإذاعة البريطانية ، لم تترك

شخصية عربية لها صلة من قريب أو بعيد إلا واتصلت به ، وحرصت على التوازن فى استضافة الشخصيات العربية ، وعرض دقيق لمقالات الصحف البريطانية .

أما إذاعة مونت كارلو الفرنسية فامتازت بسرعة إذاعتها لأى أخبار جديدة فور وصولها ، وأهم ما فيها ليس نشرات الأخبار ، ولكن ذلك التقرير الذي يذاع عقب نشرة الأخبار المسائية المفصلة ويكتبه جنرال فرنسى خبير في الشئون الاستراتيجية .

فى مثل هذه الظروف يصبح المذياع جزءا من الكينونة ، حتى أن بعض المواد تعاد إذاعتها فأسمعها بنفس الاهتمام خشية أن يكون معنى ما قد فاتنى فى المرة الأولى .

ويكون الاهتمام متعاظما دائما البداية ، ومع طول الفترة التى يستغرقها الحدث يقل التوتر ، فى بداية الحرب اللبنانية الأهلية كنت أصغى دائما إلى الإذاعات ، ما زلت أذكر مذيعا شهيرا ، كان يرشد المواطنين إلى الشوارع فيقول (السكة الفلانية سالكة وآمنة) نسيت اسمه الآن ، ومع الزمن أصبح القتال جزءا من الخبز اليومى ، وتراجعت أخبار القتال ، حتى أن العشرات يموتون فى معركة واحدة ، ولا يحتل هذا خبرا هنا أو هناك .

مع بداية الانتفاضة كنت أحفظ أسماء الأطفال الذين يستشهدون برصاص القوات الإسرائيلية ، ثم بدأت أخبار الانتفاضة تنتقل إلى المرتبة الثانية ، ثم توارت تماما ، والآن يستمر الموت اليومى فى الأراضى المحتلة ، ولكن .. ثمة مصيبة أكبر طمت وعمت للأسف. حتى الآن لاتزال أخبارها فى الصدارة ، متى ستتوارى ؟

ربما عندما تؤدى حرب الإذاعات دورها ، وتبدأ حرب من نوع آخر ، قد تنتهى بكارثة أكبر تغطى على الأولى . . وربنا يستر ! .

* * *

الثلاثـــاء :

سررت عندما أصغيت إلى صوت الدكتور أحمد حسين الصاوى ، العالم الكبير ، كنت قد قرأت له مؤلفه القيم عن تاريخ الطباعة فى مصر . وكتابه الأخير عن الجنرال يعقوب والذى يوضح فيه حقيقة هذه الشخصية . وعرفته أيضا من خلال الصديق الدكتور حسن رجب الذى عمل معه عندما أنشأ مركز المعلومات فى مؤسسة أخبار اليوم ، هذا المركز الذى عملت به عندما التحقت بالأخبار منذ واحد وعشرين عاما . كان الدكتور الصاوى يصحح لى إجاباتى عن أسئلة الكمسارى التونسى الذى ذكرته فى اليوميات الماضية ، قال لى أن سعيد باشا لم يتول الحكم مباشرة بعد وفاة والده محمد على إنما كان ترتيب من تولى الحكم كالآتى :

* إبراهيم باشا تولى الحكم فى حياة والده فترة قصيرة ثم توفى .

* بعد محمد على باشا تولى عباس الأول .

* بعده سعيد باشا .

* ثم الخديوى إسماعيل ، ثم الخديوى توفيق ، ثم عباس حلمى ثم السلطان حسين كامل ، ثم فؤاد (ابن إسماعيل) .

وأخيرا . . الملك فاروق .

وشكرا للأستاذ الدكتور حسين الصاوى .

◇ حديث.. في الاختراق!

سبتمبر ١٩٩٥

.. من العبارات الملفتة للنظر والتى ترددت خلال الأسابيع الأخيرة بين سطور المقالات والأحاديث الصحفية وفى الأعمدة اليومية ، عبارات «خيانة المثقفين» ، «اختراق المثقفين» و«الاختراق العراقى» و «الاختراق الفلسطينى» .. إلخ .

بشكل أو بآخر فإن هذه العبارات تتضمن اتهامات سافرة أو مبطنة . تعنى أن كل من لم يدن الغزو العراقى للكويت بصوت مرتفع ، ومن خلال شاشة التليفزيون وبالوسائل المرئية والمسموعة ، فهو قد باع قلمه وضميره .

وصل الأمر إلى حد تراشق الاتهامات الشفهية والمكتوبة بين المثقفين أنفسهم ، وذكر النفط ، والأقلام الملوثة بالنفط ، وفى المقابل ارتفعت أصوات محدودة جدا الآن ، وربما تعلو فى وقت آخر ، تتساءل أيضا عن «الاختراق الخليجى» و «الاختراق الإسرائيلى» بالتالى أصبح كل من يمسك بالقلم متهمًا إلى أن تثبت براءته ، ومن ، غير واضح بالضبط ، فحتى إذا سعى للمشاركة فى الحملة الإعلامية ضد صدام وغزو الكويت فهو غير مبرّأ ، فثمة من يشارك فيها الآن بضراوة ، ومن قبل كتب المقالات التى تقول العكس ، وذاكرة القراء ليست واهنة ، أو ضعيفة .

وما زال اللغط مستمرًا وحديث البعض عن الخيانة والاختراق مستمرًا ، وبالتالى يثير ذلك عدة تأملات لا أتردد فى طرحها الآن بصراحة .

وبداية يجب القول أن تاريخ المثقفين المصريين فى العصر الحديث حافل بالصفحات المضيئة ، الجيدة ، التى لا تزال تشكل مشاعل

ضوء تنير الطريق فى الليالى الحوالك ، ولنا فى سيرة عبد الله النديم أسوة وقدوة ، وأننى لأعتبره الجد الأكبر للمثقفين المصريين فى مصر الحديثة ، وقد كان أحد أعمدة الثورة العرابية ، وبعد انهيارها استمر كفاحه ، وقصة اختفائه لمدة تسع سنوات ملحمة حقيقية ، تقرأها فكأنك تقرأ الأوديسة أو الإلياذة ، سجلها تاريخا ودراسة الدكتور على الحديدى ، وصاغها إبداعًا الأديب الكبير محمد أبو المعاطى أبو النجا فى روايته «العودة من المنفى» ، أمضى النديم تسع سنوات مختبئًا فى فرن يحميه الشعب المصرى ، ويشرف على إخفائه أحد مشايخ الصوفية ، وكلما تعجل النديم الخروج ، أرسل الشيخ إليه قائلا : «لا تتعجل الخروج فى هذا العام أو الذى يليه ، فإن الأمر طويل وعلمه عند الله ..»

وشاية دنيئة أوقعت النديم ، وتقلبت به الأحول حتى انتهى منفيا فى استامبول ، ومات مغتربا ، فقيرا ودفن فى الغربة ، ولا أدرى إذا كانت مقبرته معروفة هناك أم لا .

كان موقف النديم منارة لاتزال تضىء حتى عصرنا هذا ، وقد عرفت مرحلة ما بعد هزيمة الثورة العرابية نماذج شتى لانهيار العديد من المثقفين الآخرين والذين نسيهم التاريخ الآن .

ومنذ القدم يعلمنا التاريخ أنه على المثقف الحقيقى أن يلتزم بقضايا الإنسانية عامة وشعبه خاصة ، وأن يكون مستقلا فى رأيه عن كل تأثير . سواء كان من سلطة أو ثروة ، لا يتبع إلا قناعاته هو ، ومصدرها تكوينه وضميره ، والعلاقة بين المثقف والسلطة علاقة معقدة ، خاصة فى تراثنا العربى ، وتحتاج إلى حديث

طويل ، بل إلى دراسات عديدة . وفى تاريخنا الحديث أمثلة عديدة على احترام السلطة السياسية للمثقف المستقل ، المعتز بذاته وبقلمه . يقول الأستاذ مصطفى أمين أن سعد زغلول دعا عباس العقاد إلى مأدبة غداء فى بيت الأمة ، وكان ذلك عام ١٩٢٦ ، وفى ترتيب الحاضرين جاء العقاد إلى جواره ، وبعد انتهاء الغداء سأل مصطفى أمين الزعيم ، كيف يجلس العقاد إلى جواره ويليه الوزراء ، مع أن العقاد أفندى . وهنا نظر إليه سعد وقال أن الوزراء أصحاب دولة ومعالى ، ولكن العقاد صاحب قلم ، وهذا يعلو على كل شيء . وسيرة العقاد ذاتها قدوة فى الاستقلالية واحترام الذات ، وقد خالف الرجل الكثيرون فى أوقات عديدة ، وهناك واقعة أخرى بعد ١٩٥٢ ، إذ حدث أن اتصل مكتب وزير الثقافة بالعقاد وقال أن الوزير يرغب فى تحديد موعد معه . فقال العقاد : غدًا فى الخامسة . وتحدد الموعد بالفعل فى الخامسة ، وفى الموعد تماما دخل العقاد الى مكتبه فى منزله وجلس ينتظر ، حوالى الخامسة والنصف اتصل سكرتير الوزير مستفسرًا عن سبب تأخر الكاتب الكبير عن الموعد المحدد ، وهنا قال العقاد أن الوزير هو الذى تأخر عن موعده ، فعندما يتم تحديد موعد بين العقاد ووزير ما فإن الوزير هو الذى يأتى إلى العقاد وليس العكس . فى الستينيات كان الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين - رد الله غيبته وشفاه - فى إحدى مكتبات القاهرة عندما فوجيء بصاحب المكتبة يعرض عليه كتابين نادرين ليشتريهما ، وكان أحدهما للعقاد ، وعندما سأل واستفسر علم أن العقاد يمر بظروف صعبة وأنه مضطر لبيع بعض كتبه حتى يعيش ، ولا يعلم مدى الألم

الذى يلحق بالكاتب إذا اضطر إلى مفارقة كتبه إلا من كابد ذلك ، فما البال إذا كان هذا الأديب هو العقاد؟

بهدوء اتجه أحمد بهاء الدين وكان وقتئذ رئيسا لتحرير أخبار اليوم وقابل مصطفى أمين ، واتفق معه على الاتصال بالعقاد ليكتب يوميات الأخبار أربع مرات فى الشهر مقابل خمسين جنيها للمقال الواحد . وكان العرض كريماً قبله العقاد الذى لم يعرف خلفياته .

الأمثلة على احترام المثقف المصرى لذاته ، ولمواقفه عديدة ، عديدة ، ولقد عرفت رجالا من كبار المثقفين أمضوا فى السجون سنوات تتجاوز العشر لأنهم رفضوا توقيع ورقة تتضمن استنكارًا لما آمنوا به ، أو تأييدا لمن اختلفوا معه ، جرى ذلك فى زمن عبد الناصر ، والسادات ، وما زلت أذكر عبارة لأحدهم قالها لمن جاء يتفاوض معه لتوقيع مذكرة تأييد ، إذ أجابه قائلا :

«إن تأييد السجين فيه شبهة ، ولكننى بعد الإفراج يمكننى مناقشة الأمر» .

إذن استقلالية المثقف أمر هام جدًا ، من هنا يجب أخذها فى الاعتبار ، خاصة عند بدء الحملات الإعلامية الرهيبة لحظة بدء الخلاف مع دولة أو أخرى ، ويصبح مطلوبا من الجميع أن يتكلموا نفس الكلمات ، وأن ينطقوا بنفس النبرات ، هنا قد تجد من المثقفين من يتفق مع النغمة السائدة ، أو الحملة الناشبة ، ولكنه لا يريد أن يكون فردا فى جوقة . أو صوتا فى كورس ، ربما أراد التعبير عن أفكاره بطريقة خاصة ، ربما أراد الخوض فى محاظير لا يريد الخط الإعلامى تناولها لظروف آنية . عندئذ قد يلزم

الصمت . بينما تعلو بعض الأصوات ، وتكاد الأصابع تشير إلى البعض بالاسم . مطالبة هذا وذاك بإبداء الرأى وطبعا المطلوب هو التأييد التام ، طيب . . ما هو الحال إذا كان هناك مثقف ما يختلف مع الاتجاه السائد ؟ ، كيف يواجه صيحات الاتهام بأنه منحرف عن الخط ، وأنه صامت لأنه يقبض ، وهنا ننتقل إلى نقطة أخرى ، ولكننى قبل التعرض لها . يجب التأكيد على أهمية استقلالية المثقف ، وعلى ضرورة تميز آراء المثقفين وتنوعها بحيث لا تصبح مجرد نغمات فى حملة إعلامية قد تتغير غدا ، فآراء المثقف نابعة عن ضمير ، وعن مواقف ثابتة ، وعن الالتزام بحقائق مطلقة ، أما الخلافات السياسية فتتغير من مرحلة إلى أخرى ، ومن يكون حليفا اليوم . كان خصما بالأمس ، والعكس ، مطلوب تنوع الآراء ، وحتى أكون واضحًا ، فأقول أن السكوت على غزو الكويت وما تلاه من معاناة إنسانية لمئات الألوف من البشر ، سواء كانوا كويتيين أو مصريين أو بنغاليين أو هنودًا ، أمر لا يمكن إطلاقًا لأى ضمير مثقف أن يسكت عليه ، إلا يدينه ، وإذا كان الغزو المدان ، والكوارث التى حاقت بالبشر تمثل قلب الصورة ، ولب الموقف ، فهناك تفاصيل أخرى لا يمكن للضمير الحى أن يتجاهلها أيضا . المهم التركيز أيضا على التاريخ المشرف والناصع للمثقفين المصريين ، فلماذا إذن تتطاير الاتهامات بالعمالة ، ويتردد الحديث عن الاختراق ، وتتردد الاتهامات بالقبض ، فهذا يقبض لأنه يؤيد الحكومة ، وهذا يقبض لأنه يناصر القضية الفلسطينية وهذا يقبض لأنه يؤيد الكويت . . . الخ . .

* * *

كانت مصر هى قبلة المثقفين العرب ، وما زالت ، وعندما كانت مصر قوية اقتصاديا ، كانت ترسل البعثات التعليمية إلى كافة أنحاء العالم العربى وتدفع مرتبات أعضائها . وكان الطلاب يفدون إلى مصر من العالمين العربى والإسلامى ليقيموا ويتعلموا وينفق عليهم أيضا ، وكان الأدباء المضطهدون يجيئون إلى مصر فى مختلف عصورها ويندمجون فى الحياة الثقافية فيها ، خاصة فى العصر الحديث ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ومع ظهور النفط ، والثروات الطائلة فى بعض مناطق العالم العربى ، خرجت الخبرات المصرية إلى هذه الدول لتساهم فى تأسيسها وتحديثها ، وكان من بين هذه الخبرات الصحفيون ، ولكى تكسب الصحف الوليدة قراء جددا وشعبية سعت إلى الأقلام المصرية ذات الجماهيرية والمصداقية فهل يعنى ذلك أن كل صحفى عمل فى هذه الصحيفة أو تلك أصبح عميلا للجهة التى تصدرها ؟

هل يعنى نشر كاتب مصرى لقصة أو مقالة فى هذه المجلة العربية أو تلك أنه باع نفسه ؟ أو أنه بالتعبير الدارج المتردد الآن . . أنه يقبض ؟

هنا أقول بالنفى ، هذا أمر مشروع تماما ، بل أقول أن من واجب الكاتب المصرى أن ينتشر فى الصحف والمجلات العربية ، لأن ذلك مرتبط بتأثير الدور الثقافى المصرى ، وخلال السبعينيات وفى فترة قطع العلاقات العربية - المصرية ضعف الدور الثقافى المصرى فى بعض مناطق العالم العربى ، خاصة أن بعض الأقطار العربية طمحت إلى وراثة الدور الثقافى المصرى ، وقد تصدى

كثيرون لهذا الأمر بالذات فى حينه ، وكشفوا كثيرًا من المواقف التى تسترت باسم العداء لإسرائيل أو رفض كامب ديفيد ، وكان الموقف من عميدنا نجيب محفوظ مثالا على ذلك ، فقد حدث إجماع عربى على مقاطعته ، وأعتقد أن الأمر لم يكن بسبب موقفه من كامب ديفيد . وبقدر ما كانت تحركه عناصر ذاتية من أدباء يريدون تشويهه ، أو آخرين يرون فيه - وهذا فهم مغلوط - عقبة ، ولقد بدأ الأمر بمهاجمة الحكومة المصرية لتوقيعها اتفاقية كامب ديفيد وانتهى عند البعض بمهاجمة نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم و طه حسين وحتى الذين رحلوا منذ قرن من الزمان ، إن انتشار الكاتب المصرى فى الدوريات العربية واجب ، وما يتقاضاه مقابل ما ينشره مشروع ، والغريب أن الكاتب المصرى مغبون الحق فى سائر الجهات التى تعامل معها ، فهو يتقاضى أقل المكافآت ، وعليه تقوم سمعة مجلات وصحف بأكملها ، بل أقول أن بعض الأجور التى تدفعها الدوريات العربية تصل إلى حد الغبن ، بل بعضها يسرق الكتاب المصريين ولا يدفع لهم حقوقهم .

ولكن . . متى يصح القول بأن هذا (يقبض) ؟

أقول إذا تقاضى هبات وأموالاً لم يقدم مقابلها جهدًا .

ولا كتابة ، إنما باع مقابلها ضميره .

من يمكنه أن يشير إلى ذلك ؟

أقول أن ضمير الكاتب هو المؤشر الوحيد ، وأى اهتزاز فى هذا الضمير يتم رصده على الفور من جانب القراء ، والثقة التى يمنحها القارئ للكتاب لا تتم بين يوم أو ليلة لا تتم صدفة ، إنما تلك

عملية طويلة تنمو عبر العديد من التجارب والمواقف ، وتثبت التجربة أن القراء أقوى محكمة لكل صاحب قلم ، وبالطبع هناك أجهزة الدولة ، خاصة الأمنية ، وتلك أجهزة لا تهن كفاءتها قط حتى لو أصاب جهات أخرى الضمور والهزال ، هذه الأجهزة لديها المعلومات الدقيقة عن كل من يتصدى للعمل العام .

إن الإغراءات التى يتعرض لها الكاتب أو الصحفى عديدة ، ولكم نظلم أنفسنا بترديد الاتهامات ، والحديث عن الاختراق والقبض ، هناك نماذج مشرفة ، ومواقف مضيئة فى حاضر الصحفيين المصريين الذين يحاول البعض التشهير بهم ، منذ أسابيع سافر زميل كبير فى الأخبار إلى إحدى الدول العربية وأجرى حوارًا مع الرجل الثانى بها ، بعد عودته طلب سفير هذه الدولة وهو شخص مثقف وعلى كفاءة عالية مقابلته . وقدم إليه هدية ثمينة فما كان من زميلنا إلا أنه اعتذر بحزم ، وقال للسفير الذى وقع فى حرج شديد أنه قام بحملة ، وأنه يعتذر عن قبول الهدية ، وقبل ذلك بشهور تحدث الوسط الصحفى عن رفض عدد من أكبر الصحفيين لمبالغ نقدية ضخمة قدمت إليهم أثناء زيارتهم لهذا القطر ، والأمثلة عديدة مما تثبت أن الكاتب المصرى يستعصى على الاختراق ولا يعرض نفسه للبيع مثل بعض الذين ينتمون إلى جنسيات عربية أخرى واتخذوا من الكتابة مهنة كالتجارة وتبقى تساؤلات أخرى .

* * *

تردد الحديث عن المهرجانات ، والجوائز ، فهل يعنى ذلك أن أى مثقف سافر إلى مهرجان ثقافى أنه باع قلمه ، أو ضميره ، مقابل رحلة لمدة بضعة أيام ، واستضافة فى فندق ؟

أقول إن السفر إلى هذه المهرجانات كان نوعا من مشاركة مصرية ثقافية فى تجمعات ثقافية عربية ، وإذا كان مهرجان المربد الشعرى هو المقصود الآن ، فثمة مهرجانات أخرى هامة مثل الجنادرية فى السعودية ، وأصيلة فى المغرب ، وقرطاج فى تونس ، ومؤتمرات أخرى عديدة بعضها دورى والآخر عارض ، ولا شك أن الدعاية للبلد الذى يعقد المؤتمر وينفق عليه غرض واضح ، أحيانا يكون سافرًا مثل المربد العراقى الذى تدهور مستواه خلال السنوات الأخيرة ، مما دعا كثير من المثقفين المحترمين إلى الاعتذار عن المشاركة فيه ، ولكن هذا لايعنى أن كل من شارك فيه أصبح عميلا للنظام العراقى ، وخلال سنوات الحرب كان الفندق الذى يقام فيه المربد هدفا ثابتا للصواريخ الإيرانية .

أعجب ما تردد أيضا هو مطالبة بعض الأدباء برد الجوائز التى حصلوا عليها ، إن أسماءهم هى التى شرفت تلك الجوائز وليس العكس ، ولكن المثير للأسى أن يعلن أحد الذين حصلوا على الجائزة أنه يشعر بالعار لأنه حصل عليها بدون أن يكون تصريحه بسلوك عملى وهو رد الوسام والقيمة المالية .

لا يمكن طبعا إنهاء الحديث عن هذه المهرجانات بدون التوقف عند نقطتين ، الأولى ، إفراط بعض المثقفين فى التصريحات خلال إقامة هذه المهرجانات ، وزيارة هذه الأقطار ، وتحول البعض

إلى قناصة جوائز ، وطلاب هبات ، مع أنهم يعيشون فى مستوى رفيع من المعيشة ، وبعضهم له تاريخ قديم مشرف ، وعطاء خصب ، وهذه نقطة تحتاج إلى تفصيل أكثر .

النقطة الثانية تتصل بمركز مصر الثقافى ودورها ، وهذا أساس قوتها وحضورها عبر التاريخ كله ، هذا المركز أصابه وهن نتيجة عدم الاهتمام بالعمل الثقافى الجاد خلال السنوات الماضية ودعم أوعية الثقافة المصرية الأساسية الكتاب والسينما والاسطوانة واللوحة . . وبالذات الكتاب ، الكتاب المصرى الذى يغيب الآن عن أرفف المكتبات فى الأقطار العربية ، ولهذا حديث يطول .

من ناحية أخرى جرى التفريط فى دور مصر الثقافى ، فلسنوات طويلة كان أى أديب عربى يسعى للنشر فى القاهرة وكان ذلك شهادة ميلاده الحقيقية ، مع عصر النفط ، وجدنا أسماء تفرد لها صفحات المجلات ، وتصدر مؤلفاتها التافهة عن الدور الرسمية للنشر ، وبالتالى يثير هذا الغبار ، نفس الأمر فى الأغنية ، والتمثيل ، حيث تعطى مساحات مبالغ فيها من الوقت لأصوات وافدة بالقطع ليست هى الأجمل ، لا يعنى هذا الدعوة إلى إغلاق الأبواب فهذا دور تاريخى لمصر . ولكن تقديم هؤلاء يجب أن يتم وفقا لمقاييس صارمة ، فلا تظهر فى مصر إلا الموهبة الحقيقية ، وليس الموهبة المؤطرة بزمن النفط ، إن التهاون فى هذا الأمر يؤدى إلى التفريط فى دور مصر الثقافى وإضعافه على المدى البعيد..

وتبقى قناعات المثقف .

* * *

لكل مثقف قناعاته ، وقضاياه التى يلتزم بها ويدافع عنها ، والمثقف الحقيقى هو الذي يلتزم بقضايا الإنسانية ، بهدف تحسين أوضاعها وحل مشاكلها ، وأغرب ما تردد خلال الأسابيع الماضية القول بالاختراق الفلسطينى ، هل يعنى ذلك أن كل من يكتب عن القضية الفلسطينية هو عميل لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ولياسر عرفات أقول . . كلا .

فالقضية الفلسطينية عرفنا مبادئها ونحن نتعرف على العالم ، وإذا كان المثقف المصرى قد وقف إلى جانب فيتنام ، وناميبيا ، وكافة حركات التحرر ، فهل سيتخلى عن القضية الفلسطينية وهى قضية مصرية فى كثير من جوانبها ، لماذا يقول البعض بالاختراق الفلسطينى .

أعتقد أن المسئول عن ذلك هو منظمة التحرير ذاتها وبعض المنظمات الفلسطينية ، فقد سعت إلى رشوة البعض ، لتأييد القضية ، أو للدعاية لها ، مع أن القضية الفلسطينية عادلة وليست فى حاجة إلى تلك الأساليب التى تتبعها بعض الأنظمة والتى يجب ألا تسلكها حركة تحرير وثورة . وهذا جعل البعض من أنصار القضية يخشون مواجهة مثل هذه الاتهامات خشية تلويث سمعتهم ، وبالمناسبة أقول إنه ما من سر فى العالم العربى ، والمثقف الذى يفرط لحظة فى ضميره مقابل هبة ، أو مكافأة سرعان ما يشيع أمره . وفى الغالب يكون المانع هو الذى يبادر بالإعلان ، أو تسريب الأمر .

فى عام ١٩٨٥ ، كنا فى زيارة لتونس ، الزميلان يوسف القعيد وعبد الله إمام وأنا ، وقد ذكرنا هذه النقطة بالذات لأبو عمار ، واجهناه بما نعرفه ، وما كان يتردد بين الصحفيين عن وقائع محدودة جدًا ، جدًا ، وللأسف فإنه لم ينف بعضها ، وربما تجىء فرصة حديث البعض عن الاختراق للمصارحة فى هذه النقطة .

ولكن هل يعنى ذلك أن يلحق الإرهاب أولئك الذين انحازوا تماما إلى القضية الفلسطينية وعملوا على مساندتها ومناصرتها ، أعتقد أن القياس الوحيد هو موقف كل مثقف ، وقيمه ، وقناعاته التى قد يدفع حياته من أجلها ، حتى وإن خالف فيها تيارًا قد يبدو فى لحظة أنه هادر عنيف ، لا يمكن للمثقف الحقيقى إلا أن يكون متسقا مع ضميره ، ولو اهتز هذا الضمير لحظة واحدة .. يكون ذلك بمثابة نهاية هذا المثقف ذاته . ومن أتحدث عنه هو المثقف .. والمثقف الحقيقى !

◇ عادل سليم

سبتمبر ١٩٩٥

تقريبا . . الحادية عشرة صباحًا .

يوم جمعة . هادىء ، رخيم . أجلس إلى مكتبى ، أرتب أوراقى . أصغى إلى موشحات ينشدها مطرب مراكشى قديم ، فى هذه اللحظات الموازية فارق عادل سليم ، أو العميد عادل سليم ، أو عادل بك سليم كما يذكر اسمه الملازم حاتم . أطلق عليه إرهابى مجهول النار من مدفع رشاش ؟ من بندقية آلية ؟ لا أحد يعرف حتى الآن ، أطلق من مسافة قريبة جدا إلى درجة أحرق لهيب الطلقات جدار بطنه .

فى الليل سمعت اسمه عبر نشرة الأخبار ، ومنذ هذه اللحظة لم يفارق ذهنى ، مع أنى لم ألتق به قط . ولم أر صوره إلا فى الصحف .

أفكر فيه ، وأتقصى ما ينشر عنه ، وأقلب التفاصيل مقترنا اسمه بشهيد آخر رحل منذ أيام ، أحمد قدرى عالم الآثار الفذ ، والوطنى المخلص ، كلاهما راح ضحية الإرهاب ، إرهاب وحشى ، إرهاب إدارى ، هل لهذا السبب اقترنا ببعضهما عندى .

لا أدرى .

* * *

صدفة . .

قدر . .

ربما . فى صباح الجمعة هذا خرج العميد عادل سليم بصحبة الملازم حاتم لمعاينة جثة غريق ظهرت فى النيل قبالة أحد فنادق

القـاهرة الكبـرى ، لا أدرى ولـن يدرى أحـد أبدا أى صـور كـانت تتوالى على ذهنه فى هذا الصباح الهادىء الخريفى .

فى طفليه ؟ التوأم أحـمد ومحـمد ، عمرهما خمـس سنوات فى طفلته منى التى لم تتجاوز بعد السنة والنصف ، هل قبلهما عند خروجه ؟ هل كانوا نيامًا فى يوم العطلة فلم يشأ إزعاجهما . منذ ست سنوات فقط تزوج بالسيدة التى شاركته حياته ، موظفة هى فى جـامعـة القـاهرة ، لا يدرى أحـد فى مـاذا فكر ، وحـول أى مواضيع دار ذهنه ، بعد معاينة جثة الغريق المجهول الذى حـمله التيار من الجنوب ، مثل هذه المعاينة أمر عادى جدا بالنسبة له ، مهمة بسيطة ربما لا تتفق حتى مع رتبته الكبيرة ، لكنه لم يتوان ، إنه واحـد من الذين يقومون بالواجب ، ولا يتعـاملون مع واجبـهم الوظيفى بجمود ، ولهذا كان مشهورًا بين زملائه ضباط المباحث الجنائيـة ، كـواحـد من أكـفـأهم ، وأنقـاهم سيـرة ؟ ولكل مـهنة نجومها . وأفراد معدودون يبرزون عبر العديد من التجارب . . عادل سليم واحد منهم .

فى هذا الصباح بعد الانتهاء من المعاينة لم يكن يدرى أن المسافة التى تفصله عن ارتقاء منحدر الأبدية تضيق مجرد ثوان معدودات ، حـقـا . . مـا تدرى نفس بأى أرض تموت ؟ . ولكـم شـغلنى الخـاطر هذا ، فوق أى بقعة من الأرض سـأغمض عينى إلى الأبد وفى أى مكان سـأتم مدتى وأبدأ رحيلى ؟ . قـال لى صـاحب عزيز يومـا إن الإنسان بعد بدء رقدته الأبدية يتحول إلى تراب ، إذن . . ليرقد فى موطنه ، يصبح جزءا من ترابه حتى يطأه الأقربون وليس الغرباء . .

طلقات نارية . .

يتأهب عادل سليم ، تستنفر كل عناصره الكامنة ، لم يكن مكلفا بحراسة شخصية عامة . أو فندق أو سفارة . أو وزارة ، إنما تواجد بالصدفة ، وعلى مقربة منه تواجد شخص مجهول بتدبير سابق محكم! أحد أفراد المجموعة الإرهابية التى هاجمت الدكتور رفعت المحجوب ، يبدو أنهم تركوه ، يبدو أن دوره هكذا ، المهم بدأ يجرى على قدميه مخفيا سلاحه بين قميصه . أو مطلقا بعض الطلقات للإرهاب ، المهم أنه مر بمقربة من الحراس المدججين الذين يرتدون الملابس السوداء . ومعهم ضباطهم الشبان الصغار الذين يختالون بأنفسهم ونراهم فى الطريق يغالبون الملل . أو يتطلعون هنا وهناك حاملين أسلحتهم النارية ، بنادق آلية ، ورشاشات ، لم يتحرك أحدهم ، يقولون إن الأوامر تقضى بألا يفارق أحدهم موقعه ، ولكنهم كثيرون ، لو أن أحدهم فقط أشهر سلاحه . . لو ، ولكن ما جرى جرى ولا تجوز لو هنا ، فإنها تفتح عمل الشيطان .

لم يكن لدى عادل سليم أوامر ، أو توجيهات ، ولو أنه اختفى أو مضى فى طريقه العادى لما لامه أحد . فالرجل لم يكن مكلفا بأى مهمة فى المنطقة ، ولم تكن لديه أوامر ، ولكن كان داخله ما يجب هذا جميعه ويتجاوزه ، نداء الضمير ، نداء الواجب النابع منه و الغير مملى عليه ، تلك الشهامة المصرية ، النخوة التى كانت تدفع الرجال إلى الاشتباك مع معتدين دفاعًا عن ضعفاء يجهلونهم أو مع أقوياء ضايقوا أنثى عزلاء ، كان ذلك فى زمن تسوده تلك

القيم قبل دخول قيم أخرى غريبة ، الفردية الأنانية ، إيثار السلامة ، وأنا مالى .

إلى تلك النبتة الأصيلة فى وطننا كان ينتمى العميد شرطة عادل سليم ، نبتة أينعت وأعطت على مدى عصور من حفظوا لهذا الوطن عرضه وكرامته ومضمونه ، وقد عرفت منهم كثيرين ، إبراهيم الرفاعى ، ومحمد زرد ، وأحمد قدرى وأسماء أخرى سينفد مدادى قبل أن أتم ذكرها ، ولم يكن لدى عادل سليم سلاح ، لا آلى ، ولا رشاش ، ولا مسدس حتى . .

لكنه أقدم . .

وتبعه الضابط الشاب حاتم .

أوقفا عربة بيجو أجرة ، أشار عادل سليم إلى الطريق لا بد من مطاردة عربة الأجرة المازدا التى استقلها الإرهابى المجهول ، كان عادل سليم يتقدم ويقترب . .

* * *

من ؟

حتى الآن لا إجابة .

مصرى ؟ عربى ؟ آسيوى ؟ ، متى ولد ؟ وأين ؟ المؤكد أنه لم يلق بعادل سليم ، فخطوط المصائر هنا متباعدة ، عادل سليم من أكفأ ضباط المباحث الجنائية واختصاص تلك القتلة واللصوص والحوادث . أما الطرف الآخر الذى بدأ عادل سليم يطارده فلا نعلم عنه شيئا وليس لنا إلا التخمين إلى أن يقضى الله أمرا كان

معلوما . العميد عادل يوجه سائق البيجو . السيارة تقترب ، تصطدم بالأخرى ، تضيق عليها الخناق ، تضطر المازدا إلى التوقف .

يجلس الإرهابى القاتل بجوار السائق .

يغادر عادل سليم سيارة البيجو ، يندفع إلى المازدا ، هل التقت عيناه بعينى الإرهابى المجهول ؟

ربما .

مد يده ، فتح الباب ، أمسك الإرهابى بيديه ، ها هو أحد القتلة بالفعل بين أيدى رجل شجاع ، كان ما يشغله أن يمسك به حيًا ، وكان أيضا محكوما بتراثه فى مكافحة القتلة و المجرمين ، أن يشتبك معه فى عراك ينتهى بتقييده ، بالقبض عليه ، ولكن عادل سليم لم يكن يدرى أنه أمام نوعية مختلفة ، كينونة تنتسب إلى الآدمية تحولت إلى أقصى طاقات العدوانية . قاتل أو مقتول ، لاوسط ويبدأ الالتحام .

* * *

كان العميد عادل سليم يقف عند مفترق زمنين ، زمن ماضى ، وزمن آنى ، ولا زمن مقبل ، زمن النخوة ، وزمن السلبية ، زمن الإيجابية والشهامة ، وزمن التوارى والبعد عن المخاطرة ، هكذا آثر الآخرون الذين تواجدوا فى مكان الحادث . من شرطة حراسة . ومسطحات مائية وحراس أمن فى الفنادق قطاع خاص ذوى الحلل الزرقاء الذين يختالون بمسدساتهم المتدلية من أحزمتهم المحيطة بخصورهم ، وعندما حانت اللحظة التى كان يجب أن تبرز فيها

هذه المسدسات بقيت مدلاة !

يقدم عادل سليم ، يتمكن الإرهانى من سل مدفعه الرشاش ، أن يصوبه إلى بطن الرجل الشجاع . أصبح هذا الآتى من المجهول ، يتمكن من ضغط الزناد ، يطلق الملازم حاتم طلقة من مسدسة فى الهواء بغرض الإرهاب ، لم يكن يدرى أنه فى مواجهة الإرهاب نفسه ، يتمدد عادل سليم ، يفلت الإرهابى مرة أخرى على قدميه إلى هيلتون رمسيس ، إلى الجراج ، إلى دروب بولاق لا يتصدى له أحد ، لا يشتبك معه أحد ، لا يعترض طريقه أحد ، وكان عادل سليم يتحول ببطء إلى ماضٍ ، إلى رمز . .

* * *

كل من يعرفه عن قرب أو بعد حزن عليه . حتى الجيران الذين كانوا يرونه نادرًا بسبب عودته المتأخرة إلى بيته كان يمضى جل وقته فى مواقع عمله ، يبذل أقصى الجهد ، وأقصى الطاقة .

تماما كأحمد قدرى الذى رأيته فى مواقع الآثار بأم عينى يحمل مقاطف التراب على كتفه مع العمال . كان يتقدم الصفوف ، تمامًا كما تقدم عادل سليم ، وعندئذ يتبعه الآخرون .

كان عادل سليم طيبا . رقيقا ولكن فى غير ضعف وفى الوقت نفسه قويا بدون قسوة . هكذا وصفه حماه ، وهكذا كان أيضا الدكتور أحمد قدرى كانت له نفسية طفل ، وعقلية عالم ، وعزيمة حديدية ، كان بريئا ، نقيا ، مؤمناً بالمثل العليا ، وبمصر ، وكانت مصر بالنسبة له ليست معانى مجردة ، إنما مبانٍ ونقوش وحلى عتيقة وزخارف متشابكة وأشعار مدونة . وآياتٌ مقدسة فوق

الجدران ، وكانت مصر بالنسبة لعادل سليم بلدا يجب أن يظل آمنا ، يقضى على القتلة والمأجورين ولصوص الآثار ومهربيها والذين تغلبوا على أحمد قدرى فى إحدى مراحل الصراع .

كان العميد عادل سليم نزيها ، ناصع الذمة ، يسكن بيتا بسيطا ، عاش من الحلال ، وربى أطفاله من الحلال البين ، تماما كأحمد قدرى الذى كان يعيش فى شقة صغيرة متواضعة ، حتى إذا أراد استقبال ضيوف أجانب استقبلهم عند والدته أو فى فندق ، وعندما أراد أن ينتقل إلى بيت أوسع ، اشترك فى جمعية الشهيد التى يرأسها المناضل السياسى أحمد طه ، ليدفع مقدم شقة مساحتها ١٤٠ مترًا فى المعادى ، كانت أمام أحمد قدرى فرص ليكتنز الذهب والفضة بأيسر السبل ، لو مد يده إلى الحرام ، والحرام فى مجال الآثار أمره معروف ، كم من آثار مصرية تختفى وتظهر في مدن أوروبية ، كم من آثار مصرية تنتقل فى الحقائب الدبلوماسية إلى خارج البلاد !! كم من الآثار تبدل أو تتلف أثناء هذه المعارض التى تقام هنا أو هناك حيث يصحبها المحظوظون من الموظفين المقربين جدا ، جدا ، كان أحمد قدرى كالعين الفرعونية الحارسة ، يزود عن آثارنا وينفض عنها الغبار ، ويبعث الحياة إلى خرابات القلعة التى كانت مهجورة . وتمنحه أعلى الهيئات الدولية أرفع الجوائز بعد عزله إثر تمثيلية كتف أبو الهول ، نعم تمثيلية . بعدها أقيل ، واستبيحت هيئة الآثار ، والآثار نفسها ، أقول ذلك من موقع علاقة شبه يومية بالآثار المصرية الإسلامية والتي أتابع تدهورها السريع ، والإهمال البشع الذى تعانيه الآن ، بركة من

المجارى الراكدة الآكنة تغطى الخندق المحيط بمسجد الصالح طلائع . وأخرى بمسجد قلاوون ، شركة مقاولات عمومية ترمم بيت السحيمى وقصر المسافر خانة ، شركات إيطالية مريبة يسند إليها ترميم مواقع هامة مثل باب الغرب ، وأخيرا هذا القرار الأكثر غموضا واسترابه بنقل المتحف المصرى القديم ، هل يدرى القراء الكرام أن أحمد قدرى خاض معركة عنيفة لتحويل خط مترو الأنفاق عن مبنى المتحف ، وأن ذلك تم بالفعل ، الحديث عن شجون الآثار باعتبارها جزءاً من الوضع الثقافى الآن يطول ، ولكننى أستعيد الآن أيام الراحل أحمد قدرى وعلاقته العضوية بكل حجر ، وسعيه ، وسهره ، وجهده ، كان كتلة من الأعصاب العارية . وبعد أن أقالوه راحوا ينشرون أخبارا كاذبة عن أرض فرط فيها . وأرض استولى عليها ، وبعد وقت طويل ظهرت براءة الرجل الشريف ، النظيف ، ولكن كانت معاناته رهيبة ، هو الإنسان الحساس ، المرهف الشعور ، الذى عشق تاريخ وطنه . وهو يرى الغدر يفشى ، والأيدى التى طالما أوقفها عند حدها تمتد ، والإهمال يسرى إلى المبانى التى تجسد ذاكرة بلادنا ، كل ما بذله يتبخر ، لم يحتمل جسده فانفجر كبده ، طق فيه فرخ جمر كما يقول ابن إياس .

عادل سليم البطل الشهيد قضى فى لمح البصر . فى أجزاء من الثانية .

أحمد قدرى استشهد ببطء عبر ثلاث سنوات .

* * *

يقول الجندى محمد عبيد المرافق للشهيد عادل سليم أنه كان يتعامل معه كوالده لأنه كان متواضعا ولا يؤذى أحدا فقد كان يوصله بسيارته إلى مكان مبيته قبل رجوعه إلى منزله ، وعندما كنت أتأخر عليه فى الحضور كان يقبل العذر ويتسامح ولو حدث هذا مع ضابط آخر لحلق شعرى . يقول شقيق زوجته أن المرحوم كان يقول دائما الحلال بين والحرام بين .

نفس الجملة رددها على مسمعى أحمد قدرى ، يوما كنت فى سقارة ، سألت أحد الخفراء عن الأحوال . وعن زمن أحمد قدرى . قال لى بلهجته الصعيدية أن قدرى رجل ولا كل الرجال ، ثم أشار إلى الجدران التى تحمل كتابة أجدادنا ، قال :

- الحيطان دى بتبكى عليه . .

ولسوف يطول البكاء ، ولكن مصر لا تنسى جهد المخلصين من أبنائها .

* * *

موظفو مصلحة الآثار . عمالها ، شباب شارك فى عمليات الترميم ، مثقفون ، ناس مجهولون ، شيعوا جثمانه من مسجد سيدنا ومولانا الإمام الحسين ، أوصى الفقيد أن يصلوا عليه فى المسجد الطاهر الذى ركب قبته وأنقذها . حضرت يوم استقرارها فى علاها ، زغردت النساء . وعلت هتافات الله أكبر ، وعانق البسطاء أحمد قدرى ، رأيت الدموع فى عينيه . هؤلاء صلوا على جثمانه . . وفى الطريق إلى بلدته فوجىء المشيعون . أناس مجهولون علقوا لافتات على طول الطريق وداعا أحمد قدرى .

وداعا عاشق الآثار المصرية .

أما أطفال المدارس الصغار فى القرى المؤدية إلى كفر الحمام فخرجوا من مدارسهم وكتبوا فوق الجدران :

وداعا الدكتور أحمد قدرى .

مع السلامة يا دكتور قدرى ..

مشهد رهيب يذكرنى بخروج الفلاحين المصريين فى الأقصر لوداع جثث ملوكهم بعد اكتشافها فى خبيئة وادى الملوك القرن الماضى ، عندما تقرر نقل المومياءات إلى القاهرة . مشهد رائع سجله الفنان العظيم شادى عبد السلام فى فيلم المومياء . هكذا ودعوا أحمد قدرى .

لا .. ليس صحيحا أن مصر تجحد فضل أبنائها ، إن مصر تحفظ الجميل وترده مدى الدهر . يقسم لى صديق يعمل فى هيئة الآثار أن لحظة مواراة الجثمان الثرى حطت أسراب من عصافير مهاجرة من بعيد ، بنية اللون ، وبرغم حركة المشيعين وضربات معاول الحفر ، فإن عصفورا منها لم ينزعج ولم يطر ، إنما أحاطوا حافة القبر ، والمثوى الأبدى ، لقد أصبح أحمد قدرى ذرات من تراب الوطن ، وأصبح عادل سليم ذرات من تراب الوطن .

* * *

يقول دائما أستاذنا مصطفى أمين ، إن الكبير لا يخشى الآخرين ، وفى العمل الجماعى إذا أقدم المسئول على اختيار الكبار فإنه يكبر معهم . ومصطفى أمين له فى هذا المجال مواقف

عديدة ، منها أنه كان يكتب لبعض المحررين . حتى يزداد تألقهم ، وبالتالى يزداد عدد الناجحين فتعلوا المجلة أو الجريدة بهم .

للأسف ، بعد أن استقر وزير الثقافة الحالى فى الوزارة إثر عاصفة استقبلته ، بدأ يطيح بالكبار وكان أحمد قدرى أحد أهدافه الرئيسية ، وقد سجلت رأيى فى عزل أحمد قدرى فى الأخبار رغم ما يربطنى - بالفنان فاروق حسنى - وليس الوزير - من صداقة ، وقد كنت واحدًا من الذين وقفوا إلى جواره إزاء ما تعرض له من هجوم .

الآن . . وبعد ثلاث سنوات ، ومن خلال نظرة إلى أوضاع الثقافة المصرية ، فى الآثار ، فى كافة المجالات المتعلقة بالمشاكل الحقيقية للثقافة المصرية . لدور مصر الثقافى الذى يبهت ويأفل خاصة فى محيطنا العربى . . وهذا حديث يطول .

الآن ، بعد ثلاث سنوات من استوزاره ، أقول وهو فى ذروة سلطته : إن الذين عارضوه كانوا أبعد نظرًا وأثقب رؤية .

* * *

أعود مرة أخرى لأتساءل . لماذا يقترن عندى العميد شرطة عادل سليم بالدكتور أحمد قدرى . لماذا؟

وأقول بإيجاز . .

لأنهما شهداء الواجب .

رحمهما الله .

◇ ثروت عكاشة

ديسمبر ١٩٩٥

. . اجتزت الحديقة الأنيقة ، الصغيرة . المنمقة ، تنبثق منها بعض الأشجار النادرة ، اجتزت مدخل البيت القابع فى أحد شوارع المعادى ، ليست المرة الأولى ، ربما تكون الثالثة أو الرابعة ، أكن لصاحبه احتراما عميقا . أنه واحد من قلائل محدودين جدا . أسعى إليهم كلما صدر كتاب جديد لى لكى أقدمه إليه بنفسى .

هذه المرة . . أجىء لأتسلم نسخة جديدة من آخر مؤلفاته الضخمة الموسوعية . ولكنها فرصة أيضًا للحوار مع بانى ثقافتنا الحديثة ، هو الذى شيد الأركان الأساسية التى تقوم عليها حياتنا الثقافية حتى الآن ، وبعده يمكن القول أنه ما من إنجاز حقيقى يضارع ما أرساه هو ، يكفيه فخرًا وسببا لبقاء اسمه مدى الدهر ، غيرته على الآثار المصرية واستنفاده للعالم كله من أجل إنقاذ معابد النوبة ، وكما يقول الراحل الكبير لويس عوض أنه لم يغمض له جفن حتى أنقذ معابدها فى ملحمة الصخور والمياه ، والغريب أن الدكتور ثروت عكاشة الذى أنقذ معبد أبو سمبل المهيب ، لم يره حتى هذه اللحظة بعد أن استقر المعبد فى موقعه الجديد !

* * *

صمت جليل يعبق البيت ، اللوحات تغطى الجدران ، لوحات أصلية نادرة . مجموعات ثمينة من المنمنمات الشرقية ، يعتز بها حتى أنه أفرد المساحة المطلة على مكتبه مباشرة لمجموعة جميلة من أصول المنمنمات التى ضمنها كتابه «معراج نامه» على الرغم من

قصر المسافة بين الباب وحتى المكتب ولكن كل شبر مدجج بالثقافة العريقة ، تنبث شخصيته فى المكان تماما .

عندما فتحت باب الغرفة ، كأنى أمام لوحة كلاسيكية متقنة الألوان والظلال لكاتب كبير ينحنى فوق مكتبه . كان يخط رسالة يرد فيها على أستاذ إنجليزى متخصص فى الأهرامات ، أرسل إليه خطابا يستفسر منه عن حقيقة ما يجرى أو يعد لهضبة الهرم . ويقول أن قلقا يسرى بين علماء المصريات والمتخصصين فى الآثار المصرية .

لا أعرف بماذا أجاب الدكتور ثروت عكاشة ، لم أسأل مع أن فضولى كان قويا ، فارق الرجل مكتبه أضاء الغرفة التى غطت جدرانها بالكتب . ويتصدرها جهاز موسيقى ضخم ، حوله مجموعة كبيرة من الأشرطة الموسيقية الحديثة «كومباكت» التى تعتمد على أشعة الليزر فى تحقيق أدق درجة سماع . ولع ثروت عكاشة بالموسيقى قديم ، وتذوقه لها رحلة طويلة تضرب مثلا رائعا على الإرادة القوية فى صقل الذات وتنميتها ، لا يتذوق الموسيقى فحسب ، إنما يكتب عنها ، وعن مؤلفيها ، ولوعه بفاجنر ذائع ، والكتاب الذى وضعه عن الموسيقار الألمانى العظيم يعد المرجع الوحيد عنه ، وعندما تولى وزارة الثقافة أنشأ الكونسيرفتوار وفى مايو ١٩٦٧ افتتح قاعة سيد درويش . أول قاعة مخصصة لسماع الموسيقى فى الشرق .

«فى عام ١٩٥٢ ، بعد حصوله على دبلوم قسم الصحافة سنة ١٩٥١ من كلية الآداب ، سافر إلى سويسرا . وتقدم إلى جامعة

فريبورج ليسجل رسالته عن «جبران خليل جبران» ، لكن لنتوقف فى مذكراته عند وصفه لبيت فاجنر ، يقول :

. . اصطحبت أسرتى لزيارة «دار الهناء» حيث عاش موسيقاى الأثير ريشارد فاجنر قرير العين . راضى النفس فى كنف زوجته كوزيما التى أحبها وأحبته فأشرقت دارهما بضحكات أطفالهما ايزولده وايفا وسيجفريد . وفى هذه الدار بالذات فاجأها صبيحة عيد الميلاد عام ١٨٧٠ الذى كان نفسه عيد ميلادها الثالث والثلاثين حين أيقظها من نومها على أنغام «قصيدة سيجفريد الرعوية» لنقرأ أبياتها الشعرية العذبة التى يناجيها فيها .

طفت بأنحاء الدار أتحسس البيانو الذى كان يجلس اليه ليمنح للبشرية آثارًا خالدة فى عالم النغم المتسامى ، وألج غرفة نومه متأملاً فراشه لعلىّ أتلمس تلك الهواجس التى كانت تخطر فى فؤاده وهو مضطجع .

* * *

إننى أفهم ما كتبه ثروت عكاشة عن زيارته لبيت فاجنر ، أن هزة وقعت عندى بعد زيارتى لبيت تشيخوف فى موسكو ، وبيت دستويفسكى فى لينجراد ، كلاهما عرفت عالمهما فى سن مبكرة ، وامتزج عالمهما بعالمى ، ومن قبل وصفت ذيارتى لبيت تشيخوف فى هذه اليوميات ، أما جوسى فى بيت دستويفسكى فأحدث عندى انفعالا قويا أعاقنى عن وصفه رهبة وخشية ، هكذا أشعر برهبة وجلال اذ اتطلع الى عينى نجيب محفوظ اللتين يقرأ بهما ، وأصابع يديه التى تمسك بالقلم والتجاعيد التى لحقت

بها . اقول لنفسى : لقد كتب الثلاثية بهما . وأتذكر القائل أن الكتابة فعل روحانى بوسيلة جثمانية . . إننى أفهم ثروت عكاشة وما خطه عن علاقته بالفنانين العظام الذين ارتبط بهم .

* * *

أستعيد ما كتبه عن باريس ، المدينة التى عمل بها ملحقا عسكريا فى الخمسينيات ، يزورها فى كل عام مرة أو مرتين ، ليطوف بالمتاحف فيتوقف أمام أصول اللوحات التى أحبها ، ويقتنى الجديد من الموسيقى . والكتب .

حدثنى عن زيارته الأخيرة ، جولته فى متحف اللوفر ، صعوده وقت الغذاء إلى المطعم بالطابق العلوى ، حمل الصينية ، وقف فى طابور المترددين ليحصل على ما يريد أن يسد به رمقه ، فوجىء بثلاثة أشخاص يقتربون منه ، يرتدون حللاً أنيقة ، وأربطة عنق ثمينة تقدم منه أحدهم ، كان دمثًا ، دقيقا ، تعرف عليه وأراد أن يحييه بغتة اكتشف الدكتور ثروت أنه فى مواجهة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، كانت مفاجأة جميلة الوقع عليه ، بعد انصراف الشيخ الفاضل خطرت للدكتور ثروت فكرة أن يقدم تحيته بطريقته الخاصة إلى فضيلته ، ترك الصينية ، أسرع فى إثره ، قرر أن يعرض عليه مصاحبته فى جولة بالمتحف ، أن يكون دليله إلى بعض المعروضات النادرة ، يقول ثروت عكاشة . .

– للأسف لم ألحق به . . غير أننى أكبرت فى الشيخ الفاضل حرصه واحترامه للفن الرفيع . .

* * *

ويستمر الحديث ، وكنت أتسلل بنظرى خلال الإصغاء إلى لوحتين أصليتين للفنان محمود سعيد ، ولثروت عكاشة كتاب ضخم عن الواسطى الفنان العربى الذى رسم مقامات الحريرى فى لوحات أخاذة لا تزال باقية إلى يومنا هذا ، ولكنه قدم الى المكتبة العربية ركنا متكاملا ، أصدره تحت عنوان العين تسمع والأذن ترى ، صدر منه حتى الآن تسعة عشر مجلدًا ضخما ، عمل موسوعى رفيع ، وكأنه يحاول بنفسه أن يتم المشاريع الضخمة التى خطط لصدورها عن وزارة الثقافة ولظروف شتى لم يتم بعضها ، كان قد خطط لصدور دائرة معارف إسلامية ، وقاموس إنجليزى - عربى . يقول انه من أهم واجبات الدولة فى ميدان النشر احتضان المشروعات الضخمة مثل دوائر المعارف والمعاجم ، والغريب أن المشروعات التى بدأها ، أو خطط لها ولم تتم ، لم يعمل أى مسئول قال على استكمالها ، أو إخراجها إلى حيز الوجود ، مع أن تفاصيلها موجودة فى مذكراته التى قال الراحل لويس عوض أنها كتاب ينبغى أن يدرسه كل وزير ثقافة ، لأنه يمثل برنامج عمل ثقافى متكامل . . ، ولعل آخر عمل كبير أصدره يندرج فى هذا الطموح القديم . أقصد «المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية «الذى صدر عن دار لونجمان ، لقد حملت هذه الموسوعة معى وقررت أن أدخل فى تحد معها ، قلت « بهزار» ورحت أقلب صفحاتها فإذا بفقرة كاملة وافية عن الرسام الإيرانى العبقرى الذى عاش فى القرون الوسطى .

قررت الانتقال إلى الموسيقى ، قلت «لونجا» ، وقلبت الصفحات لأقرأ نبذة عن هذا القالب الموسيقى الحربى الجميل ، عندئذ مخيت إلى العمارة ، قلت «المسلة» وتطالعنى فقرة كاملة تعلوها كلمة مسلة بالعربية والفرنسية والإنجليزية هكذا أورد كافة المصطلحات باللغات الثلاث ، ما من مصطلح يتعلق بالأدب ، بالموسيقى ، بالعمارة ، بالفن التشكيلى ، بالسينما ، بالمسرح ، بالثقافة العامة ، بالتاريخ ، إلا وأورده ثروت عكاشة بلغات ثلاث . وشرحه وعرف به بالعربية ، وسوف أضرب مثلا بحرف الباء ، فى الصحفات الثلاث الأولى التى خصصت للحرف - ومجموع الصحفات كلها خمسة وعشرين من القطع الكبير - سوف نقرأ عن هذه المصطلحات :

(با) روح المتوفى عند قدماء المصريين .

(الأسْر البابلى)

(مهرجان باكخوس) ، (عابدات باكخوس) (باخ - الموسيقار) (خلفية) (مدرسة بغداد التصويرية) (الفن المملوكى) باكست ليون (فنان روسى) . . . الخ ، تضم الموسوعة حوالى ثمانية آلاف مصطلح ثقافى ، وسبعمائة وخمس عشرة صورة ولوحة ملونة . هذا جهد إذا قام به فرد حق لنا أن نفخر به ونزهو . فما البال إذا كان هذا الرجل ثروت عكاشة الذى أسس نهضة مصر الثقافية ، وكما قلت ، إذا كانت ثمة عناصر ايجابية نراها الآن فى الصورة فهى من بقاياه .

* * *

ويمضى الحوار فى محراب الرجل المطهر من أدران الواقع الخارجى . يحدثنى عن مبنى دار الكتب المصرية المطل على النيل ، لم أكن أعرف أن صاحب فكرته هو ثروت عكاشة حتى قرأت مذكراته فنشطت ذاكرتى المثقلة لأستعيد أيام تأسيسه قال لى أنه عندما حمل نموذج المبنى إلى الرئيس الراحل عبد الناصر لاحظ أن قاعات المطالعة لا تطل على النيل ، طلب تعديل النموذج بحيث تطل جميع القاعات على النيل حرصا على راحة المترددين ، تلك تفصيلة صغيرة سأذكرها كلما مضيت إلى هذا المبنى الضخم .

ويستمر حوارى مع ثروت عكاشة ، إنه يتحدث بهدوء رصين ، جاد ، اذا انفعل تتدفق كلماته حارة ، وقد ينفعل جدا بعمل أدبى أو فنى فيختنق صوته إلى حد ما .. شجرة عريقة من الإحساس والثقافة الرفيعة ..

* * *

لماذا لم تكتمل مشروعات ثروت عكاشة ؟

أقول أن كل شىء فى مصر يعتمد على الفرد ، أقول هذا بعد معايشة دقيقة لتاريخ مصر الطويل ، هرمية السلطة وتركيزها تجعل الفرد هو الأساس ، حتى أنه ليصبح مرحلة بطابعه . ومزاجه ، ويبدأ ذلك من أعلى مستوى إلى الأدنى ، لا أحزاب ، ولا تنظيمات سياسية ، أو جماهيرية ، إنما هو الفرد ، حتى الأحزاب فى العصر الحديث تتبلور حول أفراد ، كان مصطفى كامل رمزاً ، وكان سعد زغلول تجسيدا لرؤية شعب وفلسفته ، وفى أى موقع إذا

حسن اختيار الشخص صح الوضع ، وازدهر النشاط ، وبرزت عناصر الثقة والقوة ، هناك مثل آخر يؤكد ما أقول ، فى نفس الأسبوع الذى صدر فيه معجم ثروت عكاشة الموسوعى ، أصدرت الهيئة العامة للاستعلامات دائرة معارف مصر الإسلامية ، وهذا عمل علمى جليل لى وقفة معه فى يوميات أخرى ، ومع الرجل المثقف الذى كان سببا فى خروجه ، بل الرجل الذى جعل من الهيئة العامة للاستعلامات منارة إعلامية وثقافية ، الدكتور ممدوح البلتاجى .

القيادة السليمة يتوقف عليها كل شىء فى مصر ، والفرد هو الأساس ، لا توجد خطة مستقرة برغم تغير الأفراد ، لا يوجد تصور استراتيجى لا يتأثر . بمجىء هذا وذهاب ذاك ، ومهما قيل ، سيظل الفرد هو الأساس ، ولكم أتمنى أن تتكون هيئة قومية من عقلاء القوم تقوم بإجراء ما يشبه كشف الهيئة على كل ما يرشح لتولى منصب عام ، كشف كهذا الذى يجرى للمتقدمين إلى الكليات العسكرية ، أما إذا ساق القدر بهذا أو ذاك إلى موقع لا يحسن تدبير أموره فليس أمامنا إلا الانتظار . . والأمر لله من قبل ومن بعد .

* * *

لماذا اوجه تلك التحية الحارة إلى ثروت عكاشة ، لماذا أنحنى احترامًا لجهد ممدوح البلتاجى ، ولغيرهما ، إنه الدور الإيجابى لخدمة الثقافة المصرية ، رأس مالنا الحقيقى فلا نملك أساطيل عظمى ، أو بترولا ، ولكننا نملك حضارة وثقافة ، لهذا أعتبر كلا

من هؤلاء أصحاب فضل شخصى علىّ ، بعد أن كتبت عن ظروف رحيل أحمد قدرى كتب أحدهم يقول إن لأحمد قدرى أفضالا شخصية علىّ وهذا حقيقى تماما ، فعلى الرغم من أن علاقتى به عمرها عشر دقائق ، مقدار لقاء فى القلعة أثناء ترميمها ، وبالرغم من أننى لم أسافر فى بعثات الهيئة المحلية والدولية ، ولم تكن لى علاقة قط بها . رغم هذا كله فأحمد قدرى له فضل شخصى علىّ ، وعلى كل مصرى ، على كل من يتردد على القلعة فيمكنه أن يجلس بها ويستمتع بعد أن كانت وكرا للأفاعى ، وعلى ابن طولون الذى نفض التراب عن زخارفه الرائعة ، وعن السلطان حسن الذى أزوره كل أربعاء ، وعلى الكنائس القبطية التى لم تلق اهتماما إلا منه ، أليس هذا بفضل شخصى ؟ ولكن الأفضال الصغيرة فلم تطل إلا كل من انقض عليه وتآمر عليه بعد عزله أو بعد موته ، والحقيقة لا تغيب . .

* * *

يصر ثروت عكاشة على أن يصحبنى إلى مدخل الحديقة رغم آلام عنيفة تجتاح ساقه . وما من سبيل إلا إجراء جراحة عاجلة . . أتطلع إليه ، إلى دماثته . فى الأسبوع الماضى كتب شاعرنا الكبير أحمد عبد المعطى حجازى يقول أنه يضع وردة فى عروة الرجل العظيم ، وإذ أتطلع إليه ، إلى مؤلفاته الضخمة ، وآخرها هذه الموسوعة الفذة ، لا أملك إلا أن أهتف ببساطة أبناء الجمالية والقاهرة القديمة . .

- ربنا يخليك لنا .

عروس النيل ..

يناير ١٩٩١

.. للأديب المبدع علاقة خاصة مختلفة بالنصوص الجميلة التي كتبها آخرون . يحبها ويعجب بها ويتخذها حافزًا له يستنفر طاقاته الكامنة ليبدع مثلها أو أحسن منها ، وبعد سنوات طويلة من القراءة . تبلورت الصلة بأعمال أدبية معينة ، تقديرى وحبى لها يجعلنى أضعها على مقربة منى ، بحيث تكون فى دائرة بصرى إذا تطلعت إلى رفوف مكتبتى ، أقتنى عدة طبعات من العمل الواحد ، فى كل سنة أقرأها من جديد . هكذا أطالع «جسر على نهر درينا» لايفواند ريتش وثلاثية نجيب محفوظ وموبى ديك لهرمان ميلفل وصحراء التتار لدينو بوتزانى ، ومعظم اعمال دستويفسكى خاصة الجريمة والعقاب والإخوة كرامازوف وذكريات من منزل الموتى ، وقصص تشيخوف ، والبحث عن الضائع لبروست أقرأ هذه الأعمال كل عام من جديد ، إلى جانب النصوص العظمى التى أقرأها باستمرار فى حلى وترحالى ، فى سكونى وحركتى ، عند سفرى لا تخلو حقيبتى من القرآن الكريم ، وديوان الحماسة لأبى تمام ، وألف ليلة وليلة ، وقد أخرجت مطابع الجزائر طبعة جيب كاملة . قليلة الحجم أصحبها معى ، أما طبعة بولاق الأولى فموضعها راسخ فوق مكتبى ، أما موسوعة «بدائع الزهور» لابن إياس ، وتاريخ الجبرتى . وخطط المقريزى ، فأعايش صفحاتها باستمرار ، أهاجر إليها ولا أقول أطالعها .

أحيانا .. أقرأ نصًا أدبيا جميلا فأود لو أننى كنت كاتبه ومن حبى له أعيد روايته للمقربين ، وإذ يزداد إعجابى به أقدم على

عرضه للقارىء ، خاصة اذا كان النص يعلن ميلاد كاتب متمكن قدير ، تأخر ظهوره طويلا لاسباب شتى .

هكذا .. احاول تلخيص أو تقديم «عروس النيل» القصة الأولى من مجموعة الأديب النوبى يحيى مختار والتى تحمل الاسم نفسه .

* * *

.. فلوكة تتأرجح على صفحة النهر بلا ظلال ، فريدة فى المقدمة أبوها فى الوسط ، يتحرك إلى الأمام والخلف بجذعه مع حركة يديه بالمجداف .

الظلال ورائحة المياه لم يكن يصرفها عن التفكير فى أمها البعيدة هناك . إنها الآن بصحبة والدها ، وحدهما ، كانت تريد أن تراه . أن ترى وجهه الأليف بقسماته المحببة التى كانت ، وليست تلك الملامح القاسية التى يطالعها بها . عندما كانت تضربها أمها كانت تجرى إليه تلجأ إلى صدره العريض بذراعيه الكبيرتين يلفهما عليها ورائحة عرقه وتبغ سيجارته يملأ أنفه . ما كانت تنام إلا فى حضنه . كانت تسكن كفر اليمامة على مقربة منه .

ما كانت تدرى أنه سيأتى يوم تخاف منه ، تبحث عن مأوى غير حضنه الآمن .

تشعر بالدم اللاذج الدافىء بين فخذيها ، منذ يومين تنزف ، يتقلص رحمها ، منذ أن صحبتها أمها إلى النساء العجائز فى الكوخ البعيد ، عندما أحطن بها . وزحفن إليها ، وأزاحوا ثوبها .

كان لسانها كقطعة من الخشب الجاف فى حلقها . رعب ثقيل حط على صدرها . جسدها مباح لهن ، بعد أن تسلك يد إحداهن إلى داخلها أعلنت وكأنها تصدر حكما . .

- ثلاثة شهور . .

تفكر فريدة فى أمها ، إنها هناك بعيدا حيث لا تسمعها ، يتحول حنينها إلى الرغبة فى الذوب فيها ، فى الاتحاد معها ، تود لو عادت إلى رحمها مرة أخرى ، بعيدة وفى منأى عن كل خوف فريدة وحيدة تماما الآن مع عارها ، أبوها على مقربة منها مثقل بهمه ، بغلبه ، بحزنه ، إنها وحيدته ، داخلها إدراك يقينى بأن النهاية وشيكة ، داخلها ينسال بكاء الروح المتولد من انشطار النفس ورؤيتها لذاتها ميتة .

كان والداها غريبين ، عبدين ، جاءا إلى هذه القرية النوبية وعاشا فيها على الهامش . كان والدها يصيد السمك ، وبرغم بؤس حياتهم فلم تخل طفولتها من صور لا تزال تتردد فى ذهنها وهى تدنو من نهايتها .

عندما كانت تجرى وتلف حوله لتفاجئه بعضة فى ساقه باسنانها الصغيرة ، الرفيعة ، البيضاء . فيصرخ ، عندئذ تكركع ضاحكة ، كان يضمها إلى صدره بعد يومه الطويل المجهد فيشم رائحتها . يقبلها . تفلت منه هاربة ، ويعلق بشاربه مخاطها ولعابها فيمسحه باسم الثغر ، ومع الزمن تكبر فريدة كانوا يعيشون على هامش القرية ، فى عشة متواضعة بعيدا عن بيوتها . كان الأب يعمل من أجل ابنته وامرأته . كان يعمل ويعمل فلم يكن يجيد شيئا سوى

ذلك ، أما أهل القرية فلم يكونوا يكفون عن تكليفه بأى عمل ولم يكن يمتنع ، كان فى طبيعته شىء يعزى الآخرين بتكليفه بأى عمل ، وإصدار الأوامر إليه . لم يكن يجد إنسانيته الحقيقية إلا فى علاقته بامرأته وابنته ، ومن أجلهما احتمل كل شىء .

ابنته فريدة أصبحت أنثى ، وفى البلدة عمدة . والعمدة له ابن شاب يضع عينه على فريدة ، أليست أبنة رجل فقير غريب عن البلدة ، يطاردها ، ينفرد بها ، يغتصبها ، وكأن فقرها وغربتها يجعلانها مباحة له ، كانت بالنسبة له مجرد نزوة . وبالنسبة لها ولعائلتها كان ذلك بداية دمارهم .

بعد اكتشاف الأمر ، وحمل فريدة منه . اعتبرت البلدة حملها من ابن العمدة إهانة له ، مع أنها هى المعتدى عليها . هى المنتهكة . وكأنها ليست آدمية . ابن العمدة يغتصبها ولكن ليس من حقها أن تحمل ، ويبدأ العقاب متجها إلى عائله المجنى عليها ، وليس إلى عائلة الجانى ، إلى ابن العمدة نفسه .

الجميع يقاطعون والدها ، يتجاهلونه ، سقطت عليه وحدته جافة خشنة وموحشة . لا أب لا أم لا عم لا خال . لا أحد سوى امرأته وابنته ، حتى هما لم يعد يستطيع التحدث اليهما أو أن ترفع احداهما عينيها إليه ، أنهم متواجدون معا طوال اليوم ، ولا يرى أحدهم وجه الآخر .

فى الفجر يتسلل اطفال القرية ، يشعلون العشة ، يصبحون فى العراء تماما ، أصبحوا منبوذين ، لا مكان لهم ، حتى بعد محاولة إجهاض فريدة بواسطة النساء العجائز .

ومن خلال لهب الحريق ينفجر خاطر موت فريدة . حتى هذا الحين كان لديه يقين مبهم غامض أن ثمة حلاً ، مخرجا ما ، فريدة وحيدته ، وكانت ركنا اساسيا فى حياته ، لكنها عاره الآن ، كل القرية ستطرده . أصبح خاطر قتلها مسيطرا عليه ، كأنه انتقام منهم ، لأن القتل لا يجرؤ عليه إلا من كان مثلهم من الأشراف ، حتى إجهاضها لم يكف لمحو العار عن ابن العمدة ، فأمر والده بإحراق العشة فى نفس الليلة التى أجهضت فيها فريدة حتى يرغمهم على الرحيل ، فى الحريق فقد شباك صيده ومغزله ، فقد كل شىء . اشار إلى امرأته وإلى فريدة أن يتبعاه . فى المساء صحب ابنته فى الفلوكة وهاهما فى النيل . . كان الألم كأسياخ الحديد فى بطن فريدة . وكانت تستعيد طفولتها ، ويعصف بها حبها لأبيها . لم يكن يدرى ما يجب أن يفعله ، لكنها قررت هى بتأثير حبها الجارف لها . بإحساسها بالمأساة ، وحتى تجنبه الأهل ، «وطغى إحساس مرير بحزن مفجع سرعان ما انبثق عن صفاء مبرق شمل روحها كله ، صفاء شفاف أحست معه بقدره كاملة على التسامح ، حتى مصطفى ابن العمدة تبرؤه من كل ما حدث . .

كانت طائرة فوق القرية والناس جميعا . أحست بهم بعيدين عنها تماما ويتولون عنها ذاهبين ، وحنين لرؤيتهم جميعا عن قرب واحساس بالحزن من أجلها على وجوههم . ودموع البكاء عليها فى عيونهم ، وتسللت دموعها مالحة على خدها . زينب وعواضة صديقتاها ستبكيان عليها . .

تنتفض فريدة ، تلقى بنفسها فى النيل لتعذى أبيها ، ولتزيح عنه العار ، لتوفر عليه آلامه ، ويصرخ الأب بجنون - فريدة بنتى .. فريدة بنتى .. »

ولكن النيل المهيب يبتلع عروسه التى قدمها اليه الأديب يحيى مختار .

إن عروس النيل واحدة من أرق وأجمل المجموعات القصصية التى صدرت فى أدبنا العربى الحديث ، ولكن أتمنى ألا تضيع فى زحام حياتنا الأدبية وغبارها الكثيف ..

* * *

عم حسين..

اعتدت حضوره ، وجوده .. وقوفه بقامته المهيبة عند مدخل كلية النصر بالمعادى . منذ سنوات . منذ أن كنت أصحب محمد ابنى أثناء دراسته الابتدائية من حلوان إلى المعادى ، بعد أن يمضى محمد إلى داخل المدرسة أقف لأتحدث إلى عم حسين لحيظات معدودات . ومع الزمن نما ود بينى وبين الرجل الذى يلزم مكانه منذ زمن طويل يتجاوز الأربعين عامًا . عاش مراحل الكلية المختلفة والتى كانت يوما وقفا على أبناء الملوك والارستقراطية . منذ أن كانت إدارتها إنجليزية بحتة حتى تمصيرها ، تعاقب المديرون عليها بدءا من المترجم القدير أحمد حاكى وحتى المديرة الحالية السيدة عفاف فؤاد . ابنة العالم الكبير محمد فؤاد عبد الباقى الذى قدم إلى المسلمين خدمة جليلة ، «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» والذى أمضى فى تأليفه ثلاثين عاما .

خلال هذه السنوات الأربعين عبر من أمام عينى عم حسين اجيال متعاقبة ، رآهم أطفالاً صغارًا فى عمر الزهور ، تفتحوا على مرأى منه وهم ينتقلون من طور إلى طور ، من سنة إلى اخرى ، ومن مرحلة إلى مرحلة ، تخرج بعضهم وسلكوا فى الحياة سبلاً شتى . منهم من سافر . ومنهم من تزوج وأتى بأبنائه إلى كلية النصر ليمروا من تحت عينى عم حسين وليحنو عليهم ويؤمن عبورهم الى الداخل ، ولا بد أن صورته انطبعت فى افئدة الآلاف من خريجى المدرسة وطلابها ، أولئك الذين تابعهم عم حسين بعينه .

الا أن عينيه بدأ الزمن ينال منهما ، وفى العام الأخير بدأت الاحظ إعياءه ، وانحناء قامته انحناءة قليلة لم تنل من مهابته وكبريائه . وكان ثمة تغير فى عينه ينال من ملامحه ، ويبدو أن هذا الورم قد لفت انتباه آخرين . منهم عفاف فؤاد مديرة الكلية ، بدأت تتصل بأولياء أمور أصبحوا أطباء ، كانوا فى الماضى تلاميذ فى الكلية ، ثم ألحقوا أبناءهم بها ، وتسابق الجميع لإنقاذ عينى عم حسين ، الدكتور عبد المنعم الرفاعى والذى درس أبناؤه الثلاثة فى الكلية وتخرجوا من الجامعة الآن . الدكتور محمد أحمد السادة ، والدكتور حسن التونى والدكتور منجى فتحى طبيب المسالك البولية الذي كان يوما ما تلميذا صغيرا ، وفى أحد الأيام لم يلحق بسيارة المدرسة فحمله عم حسين فوق كتفه وصحبه حتى البيت ، عادل عبده ابن أخ عم حسين والذى يعمل مهندسا الآن . .

- كلهم احاطوا بعم حسين على محمد حارس البوابة الرئيسية لكلية النصر ، وبذلوا الجهد اثناء رقاده فى مستشفى المقاولون العرب ، ليصح وتصح عينه اليقظة . ويعود الى مكانه عند مدخل الكلية حيث يعبر الطلبة الصغار يوميا الآن امامه ، ويقول كل منهم فى مطلع النهار .

- حمدًا لله على سلامتك يا عم حسين . .

ليلة فى الأوبرا..

عندما تركزت الأضواء فى المسرح الصغير بدار الأوبرا على خشبة المسرح . شخص الجميع الى عازف التشيللو المصرى العالمى ناجى حبشى . والعازفة الكبيرة مارسيل متى وأناملها تبدأ ملامسة البيانو .

أى حضور قوى ، أى مهارات تبدت فى هذه الأمسية ، كل منهما توحد بالآلة . كأنه جزء منها ، مكمل لها ومكملة له . فلا بيانو بدون مارسيل ، ولا تشيللو بدون ناجى حبشى . تتصاعد انغام بيتهوفن وموزار وشوستاكوفيتش ومتتاليات ناجى حبشى الشرقية فتلغى الفواصل بين الزمان والمكان ، بين الوتر والأنامل . بين الوتر والقوس .

ويصفق الجميع لموهبتين فذتين صفق لهما العالم ، فما اغزر عطاء هذا البلد . وما أرفعه ، فقط . . لو لاقت كل موهبة التربة الصالحة التى تنميها ولا تهدرها .

◇ أبيض × أبيض

فبراير ١٩٩١

.. لم يعد هناك الآن رهائن فى بغداد . والمقصود بالرهائن هم البيض طبعا ، أوروبيين وأمريكان ، فلو أن المحتجزين كانوا من العالم الثالث . من الفلبين أو من سريلانكا ، أو من الصعايدة أو المغاربة ، أو حتى أهالى نيكاراجوا أو المكسيك لما اعتبروا رهائن ، ولما صارت حولهم ضجة ، أو قلق ، فالرهينة لابد أن يكون لها قيمة ، والقيمة للإنسان الأبيض ، هذا من منظور القوى التى تتحكم فى عالمنا اليوم ، أى الغريب . ومن منظور الذين يتطلعون للحاق بهم ، أو من يلف من بعيد أو من قريب حولهم . وهذا موضوع يطول الحديث فيه ، ويتشعب . هكذا تم احتجاز الرهائن البيض كأسرى ، ولكن وضعهم لم يكن يشبه الأسرى الآخرين . صحيح أن السجن سجن ولو كان قفصا من ذهب . ولكن ترتبط الأوضاع الكريهة دائما بالسجن والاعتقال . أما الرهائن البيض فقد احتجزوا فى فنادق خمس نجوم . وأماكن مريحة ، وأحيطوا بالعناية الطبية وفى أعيادهم قدمت إليهم الهدايا ، والأطعمة الفاخرة . وتمت تلبيته طلباتهم التى كانوا يبالغون أحيانا فيها .

المهم .. أنهم بيض ، من الجنس الأبيض ، والجنس الأبيض يعنى أبناء الغرب تحديدا . فهناك بيض ولكن أقل درجة ، ليس من ناحية اللون . ولكن بالنسبة للمرتبة .

لو أن هؤلاء الرهائن كانوا من أبناء أوروبا الشرقية أو الاتحاد السوفيتى ، فهل كان سيهتم أحد ؟ . أقول بالنفى ، والدليل وجود الآف منهم حتى الآن . بعضهم وضعهم غامض ، لكن الإعلام العالمى - الذى يعنى الغربى تحديدا- لا يهتم بهم ، فدرجة

البياض أقل من حيث المرتبة ، هذا الإعلام الذى أقام الدنيا وأقعدها حول الرهائن البيض جدا ، وهم محتجزون فى فنادق فاخرة ، تتوافر لديهم الأطعمة والمشروبات البريئة والخبيثة ، لكنه لم يهتم بمصير مئات الآلاف من الغلابة الذين قطعوا الطريق عبر صحراء رهيبة من الكويت إلى حدود الأردن ، أطفال رضع ماتوا فى الصحراء ، نساء ، رجال ، معاناة إنسانية رهيبة . لم تحرك ضمير الغرب ولا الشرق . لأن الضحايا ليسوا بيضا ، وليسوا غربيين بالتحديد ، مازلت أذكر إحجام بعض الدول عن إرسال طائرات . ووسائل لنقل رعاياها الآسيويين ، وموت المئات منهم ظمأ وجوعًا فى الصحراء . تلك المأساة التى غابت تفاصيلها فى خضم الأحداث الكئيبة . وهذا ينقلنا إلى القرارات الكبرى أو الخطيرة التى تتجاهل الانعكاسات السلبية على مصائر الأفراد ، وقرار غزو الكويت يفتقر إلى هذا البُعد . إذ أضر بمصائر مئات الألوف من البشر وما يعنينى فى أحداث التاريخ مصائر البشر وآلامهم .

ولكن . . لو أن هؤلاء المضارين كانوا من الجنس الأبيض لاختلفت النتائج وردود الأفعال .

هل مات أحد البيض عطشا فى الصحراء .

أبدا . .

هل ضل أحد البيض طريقه . أو لاقى إهمالا .

أبدًا . .

وعند الافراج عنهم سافروا بالطائرات المريحة ، وبعد اقلاعها

فتحت زجاجات الشمبانيا ، وفى مطارات الوصول كانت باقات الزهور فى انتظارهم .

حتى فى خلال التنبؤات بنشوء الحرب الرهيبة المتوقعة فى الخليج تهتم أجهزة الإعلام . ووزارات الدفاع ، ومعاهد الإحصاء . بعدد القتلى والجرحى ، فثمة من يقدرهم بعشرة آلاف . وآخر يقدرهم بعشرين ألفاً .

المقصود هنا عشرة الآف ابيض غربى . أو درجة أولى ، ولكن . . كم من المنتظر أن يلقى حتفه من الطرف الآخر ؟ مئات الألوف ؟ عشرات الألوف ؟

هذا كله لايهم ، لأنهم ليسوا بيضا غربيين ، فليكونوا عربا . أو أفارقة . أو هنودا . ماذا يهم ؟

* * *

الحق . أن الغرب الأوروبى أو الأمريكى ، عنصرى فى جوهره وعندما يقولون الإنسان فالدلالة هنا للفظ تنصب عليهم هم ، ولكن الشعوب والقوميات الأخرى خارج الدائرة .

ولأن الأبيض هو الأقوى اقتصاديا ، وتكنولجيا أصبحت مقاييسه هى الأسس التى تحكم النظر وتعجل بالظفر ، فخلال انهيار الاتحاد السوفيتى . يتوجه الجيش الأحمر بأوامر من جورباتشوف ليقمع أهالى اذربيجان ، واوزبكستان وغيرهما من الجمهوريات التى يسكنها مواطنون أما أنهم سمر أو صفر أو أقل بياضا ، يسقط مئات القتلى والجرحى ، فلا يتحرك الأبيض جدًا ، أى الغرب . كما أن جورباتشوف الذى يتصور أنه أبيض ،

ويحاول جاهدا أن يجعل من الاتحاد السوفيتي تابعا للسيد الأبيض ، هل هى صدفة ان اسم مقر الرئيس الإمريكى ، الأقوى فى عالم اليوم ، هو البيت الأبيض ، حتى فى البيوت يتميز البيت الابيض أيضا ! ، المهم . . أن جورباتشوف الغربية وضعت مقاييس دفعت بالبياض إلى الأمام ، وإن كان الأمر اقدم من ذلك ، وفى الريف عندنا كان بعض العمد . أو الاثرياء . يقولون : «يا سلام لو الواحد يتزوج أرملة تركية» .

خيالهم لا يسمح لهم بتصور الزواج من بكر بيضاء فيتمنون المرأة «الرجوع» . البايتة ، التى مرت بحياة أبيض مثلها ، ولو عاش هؤلاء العمد إلى اليوم لوجدوا أن أتراك اليوم أصبحوا أقل بياضا ، وأنهم يعتبرون ملونين فى المانيا ، وفى أوروبا البيضاء جدا ، ويتعرضون للاضطهاد على الرغم من قيام الاقتصاد الأوروبى الحديث على أكتافهم .

* * *

فى التصوف فهم صوفى للألوان . والأرقام . يقول أن الأبيض أصل كل الألوان . هذا صحيح ، فالأبيض ليس بلون فى حد ذاته . لكنه سارى فى جميع الألوان .

كذلك الأسود ، أنه أيضا أصل لكل الألوان ، وربما كان أقدم ، لأن النور ينبعث من العتمة ، فالسواد إذن أصل .

لكن يجب أن ندرك أن الأبيض لا يمكن أن يكون له وجود بصفته إلا بوجود الأسود ، والعكس صحيح ، لا غنى لذلك عن هذا ، ولا غنى لذاك عن هذا . وبدرجات اللونين تتكامل الإنسانية .

هذا ما أدركه الشرق بثقافاته ، بحضاراته ، بعمقه الإنسانى

وهذا ما لا يريد للغرب الأبيض جدا أن يقتنع به ، هناك لا ينظرون إلى الأمر باعتباره تكاملاً إنسانيا ، كل تصرفات الغرب تقول إنه يقصر الإنسانية على ذاته ، ولهذا يسعى إلى إلغاء الطرف الآخر ، الى محوه ثقافيا ، إلى سحقه اقتصاديا ، إلى محقه عسكريا . وما الحروب الصليبية القديمة والحديثة إلا حلقات فى هذا الصراع . إن الحروب الصليبية التى تستهدف الشرق بمسلميه وأقباطه لا تزال قائمة . انظروا وتأملوا !

لقد كانت ثنائية القوى العظمى فى العالم تقيم توازنا تستفيد منه الشعوب ، والقوميات الضعيفة ، أما انفلات الغرب الأبيض جدا من عقاله ، وانفراده بالكوكب ، بكل ما تحويه رؤيته من عنصرية ، تسلط ، وسعى إلى محو الآخر . . ، فهذا يعنى أن العالم كله سوف يتحول إلى غابة متوحشة . حتى لو كان لونها كله . . أبيض .

* * *

ربما يقول البعض هناك التكنولجيا ، والحضارة ، والتقدم صحيح هذا اذا نظرنا إلى الآلات . والحاسبات ، وأجهزة الاستشعار عن بعد وعن قرب . لكن هذه المدينة فى جوهرها متوحشة ، الأبيض جدا داخله قاتل ، إبادة شعوب كاملة بالنسبة له أمر طبيعى لأنه لم يقم حضارته هو إلا على أنقاض حضارات كاملة .

لست عنصريا ولن أكون . . لكننى أقول ، انظروا إلى ملامحهم ، وانظروا إلى ملامحنا ، تأملوا لا إنسانيتهم وصلفهم وغرورهم . وانتبهوا إلى العمق الإنسانى الكامن داخلنا . ان ركائزنا الحضارية أعمق ، وإدراكنا الإنسانى أعظم . ونحن فى

حاجة إلى من يوقظ الوعى بهذه العناصر ، والخلاص من الدونية تجاه الأبيض مطلوبة فالقوة تجتذب الضعفاء ، واحيانا يستكين المقهور إلى قاهره . لا أدعو إلى المواجهة بمنطقهم . ولكننى أقول بالتصدى لهم دفاعا عن وجودنا وهويتنا حتى يفيقوا ويدركوا أن الإنسانية لا يمكن أن تكتمل إلا بامتزاج كل الألوان .

* * *

الأحـــد..

.. بسبب ضيق وقتى ، وشح الزمن المتاح لممارسة نشاطى الخاص ، اقصد الأدب ، حيث اكتب ساعات قليلة ليلاً ، بينما تلتهم المهنة جل ساعات النهار . بسبب إدراكى الفظيع أن ما تبقى أقل مما مضى ، وأن ما أريد أن أنجزه كثير ، ما أريد ان أقرأه ، ما أريد أن أكتبه . حقا .. إن العمر قصير والعلم كثير .

كنت أتطلع اليوم إلى بعض الكتب فوق أرفف مكتبتى ، أعمال الأديب الروسى العظيم دستويفسكى ، ثمانية عشر مجلدا ترجمها الدكتور سامى الدروبى رحمه الله ، بعض هذه الأعمال قد أقرأها مرة أخرى . بل مرات . إذ اعتدت العودة إلى بعضها بالتحديد ، ذكريات منزل الموتى ، والجريمة و العقاب ، والأخوة كرامازوف .

أثناء تطلعى إلى المجلدات المتجاورة . المتراصة . برق فى ذهنى خاطر مزعج ، وهو أننى لن أعود لقراءة معظمها . والعديد من المؤلفات الأخرى . فكأنها لم تعد موجودة بالنسبة لى ، فكأنها محطات بعيدة خلفها قطار العمر المندفع بإصرار إلى الأمام .

بسبب إدراكى لضيق الوقت أدقق جدا فى اختيار ما أقرأه لأنه لم يعد هناك زمن ممتد ، فى الماضى البعيد كنت لا أبالى ، أقرأ كل ما

تقع عليه يدى ، التهم السطور ، أعايش النص بعد أن أخلقه بخيالى من جديد ، فى صباى الأول قرأت (أحدب نوتردام) لفيكتور هوجو ، وعندما وصلت إلى مشهد تعذيب كازيمودو قارع أجراس نوتردام ، تأثرت بآلامه حتى أننى مشيت ثلاثة أيام متأثرا ، محدودبًا . وكانت خطاى متأثرة بخطى راسكولنيكوف وهو يمشى فى شوارع بطرسبورغ . الغريب أننى عندما زرت لينجراد منذ خمسة أعوام لأول مرة رأيتها بعينى دستويفسكى ، وعندما كنت أصعد السلم المؤدى إلى شقته التى تحولت إلى متحف كانت شخصياته تطالعنى ، كنت منفعلا جدا . إلى درجة أن مديرة المتحف العجوز لاحظت فأفسحت لى إمكانية الدخول إلى أماكن لا يمكن رؤيتها إلا من خلال حاجز ، ثم أهدتنى صورة كبيرة مرسومة لوجه دستويفسكى ، إنها نفس اللوحة المعلقة على واجهة متحفه . أضعها الآن تحت زجاج مكتبى ، أئتنس به ، تلك علاقة عميقة فريدة . ترى . . هل سأبلغ مدينة لينجراد مرة أخرى؟ هل سأزور المتحف مرة أخرى ؟ هل سأتخيل راسكولنيكوف بمعطفه وفقره ، وفكره فى شوارع المدينة ذات الحضور الجميل ، الراسخ ؟ لا أدرى . . ولكننى احرص على التجوال الدائم فى شوارع الجمالية . حيث كان يمشى كمال أحد ابطال الثلاثية ، تلك الشخصية التى تعلقت لها ، واندمجت فى وجدانى فكأن نجيب محفوظ لم يكتبه . إنما عرفته كما عرفت آخرين من لحم ودم ، بل أكثر . . فكم من شخصيات عايشتها وغابت الآن عن ذهنى . لقد تأثرت بكمال عبد الجواد إلى حد طبع تجاربى العاطفية الأولى .

يدركنى هذا القلق . كم تبقى ؟ وهل ما تبقى يكفى لما أنشده؟

تبزغ الآية الكريمة فى أفق وعيى «وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت» .

عندئذ أهدأ وألوذ !

* * *

الأحـــد لـيـــلا :

لضيق الوقت المتاح . لا أجلس أمام التليفزيون إلا نادرًا . ولكن البرنامج الذى أجبرنى على انتظاره والمثول أمامه ، «حكاوى القهاوى» الذى تقدمه سامية الإتربى ، ويعده يحيى تادرس . هذا بحث فنى جميل فى أعماق الشخصية المصرية ، يغوص في مجاهل القاهرة . ودروبها العميقة لينتزع الجواهر النفيسة الكامنة فى أعماق البشر ، المنجد ، المزخرف ، خراط الخشب ، المبيض ، الصابغ ، المصارع ، المنشد ، ثم يأتى دور الحوار الذكى البسيط . فى غير تعال الذى تديره المذيعة الموهوبة ، المصرية جدا سامية الإتربى فتسلط الأضواء . وتكشف الكوامن ، لا يمكن نسيان نبرة صوتها وهى تقول لشيخ المجندين . .

- ما تكلمني يا حاج . . ما تقول لى . .

ويرحل الرجل فى الماضى ، فى الحاضر ، فى المستقبل ، فى أغوار الشخصية المصرية . تحية صادقة لكل من يسهم بنصيب فى هذا البرنامج الرائع الذى يبلور العبقرية المصرية فى أبسط صورها . وأعقدها .

* * *

البرنامج الإذاعى الآخر الذى أصبحت أتوقع موعده وأنتظره «صياد فى بحر النغم» الذى يقدمه الفنان عمار الشريعى ، يذكرنى ببرنامج الدكتور حسين فوزى الذى يقدمه فى البرنامج

الثانى شارحًا أسرار الموسيقى العالمية . ولكن برنامج المرحوم الدكتور حسين فوزى كان يخاطب الخاصة فى حيز محدود ، أما عمار الشريعى فيكشف لنا جماليات موسيقانا وروائعها كم من ألحان كنت أكاد أحفظها لكننى أعدت اكتشافها بعد سماعى عمار الشريعى . إنه مثال فذ للفنان القدير ، إن فهمه للشعر ولبحوره يدعو للإعجاب . إن تذوقه للشعر يدعو للتقدير .

إننى شخصيا مدين لعمار الشريعى لأنه فتح لى عالما جديدا من الجمال . اسمعوا هذا البرنامج واحرصوا عليه .

* * *

الأربعاء:

أخرج بصحبة صديقى الأديب النوبى يحيى مختار من المعرض بعد زيارتنا الأولى ، تلك عادة نحرص عليها كل سنة ، لكننى فى هذا العام اشد حزنا واكتئابا ، الكتاب المصرى يضمحل ، هذا هو الانطباع المبدئى . العام الذى ترسب عندى .

العناوين الجديدة قليلة جدا فى كافة المجالات ، الأسعار مرتفعة لنغاية ، الوجوه الجديدة فى الإبداع محدودة ، هل يفكر أحد الآن فى واجهة الثقافة المصرية بعد عشر سنوات . أى رموز ستكون محلقة وقتئذ ؟ ، هل يوجد مناخ حقيقى الآن لمساعدتها ؟

الكتاب فى أزمة .

وما لم تتجه كل الجهود لانقاذه ، فاننا نفقد القوة العظمى الوحيدة التى نمتلكها ، الثقافة ، إن الكتاب يتداعى كما تتداعى الآثار الإسلامية والفرعونية . . فانتبهوا !

◇ تداعيات الحرب ..

فبراير ١٩٩١

.. ستظل ليلة الخميس السابع عشر من يناير ماثلة فى الذاكرة إلى الأبد ، عندما كنت ألج نومى ، تلك المرحلة التى تتميع فيها الموجودات ، وتختلط فيها الصور تمهيدا لاكتمال الإغفاءة . وقد صار النوم عسرًا ، والتوصل إليه صعبا فى السنوات الأخيرة . ربما تلك ظاهرة مصاحبة للتقدم فى العمر ، وربما لتعاظم الكدورات والبواعث المحركة لاكتئاب الفكر وضباب المخيلة . مع تزايد الأخطار المحدقة بعالمنا العربى ، وغموض المستقبل ، والتراجع عن البديهيات ، فالهموم العظمى لم تعد شخصية ، لكنها عامة فى مجملها ، ولأننى أنتمى إلى جيل شهد من النكسات والضربات منذ أن فتح عينيه على الدنيا . فقد صار الهم العام أقوى تأثيرا بالنسبة لى من الهم الشخصى .

هكذا ..

أيقظنى ابنى الذى كان مستمرا فى سهرة للفرجة على برامج التليفزيون الذى امتد إرساله تلك الليلة على غير العادة .

- بابا .. بابا .. بغداد تضرب بالقنابل ..

هرعت إلى التليفزيون ، إلى المحطة الأمريكية ، كانت خريطة للعراق فوق الشاشة ، وصورة للمراسلين الثلاثة الذين كانوا يصفون عبر الهاتف ما يجرى ، وكانت أصوات المدفعية المضادة للطائرات تهدر بكثافة . وكنت قادرًا على تمييز صوت المدفع رباعى المواسير ، الشيلكا . وهو مدفع مضاد للطائرات استخدمته قواتنا المسلحة لأول مرة فى العالم عام ١٩٧٣ بكفاءة خارقة ، واستقطعت به عددًا كبيرا من الطائرات الإسرائيلية ، وقد كان مفاجأة وقتئذ ، ولكن ثمانية

عشر عامًا مرت على حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ الآن ، أى أن هذا المدفع صار من جيل قديم . هل يمكنه التصدى لأحدث أنواع الطائرات التى تملأ ليل بغداد الآن والمدن العراقية الأخرى ، ومن بينها طائرات عملاقة اسمها ب - ٥٢ . تحمل اربعين طنا من القنابل ، أى حمولة أربع سيارات نقل ضخمة بمقطورة من مختلف أنواع القنابل ثقيلة الوزن . أى أنها جحيم صغير طائر .

خلال حرب الاستنزاف ، وحرب أكتوبر ، كانت اثقل أنواع القنابل التى اشهدتها بأم عينى . زنة الالف رطل ، والألفى رطل . كانت الطائرات الإسرائيلية تلقيها فى الصحراء فتحدث أخدودا صغيرا فى الرمال ، احيانا كانت تفجر الماء فى الأرض القاحلة لضخامة تأثيرها . ودائرة القتل المتسعة نسبيا . لابد أن هناك قنابل أشد فتكا الآن ، وأثقل وزنًا ، اذكر المنطقة بين الكاب والتينة المحاذية لقناة السويس ، كانت تقصف بهذه القنابل الثقيلة وكان مشهدا غريبا يستدعى إلى الذهن الصور الملتقطة لسطح القمر المليء بالحفر والأخاديد .

لا يمكن تخيل حجم الدمار الناتج عن قصف الطيران الذى يجرى الآن إلا لمن عرف الحرب ، وفى الحرب لا يعنينى الخطوط العامة لسير المعارك إلا بقدر رب حرب تستغرق سنوات ، وتزهق فيها أرواح بلا حصر ثم تضمحل مع الزمن فلا تحتل إلا سطورًا قليلة فى كتب التاريخ وقد تنسى بالمرة ، لكننى استثنى منها تلك الحرب الدائرة الآن والتى سوف تحدد مستقبل العالم العربى لقرون عديدة قادمة . أما ما يشغلنى أكثر فهو المصائر الفردية الآلام الإنسانية الناتجة عن جرح أصاب جسد ، أو فقد أم لابنها ، أو جسد مشوه

بتر منه طرف ، ثم ينسى امره بعد ذلك ، إنها التفاصيل الإنسانية الصغيرة الكبيرة . الدقيقة العميقة هى ما تعنينى .

هكذا . . بمجرد سماعى انباء قصف بغداد ، فكرت على الفور خلال ذلك الليل الغميق ، الكئيب فيمن أعرفهم ، فى البيانى . حميد سعيد ، حسب الشيخ جعفر ، عائد خصباك ، محسن الموسوى ، وطابور طويل من الأدباء ، من الناس العاديين الذين طالعتنى وجوههم فى سوق الشورجة القديم ، أو سوق الصفافير ، أو ازقة البصرة التاريخية .

هكذا . . فكرت أيضا فيمن أعرفهم من اصدقاء سعوديين عندما تلقيت نبأ أول صاروخ يسقط على الرياض .

حسين على حسين . رقية الشبيب ، عبد العزيز مشرى ، وغيرهم من أصحاب قضينا معهم وقتا فى ذلك المقهى القديم الذى أقيم على الطراز النجدى القديم فى الرياض خلال زيارتى الوحيدة للسعودية عام ١٩٨٦ .

يبدأ فكرى بالحومان حول من عرفتهم شخصيا ، ثم أولئك البسطاء المجهولين الذين لم التق بهم ، ولن ، والذين قد يدفن بعضهم تحت انقاض بيتى ، أو فى حفرة اصيبت اصابة مباشرة .

* * *

فى الماضى . فى الحروب القديمة ، وحتى حروب هذا القرن كان القاتل يواجه من يقتله ، من خلال الاشتباك ، الالتحام ومهما طال تمهيد القصف المدفعى ، فثمة لحظة تحين لابد منها يلتحم فيها البشر ، ولكن فى هذه الحرب الدائرة الآن تتحول المصائر

البشرية الى مجرد نقاط ضوئية على شاشات الرادار المستديرة ، المثبتة أو المحمولة جوا على متن طائرات الاواكس .

فى نقطة ما من الليل تقف بارجة أو مدمرة ، بعيدة جدا عن الهدف المرصود ، عليها أناس جاءوا من اصقاع بعيدة ، كلهم لا يعرفون تلك الأرض التى سوف يصوبون إليها صاروخهم ، الصاروخ نفسه كتلة من الاسلاك الدقيقةجدا ، بعضها ملون . وصمامات رقيقة ، واخرى غليظة ، ورقائق من الصلب والسليكون . ونظريات علمية تراكمت عبر آلاف السنين ، ومعادلات رياضية معقدة .

كائن معدنى . أصم . أخرس . أسهم فيه مجهولون من مدن بعيدة ، وديانات مختلفة ، وجنسيات مغايرة ، جرى تصنيعه فى شركات مهمتها تجارة الموت ، ومن الأرباح الناتجة عنه يثرى الأغنياء أكثر ويقتنون بخوت الأحلام ، وتقل نسب البطالة فى المجتمع الامريكى أو الفرنسى أو الانجليزى ، وتستمر الآلة الصناعية فى الاتحاد السوفيتى .

مجهول فى الليل يضغط زرًا ، مجرد زر ، عندئذ يدمدم الصاروخ ويرتجف للحظات ثم يشق الفراغ ، الفضاء ، الفاصل ما بين القاتل والقتيل ، لا هذا يعرف ذاك ، ولا توجد أدنى صلة لاحدهما بالآخر ، ولكن ينقض الصاروخ الرهيب فى اجزاء من الثانية لا تقاس بساعات معاصمنا العادية ، فيسحق اعماراً كان يمكن أن تستمر فتملأ الأرض عمرانا ، وربما يدمر بيوتا من الطين لا تقدر على مقاومة قطرات مطر غزير ، وقد يخرس أغنية . أو اشعارا . أو فكرة كان يمكن أن تثمر ، أو تاريخا كان مستمرا حتى لحظة سقوطه . هذا الصاروخ . أو تلك القنبلة التليفزيونية ، أو

الموجهة باشعة الليزر ، القادمة من المجهول الى المجهول . وهذه الطائرات ، وتلك الدروع . . ما الغرض منها الا ادخال شظية صغيرة من حديد محمى فى جسد انسان ما ، انسان لا يعرف من صوب إليه ، ومن اين جاءه الهلاك المبين .

* * *

بداية الحرب تثير الاستنفار ، تحتل الموقع الأول للأنباء ولكن مع استمراريتها يتضاءل الاهتمام . وتتراجع ، لقد بدأت محطة سى إن . . إن . . تذيع الآن اخبارا أخرى من العالم ، تتسع مساحتها كل يوم ، ولم تعد حرب الخليج تحتل المساحة كلها كما كان الأمر منذ اسبوعين . مع أن الموت واحد ، والخراب لم يتغير . والدمار ليس له نوعان أو صنفان .

* * *

هكذا . . يكتسب الإنسان عادات الحرب ، يتعايش معها . اثناء حرب الاستنزاف كان رجالنا يمارسون حياتهم العادية عند أقصى المواقع الأمامية المطلة على قناة السويس ، رغم أن غارات الطيران البشعة . والقصف المدفعى . ونيران القناصة اصبحت جزءا أساسيا من لحمة الحياة وسداها ، فى مدن القناة وقراها كانت الحيوانات تسرع بحثا عن مخبأ لها قبل سماع أصوات القصف ، ومع مرور الوقت يرتد الإنسان إلى حالته البدائية ، فينبطح إذا كانت واقفا قبل صفير القاذفة ، ويتخندق فى الحفر ، مرتدا الى امنا الأرض يلتمس فيها الحماية ، أما إذا جاءت القذيفة مباشرة . فإن الذين نجوا يقولون ببساطة «لقد خرجت من هناك وعليها الأسماء التى استشهدت . .»

فى الحرب يزداد الإيمان عمقا بان الأعمار بيد الله ، فلو ان انسانا بدل موقعه مع آخر لاصابته الشظية التى جاءت بزاوية معينة . وخلال عملى كمراسل حربى زمن الحرب ضد اسرائيل تعرضت للموت مرات عديدة بصحبة زميلى مكرم جاد الكريم ، وفى احد الأيام عام ١٩٧٠ كنا نتجه الى مدينة القنطرة وبصحبتنا صديقى واستاذى محمد عودة . عندما رأينا أحد الجنود يجرى فجأة ، ويحتمى بشجرة قصيرة جدا تبدو كعلامة استفهام فى المنطقة الصحراوية بعد ان اشار بيده الى السماء علامة وجود الطيران المعادى . صوت محرك السيارة يغطى على ضجيج وهدير الفانتوم والسكاى هوك حفره الطرز التى كانت وقتئذ مخيفة ، وتعد الآن متخلفة بالقياس إلى الطائرات المستخدمة الآن .

على الفور تركنا السيارة التى ظلت أبوابها مفتوحة وقد اكتسب جمادها المعدنى هيئة الذعر البشرى ، وكأن ما بداخلها نضح عليها ، انبطحنا ارضا ، ورقد مكرم جاد الكريم على ظهره . محاولا التقاط صورة كان يحلم بتسجيلها ، طائرة لحظة اصابتها وسقوطها ، ومكرم شجاع الى حد يثير الإعجاب والغيظ معًا !

سقطت قنبلة زنة خمسمائة رطل على بعد مائة وخمسين مترا من مكاننا ، وكان هناك خمسة من الخبراء الروس يصيدون السمك من ترعة الإسماعيلية . لن أنسى لحظات الانفجار لكن القلق الحقيقى عندى يبدأ بعد زوال الخطر ، لو أن السيارة ابطأت قليلا ، لو أننا انبطحنا قربهم ، لو أننا لم نر الجندى الذى أشار

باصبعه الى السماء حيث الخطر المحوم . . لو . . لو . . . حقا أن لو تفتح عمل الشيطان .

لكن الشعور الآخر الذى اكتسبته ، هو أننى اعيش وقتا اضافيا ، كان ممكنا أن اموت لحظة الغارة ، ولكننى نجوت ، اذن هذا زمن ممتد كان ممكنا الا اعيشه ، وفى المرة التالية لمواجهة الخطر كنت اقل ترددًا ، واثبت أعصابا . .

مواجهة الموت تشجع على الاستمرار فى تحديه ، اما الإنسان فلا حدود لقدرته على التكيف مع أعتم الظروف وافظعها حتى مع الموت المحلق . والعائم والطائر ، ويظل الإنسان فى ذروة القتال واثقا ان الرصاصات أو الشظايا المحومة ، المنفلتة يمكن ان تصيب الكافة ، جميع من حوله ، عداه هو . . وهكذا يستمر الإنسان الفرد فى المواجهة ، ويستمر النوع !

* * *

عنذ الأزمنة السحيقة وتاريخ الشعب العراقى نضاح بالدماء ، والفتن ، وكانت كل الغزوات التترية القادمة من سهوب آسيا تجتاحه فى البداية ، وما دمار بغداد على ايدى المغول بمنسى فى الذاكرة العربية ، وتاريخ العراق الحديث أيضا شديد الدموية ، دماء غزيرة سالت فى حروب شتى أسبابها شتى ، بدءا من الصراعات الداخلية ، إلى حماقات الفرد بحثا عن البطولة والدور التاريخى ، وبالتحديد منافسة مصر ودورها التاريخى . .

الآن ، مع استمرار هذه المذابح التى تتم يوميا للشعب العراقى اسأل نفسى ، هل كان الصراع على بئر للبترول يستحق هذا كله ؟

هل الخلاف على اشبار من الأرض كان يستحق هذا كله ؟ على مدى سنوات تتردد شعارات الوحدة والقومية والعروبة ثم يدفع مصير العالم العربى كله الى الهاوية بسبب الخلاف حول بئر للنفط .

إن أول ضحايا هذا الصراع الرهيب ، فكرة الوحدة العربية والقومية العربية التى نشأنا عليها ، وسوف يرث أطفالنا عالما عربيا ممزقًا تسوده الصراعات والاحقاد التى سوف تنزف لمئات السنين .

أما الشعب العراقى فسوف يزداد الما . وحزنا ، هذا الألم الطويل الذى تعكسه فنونه ، ومن استمع الى المقام العراقى احد الأشكال الأصيلة للموسيقى العربية سوف ينوء تحت هذا الندب واللطم الذى انتظم فى ايقاعات موسيقية تتضمن شجنا رهيبا . نازفاً ، تعتبر السيمفونية السادسة لتشايكوفسكى (المؤثرة) إلى جواره مرحا خالصا مع أن أهل الموسيقى يعتبرون مطلعها من أشد النغمات الما في تاريخ الموسيقى .

ستزداد تلاوة القرآن شجنا ولوعة من خلال أصوات المقرئين العراقيين ، فلمن تكون الشكوى فى مثل هذه الظروف إلا إلى السماء وبكلمات السماء ؟

* * *

مع استمرار القتال ، توالى الأيام القائمة . الحملة بعصارة من السواد كما وصفها اديبنا الكبير يحيى حقى فى حوار له مع اذاعة الرياض ، تتغير العادات ، هكذا أغير برنامج قراءتى الصارم وفى محاولة للبحث عما يثرى ويفيد قرأت مؤخرا بحثا ورواية اما البحث فاعتبره من أهم الكتب التى صدرت خلال السنوات

الأخيرة ، لتفرده ، وعمقه . اقصد كتاب «تجارة السلاح» للدكتور سامى منصور ، والغريب انه كتب قبل الحرب الحالية ولكنه يلقى اضواء عديدة على كثير من جوانبها وسوف اعرض له فى صفحة اخبار الأدب . أما الرواية فللأديب محمود الوردانى ، وقد كان مجندا خلال حرب اكتوبر . إنها نوبة رجوع التى صدرت العام الماضى ، رواية جميلة . بديعة . سأتحدث عنها فى هذه اليوميات .

ثمة عادة ملازمة للايام الحاسمة ، الاستماع إلى الاذاعات ، ثمة محطات ثلاث رئيسية ، اذاعة لندن التى تقدم تغطية واسعة لكنها لا تخلو من غرض ، مثل افساحها وقتاً لشخص غامض اسمه على سالم ، شامى اللهجة ، كان يتصل من حين إلى آخر مدعيا أنه كويتى ويتحدث من مدينة الكويت . . مع أن الجميع يعرفون ان الاتصال الهاتفى بالكويت مقطوع تماما . .

أما صوت أمريكا فالمثير فيه حجم المساحة المتاحة للآراء المعارضة للحرب ، سواء من أمريكا ، أو من العالم العربى . ولكن الإذاعة التى استعادت حيويتها تماما منذ بدأت الحرب . فهى اذاعة مونت كارلو التى تقطع برامجها وتذيع اخبار الحرب على الفور أولا بأول ، وهذه الحيوية كانت قد افتقدتها بعد غزو الكويت ، كما أنها اجرت عددًا من اللقاءات الهامة بالشخصيات العربية . وخاصة المصرية الذين القوا الأضواء على موقف مصر واخص بالذكر الحديث الذى اجرى مع الدكتور ممدوح البلتاجي والذي كان فيه واضحا ودقيقا ومقنعا الى اقصى حد . .

اذاعة بغداد تسمع بصعوبة بسبب التشويش ، لكن عند سماعها

لا تشفى الغليل ، فالبيانات نادرة مقتضبة مختصرة جدا ، وعامة ، وعلى امتداد ساعاتها لا تذيع إلا الأناشيد الحماسية .

آخر إرسال اجنبى باللغة العربية فى الحادية عشرة عندما تنهى محطة الإذاعة البريطانية إرسالها . ويصبح البحث عن محطة محايدة موضوعية صعبا ، بشكل عام هناك تعتيم على ما يجرى . .

* * *

سوف تنشر الابحاث عن افضل الاسلحة اداء ، سوف تقوم الشركات بالدعاية لادوات الدمار والموت التى تنتجها ، الباتريوت أصبح نجمًا ولكن اسرائيل كشفت جوانب قصوره سوف تتنافس الإف 16 ، مع الميراج الفرنسية ، والتورنيدو والجاجوار والميج 23 و 29 .

سوف تخوض بعض المجلات فى شخصية نورمان شوار تسكوف وباول وتشينى ، وربما تطرق الأمر إلى الأزياء وتسريحات شعر القادة . ويطال الأمر زوجاتهم . الم تنشر الصحف ان زوجة نورمان سرقت الأضواء من زوجة بوش فى الكونجرس عند ظهورها . .

سوف نقول أن محطة كذا كانت أفضل فى التغطية ، وان صحيفة كذا تفوقت أو قصرت . .

ولكن هذا كله لن ينسى أبدا أن هذا كله يصنع من آلام أم مجهولة ثكلى تندب ابنا قتل ، أو شاباً فقد احدا أطرافه أو كهلا لفظ انفاسه الأخيرة تحت الردم .

وإن هذا الإنسان ، شابا كان أو طفلا أو عجوزا ، مدنيا كان أو عسكريا . . هذا الإنسان ويا لحسرتى وأسفى . عربى . . عربى !!

◇ الحرب .. من بعيد

مارس ١٩٩١

. . قال الدكتور بيتر سمور ونحن نتأهب لركوب عربته متجهين الى الريف الهولندى . .

- أنت أول عربى ستراه الخالة . .

ثم قال :

- بالامس كنت اتحدث اليها وعندما اخبرتها أن صديقا لى سيصحبنى وأنه عربى ، أبدت خشيتها ، فقلت لها أنه كاتب مصرى . وأنه سيقدم اليك كتابه الجديد المترجم الى الهولندية بتوقيعه . .

سألت صديقى وهو استاذ كرسى الدراسات العربية والإسلامية بجامعة امستردام .

- ولكن . . لماذا أبدت الخالة خشيتها . .

قال مبتسما :

- ربما ظنت أنك تصحب معك صاروخ اسكود . .

وجاوبت الإبتسامة بأخرى ، لم أدر أيقول جدا او انه يمزح ؟ اذ ظل وجهه هادئا كما هو ، ولكننى استعدت العديد من التفاصيل التى بدأت أرصدها منذ وصولى إلى هولنده ، خاصة من خلال العرب المقيمين فى أوروبا ، تلك المشاعر العنصرية المعادية لكل ما هو عربى ، شرقى ، أحد الأعراض المترتبة على كارثة ما جرى فى الكويت ، برغم المسافة القصية والبعد عن ميدان القتال ، لكن الحرب تلقى بظلالها على كل شىء . اخبرنى قادم من الولايات المتحدة أن معدلات بيع اقنعة الغاز قد ارتفع الى حد كبير خوفا

من الحرب الكيماوية . ومن صواريخ سكود . وضحكت طبعا . . لأن مدى هذه الصواريخ محدود جدًا ، ولأن الأسلحة الكيماوية لم يظهر لها أثر ! ولكن . . ربما كان الأمر كله نتاج الدعاية المضادة في أوروبا وأمريكا لتضخيم العدو واظهاره فى حجم أكبر بكثير من حجمه الحقيقى ، حتى اذا انتهى الأمر بسحقه ، بدا للجميع أن القوى العظمى لم تكن تحارب خصمًا ضعيفا .

تذكرت جزائريا التقيت به فى الفندق ، قال لى انه كان طيارًا مقاتلا ، وانه تلقى تعليمه فى مصر خلال الستينات . وانه ما زال يذكر اساتذته الذين علموه القتال على طائرات الميج٢١ ، لكنه ترك سلاح الجو منذ سنوات وأصبح تاجرًا لقطع الغيار ، يتنقل ما بين دول أوروبا ، قال لى أنه قادم من المانيا ، وأثناء انتظاره تناول افطاره فى الفندق جاء النادل ، بعد أن أفرغ الصينية من محتوياتها امامه . قال له :

- لقد حطمناكم . .

قال لى الجزائرى انه لم يرد ، فى المانيا خرجت أكبر واضخم المظاهرات ضد الحرب ، ضمت أكثر من ثلاثمائة الف ، وخرجت مظاهرة أخرى مؤيدة للحرب ضمت خمسة الاف ، ولكن العنصرية تطل برأسها من جديد ، السبب المباشر هى الحرب والعداء للعربى لا يفرق هنا بين مصرى أو سعودى ، كويتى أو عراقى ، هناك أسباب أخرى بالطبع منها البطالة المتزايدة ، وانتهاء الحاجة الى الايدى العاملة التى جاءت من تركيا أو المغرب العربي ، واخيرا . . من مصر . فى هولنده الآن أكثر من عشرين

ألف مصرى . معظمهم من خريجى الجامعات ، ولكن المغاربة خصوصا يمثلون اغلبية التواجد العربى ، اذ ان قدومهم الى هذه البلاد أقدم ، ولكنهم يعملون فى الأعمال اليدوية ، وبرغم أنهم يفوقون الجالية التركية عدداً ، لكن وجودهم غير مؤثر أو محسوس بدرجة كافية .

نمو العنصرية المعادية للعرب انشط فى فرنسا وفى المانيا ، هناك الآن حالة هجرة مضادة واسعة من فرنسا إلى الجزائر والمغرب وتونس ، أو كما قال لى الجزائرى الذى كان طياراً سابقا . .

- الطائرات والبوابير (البواخر) كلها الآن مغمرة (ممتلئة) تنقل العرب من مارسيليا الى الجزائر والمغرب . .

* * *

وفى هولنده لا تسفر العنصرية عن مظاهر معادية سافرة ربما لأن تاريخهم طويل فى تعاملهم مع القوميات الأخرى المختلفة ، وبرغم صغر مساحة البلد ، وقلة عدد سكانه ، الآن يبلغ اربع عشر مليونا ، ولا أدرى كم كانوا يبلغون فى القرن السادس عشر ، فلنقل سبعة ملايين او ثمانية أو حتى عشرة ، ومع انطلاق الدول الأوروبية إلى افريقيا وآسيا استولى الهولنديون على مساحات شاسعة . واصبح لهم اكبر المستعمرات ، يكفى ان نعرف انهم استعمروا اندونيسيا التى يتجاوز سكانها المائة مليون مسلم ، وربما كان هذا أحد الأسباب الرئيسية التى جعلت الهولنديون يهتمون بدراسة الاسلام والأدب العربى ، مما جعل من جامعة ليدن واحدة من اعرق مراكز الاستشراق فى العالم . وخلال زيارتى إلى

الجامعة . التقيت باساتذة الأدب العربى فيها ، وطلبة الدراسات العليا ، واطلعت على كنوز مخطوطاتها العربية النادرة ، وكان الحوار الذى اعقب محاضرتى عن تقاليد القص الروائى فى التراث العربى رفيع المستوى . نفس الأمر فى جامعة اينمخن حيث يوجد بها قسم نشيط لدراسة الأدب العربى . يضم حوالى مائة طالب ، وبرأسه استاذ بارز ، تأثرت بشخصيته كثيرا ، وتقديره العميق لثقافتنا ، وهو الأستاذ ادوارد مور ، أو ادوارد عبد النور مور كما سمى نفسه ، نفس هذا التقدير العميق لمسته فى جامعة امستردام ، حيث يقوم بالتدريس الصديق بيترسيمور الذى دعانى لزيارة الخالة وزوجها فى الريف ، وأيضا فى جامعة امستردام الحرة حيث التقيت بالدكتور فام رافن استاذ الأدب العربى . .

لقد حاضرت فى روتردام أيضا ، ولاهاى ، والتقيت واصغيت . وحاورت ، عشرات الدارسين والمهتمين بالادب والتراث العربى . وكانت مناقشات رفيعة المستوى ، والاهتمام بالثقافة العربية عميقا وجاداً هنا أشير إلى نقطة هامة ، وهى اهمية الوعى بالثقافة العربية ، ان اولئك الذين اتيح لهم الاطلاع عليها والاحتكاك بها . واستيعاب منجزاتها ، اولئك تجد لديهم تقديرا عميقا للحضارة العربية . هذا شأن ايجابى يحدث دائما عند انفتاح الثقافات على بعضها ، وفى تاريخ الثقافة العربية نفسه ما يؤكد هذا ، فقد شهدت ازهى عصورها ، وأوج نهضتها عندما استوعبت التراث اليونانى القديم وتمت ترجمته إلى اللغة العربية ، ويمثل القرن الرابع الهجرى ذروة هذه النهضة ، وفى الفترات التى كان يسود فيها

التعصب ، كان الوهن يدب ، وفى رأيى أن بداية النهاية للحضارة الغربية انغلاقها على نفسها ، وتعصبها ، وتجاهلها الثقافات العريقة الأخرى فى العالم ، ومحاولة تشويهها أو طمسها ، وللأسف . . هذا هو الاتجاه الذى يبدو سائدًا فى الغرب الآن ، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وسوف يتضخم أكثر بعد الكارثة التى سببها غزو العراق للكويت ، والعنصرية ، والخوف من الشرق ، والآن تمر الولايات المتحدة بحالة مروعة من النشوة والأحساس بالانتصار والظفر ، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وتحوله إلى دولة تتسول غذائها ، وتتلقى المعونات من الجمعيات الخيرية نعم . . ان الغرب ليس كلا واحدًا ، وليس تيارا واحدًا فهناك على الضفة الأخرى من يؤمنون بلقاء عنصرى الأنسانية ، ولكن هؤلاء يبدون الآن قلة ، بل تغيب اصواتهم وتهن فى ظل الضجيج الهائل الناتج الآن بعد كل ما ترتب على احداث الخليج .

* * *

. . فى الفندق الصغير ، الهادىء ، الذى كنت اقيم فيه ، رأيت صباح اليوم الأول فتاة ملامحها عربية ، لم يخب ظنى ، الاب مصرى والأم مغربية . اعتادت أن تجيىء الى مصر شهر رمضان من كل عام . والدها يعمل فى التجارة منذ أن بدأت الحرب القى الكساد بظلاله على كل شىء وسرعان ما بارت تجارته وأصبح قعيد البيت ، اضطرت وهى الطالبة الجامعية الى البحث عن عمل . واخيرا وجدته فى هذا الفندق ، ولكن . . ليوم واحد فى الأسبوع .

الفنادق هنا أيضا فارغة ، ليست الحركة السياحية فى مصر هى التى ضربت ، ولكن أوروبا أيضا ، كنت اتأمل لوحة المفاتيح ، معظمها معلقة . أى أن الغرف فارغة ، قال احد الاصدقاء انه فى مثل هذا الوقت من العام الماضى كان من الصعب الحصول على غرفة واحدة خالية ، ولكن الحركة السياحية بين الدول الأوروبية تقلصت لأن الجميع يخافون السفر خشية الاعمال الارهابية ، أو حرصا على ادخار المال خوفا مما سيأتى به الغد ، وكانت أوروبا تعتمد على السائحين الأمريكيين . ولكن هؤلاء لم يظهر أى منهم منذ أن بدأت الحرب . انعكس هذا على حركة الطيران ، قل عدد الركاب .تقلصت الرحلات ، اصبحت ازمات شركات الطيران الكبرى مادة اساسية فى جميع نشرات الأخبار . قالت لى احدى العاملات بشركة الطيران الهولندية أنها تخشى فقد وظيفتها اذا ما استمر خوف الناس من الطائرات ، وتفضيل من يضطر منهم للسفر إلى استخدام القطارات . أما المطاعم فكانت تعانى أيضا من قلة الزبائن ، ذلك أن كثيرين تخلوا عن عاداتهم . تناول الطعام خارج البيت وذلك بسبب اضطرارهم إلى الحرص عند الانفاق خوفا من الظروف المفاجئة ، غير المستقرة .

مجال آخر فى امستردام اصابه الكساد ، سوق الدعارة ، انها علنيه هنا . وهناك المنطقة الحمراء فى قلب المدينة ، حيث تقف النساء فى ملابسهن الداخلية ، عارضات انفسهن فى فتارين ، تماما كأى بضاعة أخرى ، أما المخدرات فتقدم علنا فى عديد من المقاهى ، الدعارة لها مستويات مختلفة ، وكانت هناك مساكن

معدة خصيصا لاستقبال ابناء الدول النفطية الذين يجئيون خصيصا ، ليس سعيا وراء لوحات رمبرانت او فان جوخ او بروجل ، ولكن من أجل هذه المناطق الحمراء التى بدأت تعانى كسادا شديدا بعد الحرب .

* * *

متابعة التليفزيون وسيلة رئيسية لمعرفة الأخبار وتطورات الموقف ، الارسال لا يتوقف خلال الأربع وعشرين ساعة عبر أربعة وعشرين قناة يمكن رؤيتها هنا ، طبعا .. اتابع محطة السى ان ان ، وفى رأيى أن هذه المحطة مسئولة عن الجنون الذى يصيب بعض حكام العالم الثالث ، ولو تابعنا منذ بداية الأزمة اسلوبها مع حاكم العراق منذ بداية الأزمة لوقفنا على ذلك ، انه صورة ثابتة فى الفواصل بين البرامج ، يظهر مرة ملوحًا ، ومرة مجتمعا برجاله ، ومرة مرتديا زى التشريفة العسكرية ، ومرة مستعرضا بعض التحصينات . هذا التركيز على شخص واحد فى تلك المحطات هائلة التأثير سواء كانت سى ان ان ، او ان بى سى . أو سى بى اس ، تدير رأس الحاكم وتجعله يتصور انه أصبح عالميا او يضمن الحرص على ظهوره ، فيأتى من الأفعال ما يضمن له الظهور حتى ولو ادت إلى كارثة عظمى .

ان محطات التليفزيون الأمريكية ، واغلفة التايم والبارى ماتش والنيوزويك مسئولة عن كثير من مصائبنا .

كنت اعود مرهقا من الندوات التى تخللت اسبوع الثقافة العربية الذى نظمته مؤسسة الهجرة الثقافية العربية ، والذى عقد في

وقت حساس جدا ، اذ بدأ الاعداد له منذ عام ، كنت اعود بعد منتصف الليل واجلس امام التليفزيون الى الفجر ، انتقل من محطة الى أخرى ، اتوقف حائرًا امام البرامج الخاصة بالبورصات ، فى العالم عدة مؤشرات كانت تحيرنى ولا أفهمها ، أو جوائز فى امريكا . ونايكى فى اليابان ، وكيكى فى باريس ، هذه المؤثرات يتابعها الملايين ، تخفق قلوبهم اذا ارتفعت او اذا انخفضت ، ومن أجل ضمان ارتفاع جونز ونايكى وكيكى تخطط السياسات ، وتطير اثقل انواع القاذفات ، وتقلع حاملات الطائرات ، ويدبر الحروب هنا وهناك ، وتثار الأزمات وقد تراق دماء الآلاف من ابناء العالم الفقير ،

حيرنى هذا ، حتى جلست فى الطائرة إلى جانب رجل أعمال مصرى عائد من أمريكا عن طريق امستردام ، ولما لاحظت انه يقرأ صفحة الاقتصاد فى جريدة هيرالدتريبون المرصوصة بالارقام دقيقة الحجم ، سألتها متطفلا عما اذا كان ممكنا ان يشرح لى معنى دارجونز وبقية المؤشرات ، فقال لى انه يتم فى بورصة نيويورك مثلا اختيار خمسين او ستين شركة كبرى ويتم رصد حركة اسهمها فى البيع والشراء ، وهذه الحزمة من الشركات تسمى دار جونز ، وهنا سألته عن أولئك الشبان الذين يقفون فى البورصة ويصرخون ويرفعون أيديهم ويبدو بعضهم متشنجا ، قال لى ان هؤلاء مندوبين عن عملاء كبار ، اما انهم يشترون شعرت اننى اثقلت على الرجل فلزمت الصمت ، وان كان التساؤل مازال عندى ، لماذا

يصرخون بعصبية كما نراهم فى التليفزيون . ومن يقف فى الجهة المقابلة . ومن يسمعهم؟

* * *

فجر احد الليالى رأيت الدكتورة نوال السعداوى وهى من اشهر الأدباء العرب فى أوروبا ، كانت تتحدث بالانجليزية فى محطة هولندية ، وقررت أن اصغى اليها حتى النهاية ، يهمنى جدا ان اعرف كيف يخاطب بعض ادبائنا المعروفون فى الغرب الرأى العام هناك ، خاصة ان بعض المثقفين العرب يتملقون الغرب ويقولون له ما يرضيه حتى لو كان ضد قناعاتهم وتراثهم .

وعلى امتداد ساعة كاملة ، رأيت حوارًا عنيفا ، اسئلة عدوانية من المذيع ، واجابات دقيقة ، شجاعة . صريحة واضحة . كانت تدافع عن الاسلام ، وعن نظرته الى المرأة ، عن القضية الفلسطينية ، كانت نوال السعداوى تقول ما تؤمن به ، وليس ما يرضى الغرب ، او يحبون سماعه .. وشعرت باحترام عميق تجاهها .

* * *

فى هولنده محطة خاصة بالجاليات الأجنبية المقيمة ، تبث برنامجا باللغة التركية . وأخرا باللغة العربية . ويوم الثلاثاء من كل أسبوع يستمر البرنامج العربى حتى الفجر ، ويقدمه مذيعون مغاربة ، كما أن المواد المقدمة به معظمها من المغرب العربى ، ربما لأن وجود الجالية المغربية أقدم .

اللغة العربية تدرس فى المدارس ، ويعتبر العرب هذا مكسبًا كبيرًا ، خاصة للحفاظ على علاقة أبنائهم باوطانهم وثقافاتهم الأصلية ، ولكن يبدو هذا مهددًا الآن فى اطار روح العداء المتنامية ضد العرب . والتى تغذيها بقوة الجماعات الصهيونية ذات النفوذ القوى فى هولنده ، ولكن حتى الآن لم تتخذ اجراءات محددة ، ولكن يشكو الآباء العرب من معاناة الأبناء فى المدارس ، حيث يسبهم الأطفال الهولنديون أو يستفزونهم بكلمة واحدة فقط «ياصدام» !!

قالى لى أحد العرب المقيمين منذ سنوات طويلة . إن الكارثة التى جرت فى الخليج سوف يكون لها تأثير سلبى جدا على النظرة الى العرب ، وعلى التعامل مع المقيمين ، وسوف يمتد الأمر الى الثقافة العربية ذاتها .

* * *

أمور عديدة كانت تتداخل فى الذهن ، وتعشى البصر عن رؤية الريف الهولندى الجميل الذى كان يرقد تحت بساط الشتاء الثلجى الأبيض ، بينما كانت العربة تنطلق مسرعة فى بداية النهار متجهين إلى بيت خالة الدكتور سمور فى الريف . .

في مدرسة السلطان قايتباى

مارس ١٩٩١

إذ تتكأكأ عليّ الكدورات . .

اذ تتقاطر الهموم وتترى .

أذ اغتـرب عن الوقت . اسـعى الى زمنى الخاص و أوغل فى ذاتى ، أنفرد ، أرحل الى لحظات مولية ، منها ما عشته ، ومنها ما أتخيله . وحتى يكتمل ذلك ويتم . احتاج الى موضع . الى مكان . . مكان يمكننى أن أقعد فيه ، أن استند بظهرى الى جدار ، اصغى فيه الى اصداء الحياة اليومية قادمة من بعد سحيق ، فتشير الى ما يجرى ولا تحدده . .

وهل مثل مساجد القاهرة العظيمة ما يوفر لى ذلك . مع تجوالى فيها ، ورحيلى اليها ، وهجراتى الى ما ارتبطت به منها ، اصبحت لى أماكن أوى إليها واعتصم قدرًا من الوقت . ألوذ بالحجر !

مدرسة ومسجد وضريح وسبيل وكتاب السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى أحد قلاعى الذاتية ، اليه امضى ، وفيه أقعد ، ومنه أرتحل ، فتكتمل غربتى ، وفى الغربة يتصالح الإنسان مع ذاته .

* * *

فى طفولتى الأولى بقصر الشوق ، سمعت اسم قايتباى لأول مرة ، او كما ينطقه القاهريون الأصلاء «أيتباى» ، بالنسبة لى كان مكانا نائيا ، قصيا ، موحشا ، فيه مقابر ، يسكنها بعض الناس الذين قادتهم مصائرهم إلى هناك ، قايتباى بدأ عندى اسم لمكان مرتبط بالصحراء ، والموت ، والعدم ، والاحساس بالخطر ، والبعد ايضا ، كان احساس ببعده فى أول عمرى يساوى شعورى الآن ببعد سيبريا او آلاسكا . . فالأمر دائما نسبى . فى مدرسة محمد

على الاعدادية ، التى اصبح اسمها فيما بعد الحسين ، كان احد زملائنا يسكن قايتباى . كان اسمه اسحق ، وكنت اتطلع إليه مخفيا استفسراتى ، كيف يقطن زميلنا هذا المكان الموحش ؟

مع الزمن عرفت الموضع خلال تجوالى القاهرى ، وشيئا فشيئا نمت علاقتى به ، من خلال مؤرخى مصر العظام وحفاظ زمنها ، ابن اياس . وابن تغرى بردى . والجبرتى والمقريزى وعلى باشا مبارك ، وغيرهم ، هكذا أضيفت أبعاد جديدة ، والمكان يظل أصما بلا معنى اذا لم تربطه بزمنه ، بما جري فيه ، هكذا سرت الحياة فى الحجارة والنقوس . والزخارف ، وهكذا تتوطد الصلة بين الإنسان وما يظنه جماداً .

* * *

لنتخيل ما كان عليه المكان فى الزمن القديم ، خلاء ممتد ، فسيح . كان بعيدا عن القاهرة المسكونة الضاجة بالحياة ، ولنضع فى الاعتبار المسافات بحساب الأيام النائية ، عندما كان الناس ينتقلون مشيا ، او راكبين الدواب .

هنا .. قامت قرافة المماليك الشرقية ، والكلمة تطلق على أماكن دفن الموتى فى مصر ، كلمة لا توجد الا فى مصر فقط ، يرجع بعض المؤرخين اصلها إلى قبيلة المغافر العربية . كان يقال لهم بنو قرافة ، هذا تعليل وربما كانت هناك أصول اخرى للاسم لا ندريها الآن ، المهم أن السلطان قايتباى شرع بعد عامين من توليه الحكم عام ٨٧٢ هجرته ، فى بناء تربته .

يقول ابن اياس فى تاريخه . بدائع الزهور فى وقائع الدهور – فى أحداث ذو الحجة عام ٨٧٤ هجريه .

«وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى انشأها فى الصحراء ، وجعل بها جامعا بخطبة ، وقرر به صوفة وحضورًا بعد العصر ، وانشأ هناك عدة خلاوى برسم الصوفية وحوضا وصهريجا واشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف . .»

حقا . . ما أذكى ابن اياس ، لم يقل ان السلطان بنى مسجد أو مدرسة . انما قال انه انشأ تربة ، أى مدفنًا ، وهذا عمل لم ينفرد به قايتباى ، انما كان أول ما يشرع فيه اى حاكم يتولى حكم مصر ، أن يشرع فى بناء تربته ، والحق انه هم اى مصرى ، امير كان او موظفا او تاجرًا ، أو انسانا عاديا ، والحرص على اقتناء مقبرة لتكون مأوى ابديا من الأمور الجليلة عند المصريين ، انه المضمون الفرعونى القديم ، الانشغال بالخلود ، ليس تولها فى الموت ولكن حبا فى الحياة الدنيا وشوقا انسانيا خالدا الى الرغبة فى بقائها على هيئة عمل صالح . أو عمل جميل يضمن استمرار السيرة ، فالذكر للانسان عمر ثانى ، ولم يتغير مضمون مصر القديم وانشغالها الروحى ، والرموز فقط هى التى تتبدل ، فمن اهرام الي كنيسة إلى مسجد ، وهذا موضوع يطول الحديث فيه .

هناك . فى الصحراء التى كانت نهاية العمار ، وبداية الخلاء اقام قايتباى تربته ، وللاسف لم استدل على اسم المهندس الذى صمم وشيد هذا البناء الجميل ، فى وقائع ذو القعدة عام ٨٨٣ هجرية يقول ابن اياس ان السلطان نزل من القلعة وتوجه الى جهة القرين - بمحافظة الشرقية الآن . وكشف عن الجامع والسبيل الذى انشأهما هناك ، وكان الشاد على العمارة الأمير يشبك الجمالى .

شاد العمائر هو المسئول عن البناء ، فهل هو يشبك ؟ ربما ، وربما سجل المهندس المصرى المجهول لنا اسمه فى زاوية قصية غير مرئية من البناء . فالى الملوك والسلاطين تنسب هذه العمائر الجليلة . لكن عباقرة هذا الشعب العظيم البناء لا يذكرون انفسهم . انهم يجيئون من اعماق القوى ، ومن على ضفاف النيل ، يحملون الحجارة والاتربة ، وينقشون الجص ، ويلونون الجدران ، ثم يمضون فى صمت ، يجيئون من المجهول ويمضون إلى المجهول ، كلنا نقول هرم خوفو ، أو معبد رمسيس ، أو مسجد السلطان حسن ، أو قلعة محمد على ، لكن من يعرف منا آلاف الذين حركوا هذه الاحجار ، وهذبوها ، ورصدها ، وارتفعوا بها إلى الفراغات العُلى . من مات تحت الردم ، ومن سقط من فوق البناء .

يذكر ابن اياس حادثا عجيبا ، غريبا ، وقع اثناء حكم الاشرف قايتباى ، ذلك أن عاملاً فقيرا ، نجارًا ، سقط من فوق سقالة اثناء عمله بطباق المماليك بالقلعة ، فأمر السلطان بكفن له من ثلاث طبقات ، وصرف لعائلته الفقيرة مبلغا من المال ، ونزل وصلى على العامل الفقير ! يقول ابن اياس بالنص فى حوادث شوال سنة ٨٧٦ هجرية . «وفيه وقعت حادثة غريبة وهو أن نجارًا كان عمالا فى القلعة فى بعض الطباق فسقط من مكان عال فمات لوقته ، وكان له أولاد وعيال وهو فقير . فوقفوا أولاده وعياله بقصة للسلطان بقصة يلتمسون منه شيئا من الصدقة ، فلما وقفوا اليه أمر بهم بمائة دينار ، وأمر للميت بثوب بعلبكى وثلاثة اشرفية يجهزونه بها فعد ذلك من محاسن الأشرف قايتباى !

من حق ابن اياس ان يعتبر ذلك غريبا ، فلم تسجل لنا وقائع

التاريخ أى اهتمام باولئك الذين شيدوا هذه المبانى ، أو الذين نقشوا الزخارف ، أو كتبوا الخط ، او الذين صقلوا الاحجار ، عند زيارتى الى المبانى العظيمة أذكر اولئك المجهولين واترحم عليهم . واقرأ الفاتحة على أرواحهم . اولئك الذين لا يعرفهم احد . ولا يذكرهم أحد .

لابد ان السلطان اطلع على نموذج للمسجد قبل بنائه ، يذكر المقريزى ان ابن طولون تفحص طويلا نموذجا مصنوعا من الجلد لمسجده ، كذا بقية السلاطين والأمراء . ولابد أن مصمم هذا المسجد كان شاعرًا فى أعماقه . ولا أعرف اى مبنى فى العالم رايت فيه هذا التناسق الفريد بين النسب كما تتجسد فى مسجد قايتباى . بين القبة والمئذنة ، بين المسجد والسبيل .

لقد صمم المهندس المصرى المجهول قصيدة من الحجر . .

هذا التناسق يبدو من بعيد كما يلوح من قريب . وفى كل ساعات النهار والليل . فى تقلبات الطقس المختلفة يبدو هذا الجمال الفريد ، والذى جعل مصممو النقود فى النصف الأول من هذا القرن يضعون صورة المسجد على اثمن ورقة مالية وقتئذ . من فئة المائة جنيه ، كان الناس يقولون «الورقة ام مئذنة» ، أنها مئذنة مسجد قايتباى ، هذه المئذنة الرشيقة . التى أهيم بها اذا نظرت اليها عند عبورى طريق صلاح سالم ، او عند دنوى منها ، او عند صعودى الى سطح المسجد حيث يبدأ ولوجى داخلها . أو عند وقوفى فى أعلى شرفاتها . فارى منها الخلاء اللامتناهى . واشعر اننى أكثر قربا من السماء ، من الصفاء ، من الخالق .

للاسف الموجع . . احيط خصر هذه المئذنة النحيلة بعود من

مصابيح النيون القبيحة التى تشوهها فى الليل ، وحتى يتم اضاءتها مدوا اسلاكا كهربائية ، بعضها عار داخل المئذنة . مما يهدد بكارثة مروعة ، فقبة المسجد من الخشب . واقل ماس أو شرر يطيح بها .

أننى انبه واحذر المسئولين فى هيئة الآثار ، لعلهم يتحركون لعلهم يفعلون شيئا للمسجد الذى لم يهتم به أحد بعد رحيل الشهيد أحمد قدرى . وما نطلبه ليس بعيداً . ازالة هذه السلوك . واستبدال مصابيح النيون بنظام اضاءة من الخارج يبرز ولا يخفى ، يكشف عن جمال الأثر ولا يشوهه . . ولله الأمر من قبل ومن بعد . .

لكى نلج المسجد ، لابد أن نرتقى . . أن نصعد اليه . .

أربع عشرة درجة عريضة ، تؤدى بنا الى المدخل ، وللمداخل فى البنيان الاسلامى شأن عظيم ، فالمدخل هو الذى يفصل بين عالمين ، بين العام والخاص ، بين الوضوح والسر . بين العلانية والخصوصية ، والمدخل طبقا للتقاليد الاسلامية لابد أن يكون جميلا ، رائعا ، ولهذا تفنن الصناع فى تجميل الأبواب القديمة . ولأن المدخل أول ما تقع عليه عينى الضيف فلابد أن يتضمن بحضوره دعوة . واشهارًا بالأمان ، لذلك تكتب الايات القرآنية أو الجمل المطمئنة . المرحبة .

«ادخلوها بسلام امنين . .»

«يا مفتح الأبواب ، افتح لنا خير باب . .»

منذ عامين كنت فى فلورنسه بصحبة الشاعر الكبير ادونيس واثناء تجولنا فى شوارعها لاحظت الأبواب المتجهمة للبيوت ،

وللمنشآت المختلفة ، كانت مقابضها على هيئة حيوانات مفترسة وشياطين بقرون . ومحاربين بشعى الهيئة ، واستعدنا الأبواب المغربية التي صورتها الفنانة التشكيلية لطيفة التيجانى وجاءت لتعرضها على الايطاليين ، كل باب تحفة ، والأهم انه دعوة للسلام ، وللترحيب ، وللشعور بالأمان . . هكذا أيضا مدخل مدرسة قايتباى ، ولكن يضاف الى ما ذكرته الخصوصية المصرية ، الواجهة المرتفعة المحيطة بالمدخل تذكرنى بالمعابد الفرعونية العظمى من الخارج ، الواجهة هنا بلقاء ، والابلق مصطلح معمارى يطلق على الجدران التى كانت صفرف الحجر فيها ذات لونين .

ابيض وأحمر . أو ابيض وقاتم .

فوق الباب دائرتان محفورتان فى الحجر . انهما رنك السلطان أى شارته ، او شعاره ، أو خاتمه . أو بمعنى آخر «الخرطوش» الفرعونى القديم . أما كلمة «رنك» فاصلها فارسى وتعز لون ، كان الرنك أو الختم أو الخرطوش يطبع على سائر ما يمت للسلطان ، أو يصدر عنه ، نراه محفورا على واجهات الابنية أو منقوشا على الأبواب محفورًا ، فى الأوانى المعدنية ، على الملابس ، انه نوع من التواجد المستمر للسلطان على الأشياء والموجودات وربما كان البديل له الآن الصور التى تعلق فى كل مكان أو الظهور المستمر فى وسائل الاعلام المرئية . لكن هذا كله لا يلغى القيمة التاريخية المستمرة للرنك ، كان فى العصر الفرعونى خرطوشة مستطيلة الشكل يكتب داخلها اسم الفرعون وشعاره ، وفى العصر المملوكى أصبح دائرة داخلها اسم السلطان وشعاره . انه الختم على الأوامر ، والوسائل والمبانى . والملابس . سوف نرى رنك قايتباى

على جدران المسجد ، اعلى المدخل ، وعلى الجدران الداخلية . وعلى قاعدة القبة ، وفوق الأخشاب المحفورة .

الأشرف أبو النصر قايتباى .

عز نصره .

انه الختم الرسمى ، الذى بدونه تفقد أى ورقة مصداقيتها وبدونه لا تنتمى هذه المنشأة الى صاحبها ومؤسسها انه الختم الذى يؤكد صحة التوقيع ، مهما كانت شخصية الموقع ، ولنا عودة الى تقاليد الدواوين المصرية .

لنجتاز المدخل .

ومدخل هذا المسجد متواضع ، هامس ، مرحب ، ليس شاهقا مثل مدخل مدرسة السلطان حسن ، وليس غامضا مثل مدخل قبة المنصور قلاوون . انه مدخل صريح لا يوحى بما سنراه فى الداخل من ثراء روحى ومادى . نجد انفسنا فى مساحة توازى غرفة متوسطة . الى اليمين وفى المواجهة باب خشبى جميل يؤدى إلى السلم الصاعد إلى الكتاب الذى يعلو السبيل الموجود خلفنا الى اليسار ، وإلى السطح حيث بداية ارتقاء المئذنة لنتطلع الى سقف المدخل الخشبى ، هذه الألوان المعتقة ، المتناغمة . الكامنة فى الظلال العلوية ، عليك اكتشافها باطالة النظر الى اعلى . مرة توحى بالنجوم ، والليل ، ومرة توحى بزرقة السماء فى النهار . على الجدران لوحات من الرخام مستطيلات ومربعات منقوشة . الأرضية تتداخل فوقها الأشكال ، مدخل هادئ ،

لكن كل جزء فيه أعد بعناية ، منمنم ، وتلك سمة المكان كله .
لنمعن !

* * *

الى اليمين دهليز ضيق ، هذا الدهليز قد يطول كما هو الحال فى مسجد السلطان حسن . أو مسجد الظاهر برقوق ، أو يصبح قصيرا كما هو الحال هنا ، لكن فى كلا الوضعين يؤدى إلى الغرض نفسه . وهو عدم الدخول الى الصحن الرئيسى إلى القلب . الى المركز مباشرة . انه مرحلة الانتقال من الخارج الى الداخل ، أو من الداخل إلى الخارج من عالم إلى عالم ، ومن حضور الى حضور ، تلك سمة تميز المساجد المصرية الصميمة . بعكس المساجد القاهرية ذات الأصول الوافدة . ومنها مساجد القاهرة الأولى الفاطمية . الحاكم والأقمر ، والأزهر ، والصالح طلائع ، حيث تدخل إلى الصحن مباشرة . وعند وقوفك فى الطريق الخارجى يمكنك رؤية الداخل أو جانب منه ، فى المساجد المصرية لابد من مرحلة فاصلة ، لابد من عملية تحضير غير مباشرة يقوم بها المدخل والدهليز .

ما من مرة عبرت فيها هذا الدهليز الا وشعرت اننى ارتحل ، أو اننى انتقل من طور الى طور ، فاصل بين عالمين ، المادى اليومى بكل ما فيه من ضجيج وكدورات . ومشادات ، وصراعات سخيفة ، ومفارقات ، وبين هذا العالم الروحى الذى يتجه فيه العبد إلى ربه ، ويتضح الأمر بين الإنسان وخالقه ، انها خطوات قليلة ، لكنها تفصل الإنسان وتهيئه للدخول إلى عالم مختلف ، هل هذا السبب تبدو اصوات الشارع القريب بعيدة جدا عند

الاصغاء اليها من داخل صحنى المسجد عند دخولى الى قبة قلاوون ، اتطلع الى شارع العز عبر النوافذ الضخمة ، الطريق فى متناول اليد لكنه بعيدا جدا فى نفس الوقت . عند جلوسى مستندا بظهرى إلى جدار مسجد المؤيد والذى اعتدت ان اقرأ فيه أو ارحل بفكرى إلى هنا أو هناك . يكون الطريق المزدحم لسوق الغورية فى المدى مباشرة ، ولكنه بعيد بكل ضجيجة وصراخ باعته وزبائنه .

هذا الدهليز الفاصل يجتازه الإنسان بخطوات تنقله من عسر الى يسر . من ضيق الى فرج ، كأنه الوصلة ما بين رحم الدنيا والخروج لى عالم مغاير ، مختلف .

هكذا . . يبدأ الصحن الداخلى فى الظهور ، الألوان ، الحضور يبدأ انسدال السلام والطمأنينة على الروح ، يلوح جانب من الأيوان المواجه ، يبدأ ولوجنا الى منظومة الألوان ، والأضواء ، والظلال ، واذ نلج الصحن تماما ، نقف فى مدخله ، نتطلع إلى الأيوانات الأربعة ، ينزل برد وسلام على القلب ، هذا كون روحى مصغر ، حيث يشير كل جزء من البناء ، حجرا كان او خطأ أو وحدة زخرفية أو مقرنصة أو قطعة زجاج إلى الخالق الأعظم الذى لا تدركه العيون ولا تحيط به الأبصار .

* * *

لنصغ قليلاً الى وصف معمارى متخصص ، يقول الدكتور كمال الدين سامح :

«تعتبر مجموعة قايتباى بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل

المجموعات المعمارية فى مصر الاسلامية ويتكون المسقط الأفقى من صحن مربع محاط بأربعة ايوانات اكبرها ايوان القبلة . الجانبيان منهما صغيران وايوان القبلة يشرف على الصحن بواسطة عقد مدبب من طراز نعل الفرس كما هو الحال فى ايوان القبلة بمدرسة الظاهر برقوق بالنحاسين ، ويكتنف المحراب من جهتيه نافذتان شكلهما من الخارج داخل تجويف مستطيل الشكل ومن الداخل يظهران معقودان ويعلوهما نوافذ مدببة تملؤها اجزاء من الزجاج الملون ، وأسقف الأيوان الرئيسى من الخشب المزخرف والمحلى بنقوش مذهبة ، وقد كان الصحن فى بادئ الأمر بسقف من الخشب يعلوه منور مثمن . وبجواره أيوان الصلاة الضريح الذى يبرز قليلا عن الواجهة الجانبية ومغطى من علاه بقبة حجرية محمولة على مقرنصات مزخرفة من الخارج بزخارف نباتية داخل مناطق هندسية محفورة على الحجر» .

* * *

هذا ما كتبه الدكتور كمال الدين سامح فى كتابه «العمارة الاسلامية فى مصر» . ولن يخرج الأمر عن ذلك الوصف المختصر فى الدراسات الأخرى الحديثة . وأن كان الدكتور عفيف بهنسى قد توقف مطولا أمام المسجد فى كتابه الضخم الفن الإسلامى الذى طبع فى دمشق .

للأسف . . لا توجد صور دقيقة للمسجد يمكن أن يشتريها الزائر ، لا ملونة ولا غير ملونة ، وفى بلاد العالم المختلفة بعد او قبل الزيارة يمكن للزائر أن يجد ركنا صغيرا فى المتحف أو الكنيسة ، يبيع نماذج للمكان أو ما يضمه من تماثيل ولوحات ،

وسلايدات ، وشرائح ملونة ، وبطاقات بريد ، وكتب عن تاريخ المكان ، لماذا لا تقوم هئية الاثار بعمل منظم يستهدف بيع النماذج واللوحات والكتيبات باللغات المختلفة فى المواقع الأثرية الفرعونية والقبطية والاسلامية ، إلى جانب دلالة ذلك الثقافية فانه عمل تجارى مربح ، ولكن .. من يسمع ومن يرى ؟

اذكر بعد وقوفى مطولا أمام تمثال موسى الذى أبدعه ميكائيل انجلو خرجت إلى مكتبة صغيرة عند مدخل الكنيسة التي يوجد بها التمثال . مخصصة فقط لكل ما يدور حوله ، بدءا الكتب التى تدور حوله ، حتى بيع نماذج مختلفة الاحجام له ، وقد اشتريت نموذجا من الرخام دقيقا إلى حد كبير ، اضعه فوق مكتبى . كمصدر تحد واستفزاز ، أقول لنفسى دائما : يجب أن تتعامل مع الأدب ، مع الكلمات كما تفاعل ميكائيل انجلو مع الحجر الصلد فاوشك أن ينطقه فى القرن التاسع عشر جاء إلى مصر معمارى ومهندس وفنان كبير . انه بريس دافن . أمضى عدة سنوات ليرسم زخارف ونقوش الفنون الإسلامية من عمارة وأخشاب ، ورخام ، وجص ، ونحاس ، وجلود ، وخط .

فرنسيان جاءا إلى مصر ورسما ودرسا العمارة الإسلامية ، باسكال كوست ، وبريس دافن ، وكتابيهما يعتبران الآن من النفائس ، وقد طبع كتاب بريس دافن فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر ، ومنذ سنوات اعادت دار نشر لبنانية خاصة اصداره فى نسخة تشبه تماما النسخة الأصلية ، تتكون من نص مكتوب وثلاثة مجلدات ضخمة يصل حجمها إلى حوالى متر طولا وسبعين سنتيمتراً عرضا ويبلغ ثمن هذا الكتاب بضعة آلاف من

الجنيهات الآن ، ولكم كنت اتمنى أن يعاد اصدار مثل هذه الكتب عن دور نشر مصرية . خاصة الهيئة المصرية العامة للكتاب . ولكن . . لم يحدث هذا ، ومنذ عامين اقدم المهندس عهدى فضلى مدير عام مطابع اخبار اليوم على خطوة ذات بعد ثقافى فى مدلولها ، وتدل على حس وطنى سليم ، عندما قام اصدار نتيجتين ، الأولى تضم ست لوحات من بريس دافن ، والثانية تضم اثنتى عشرة لوحة من نفس الكتاب ، وتباع كل منها بقروش زهيدة ، وعند سفرى احمل عددا منها كهدايا الى الأصدقاء الأجانب ، ولكم يكون سرورى بالغًا اذ ألمح انبهارهم . أولا بجمال الآثار الإسلامية وثانيا بروعة الطباعة .

انتى افضل لوحات بريس دافن وأديم النظر فيها . كتاب فى متناول يدى باستمرار ، أتوقف عند مسجد قايتباى ، لأرى كيف كان يبدو فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

خمس لوحات ضمها المجلد الأول المخصص لفنون العمارة فى معظمه . ثلاث تصور المسجد من الخارج والداخل ، ولوحة تفصيلية لنقوش المئذنة وأجزائها ، واخرى لواجهة السبيل اللوحة الأولى تمثل منظرا عامًا للمسجد ، أتصور أن بريس دافن كان يقف فى نقطة تقع إلى الشرق باتجاه الشمال قليلا عندما كان برسم المسجد ، تبدو الواجهة والمدخل والسبيل والضريح والمئذنة ، الملامح الرئيسية كما هى الآن تقريبا ، ولكن المبنى الامامى المخصص للحوض والساقية يبدو فى اللوحة متصلا بالمسجد ، يصلهما جدار عريض ، أزيل ، وشق طريق ضيق يمر الآن بين المسجد والحوض . فى اللوحة بعض أحجار المدخل محطمة .

ودرجات السلم أيضا ، والركن الغربى متهدم ، هذا كله ثم ترميمه خلال حقبتين مختلفتين فى القرن العشرين الأولى ، قامت بها لجنة حفظ الآثار العربية فى بداية القرن ، والثانية فى المرحلة التى تولى خلالها الشهيد الدكتور أحمد قدرى هيئة الآثار المصرية . نلاحظ فى لوحة دافن أن البيوت لم تكن ملاصقة للمسجد ، والأرض رملية ، الآن البيوت قبيحة المظهر تطبق على المسجد من الشرق ، والأرض مرصوفة بالاسفلت !! . وأظن أن الرصف بالحجر أنسب لحوارى وشوارع القاهرة القديمة ، وقد كانت كلها كذلك ، ولكن عباقرة المحافظة ازالوا الاحجار ورصفوا الحوارى بالأسفلت الذى سرعان ما تدب اليه البثور والحفر . وللعلم . . فان أهم أجزاء العواصم الأوروبية مرصوف بالحجر ، تماما كما كان الوضع فى القرون السابقة .

تنتصب المئذنة فى اللوحة شاهقة ، شامخة ، إنها واحدة من أجمل المآذن المصرية على الإطلاق ، ولن اتعجل الحديث عنها ، فلنا عندها وقفة ستطول .

اللوحة الثانية تبين الإيوان المواجه للداخل من الدهليز ، أما الثالثة فللإيوان الشرقى ، حيث القبلة والمحراب ، الملامح الأساسية باقية حتى الآن ، وبرغم جمال لوحات دافن ، فإنها مجرد إشارة إلى صرح عظيم . فللألوان فى مسجد قايتباى منزلة عظمى .

وأعود إلى رؤيتى الخاصة للمسجد . وإلى علاقتى به .

* * *

جئت إليه مرارًا ، فى الأغلب الأعم بمفردى ، ومرات قليلة مع من أحب ، وإدراك اهتمامه بما سيرى ، وآذ ألمح انفعالاً لا أبخل بوصف كل ما أرى ، وما اعتقده من دلالات ، بعد عشرة سنوات مع مسجد قايتباى والمساجد الأخرى أزعم أننى توحدت بها . وبقدر ما تحقق لى هذه المعايش من ثراء وجدانى وروحى . بقدر ما أشعر بانعكاس هذا على عالمى الأدبى . بدءا من الأسلوب اللغوى ، وحتى المعمار الفنى للروايات ، فالفنون متصلة .

جئت إلى المسجد فى أوقات مختلفة ، صباحا ، وظهرًا ، وعصرًا ، وغروبًا ، وليلا ، وما من مرة أبلغه فيها الا أقول لنفسى عند دخولى الصحن . هذا كوكب من الضوء . منظومة من الألوان والزجاج والحجارة والخشب والعاج تحولت إلى كون صغير . مجرة من الجمال المهموس ، هذه ليست احجارًا صلدة ولكنها اشارات إلى الأصل الذى جلبت منه ، وإلى البناء الذى تكونه الآن .

الزجاج الملون يرشح ويحول ويلون الضوء القادم من الخارج ، الحروف العربية متداخلة متشابكة تطوف المكان من خلال السقف والجدران ، وحول المحراب ، العقود من حجارة . أحدها منقوش والتالى بدون نقش ، يحدث هذا التبادل نوعا من التجسيد ويضفى الحركة .

فى جدار الإيوان الرئيسى ثلاث نوافذ من الزجاج الملون المعشق بالجبس ، النافذة الوسطى على هيئة دائرة ، الزجاج أصفر ، ربما ترمز إلى الشمس .

المكان كله قائم على الجدران فقط ، على الفراغ ، ما من أعمدة ، ما من جزء مكشوف ، الصحن كله مغطى ومع ذلك

فالاحساس بالسماء يستمر قويا من خلال المساقط الأفقية التى تخلل الدهليز المؤدى ، وهذا الصفاء المدهش الذى يضفيه المكان .

مكانى المفضل للجلوس الإيوان الغربى ، المواجه للإيوان الرئيسى ، أولى ظهرى للأبواب الخشبية الثلاثة المؤدية إلى الخارج ، أرفع البصر محاولا تثبيت النقوش والخطوط والألوان فى ذاكرتى .

أما أفضل أوقاتى ، فلحظات الأصيل ، حيث يقف الموضع كله على مشارف الغروب ، ولا أدرى السبب الذى يجعلنى أصغى إلى تلاوة الشيخ محمد رفعت ، تنبع من داخلى بدون أن يصلنى صوته من مذياع أو أى مصدر آخر . ينبعث الترتيل الكريم من المكان أيضا ، من الزوايا ، والأركان القصية الظليلة التى أعطاها الفنانون نفس العناية . كل جزء أعد وصبغ بدقة رائعة .

وإذ استعيد صوت الشيخ رفعت الرخيم . خاصة عند تلاوته بعض الآيات التى أرددها دائما ،

«أيحسب الإنسان أن يترك سدى . .»

«والضحى والليل إذا سجى . .»

يغمرنى هدوء عميق ، وتلفنى سكينة – قبل أن أقوم متوجها إلى القبة التى تحوى الضريح – واصبح متأهبًا لمصالحة الوجود كافة!

* * *

لنتأهب . .

ليبدأ استعدادنا للدخول الى أقصى وأبعد نقطة فى المكان ، إلى الجزء الثالث من المسجد ، والذى يذكرنى بقدس الأقداس فى

معابدنا الفرعونية ، لنولى ظهرنا للصحن ولنمض إلى الضريح . إلى القبة التى يرقد تحتها السلطان الأشرف قايتباى .

لا شئ يوحى بالمكان الذى سنمضى إليه . مجرد باب من الخشب المنقوش ، المطعم ، لا تميزه أى خصوصية فحول الصحن عدد آخر من الأبواب ، وكثيرا ما أدخل الصحن بعد الظهر . بعد إنصراف الحارس المكلف من هيئة الآثار ، انه يغلق هذه البوابة الصغيرة بقفل فيصبح اجتيارها صعبا . لو أن شخصا يدخل لأول مرة ويجهل المكان لما خطر له أن خلف هذه البوابة الصغيرة مر صغير يؤدى بنا إلى كون بأكمله .

نجتازه اذن ، مر صغير بين جدران الصحن والقبة ، متصل بالسماء ، لا سقف ، سلالم تؤدى إلى الفناء الخلفى ، نجتاز باب القبة . وسرعان ما يغمر الروح مزيج من احاسيس مختلفة ، منها السكينة ، والخشوع ، والرهبة والرضا ، والتسليم . وخوف ناء .

نحن تحت القبة الشاهقة التى تبدو من بعيد متناسقة متكاملة مع المئذنة ، محفور عليها زخارف نباتية من نفس الحجر ، رؤيتها من بعيد شىء ، والوقوف تحتها شىء آخر .

القبة تحتها الضريح دائما ، القبة رمز ومعنى ، أما الرمز فلقبة الكون الكبرى ، لقبة السماء الزرقاء التى يحدها الأفق ويجعلها أيضا تبدو لا نهائية ، وهى معنى ، لأن الراقد تحت الضريح ، وليا من أولياء الله الصالحين كان ، أو ملكا ، أو أميرا . أو شيخا فقيها محدثا ، مضى عن هذه الدنيا ، إلى العالم الآخر ، وهذه القبة التى هى رمز للكون تعنى الابدية أيضا .

وللقباب فى المعمار الإسلامى شأن عظيم لنا معه وقفه أخرى ،

لكن الذى يعنينى من قبة قايتباى أنها نهاية مطاف فى تطور طويل ، فى قبة قلاوون يقوم البناء على أربع مداميك . واربعة أعمدة جرانيتية لابد أنها كانت جزءا من معبد فرعونى ذات يوم . ولكن فى قبتى خانقاه فرج بن برقرق ، وفى قبة قايتباى ، يقوم البناء هنا على فراغ ، على الهو . نعم . . على اللامادة ، تبدأ جدرانى القبة من الأرض مربعة وترتفع بما يوازى ارتفاع أربعة طوابق من بناء حديث ، وعند نقطة معينة تبدأ المقرنصات ، إنه الحل الهندسى العبقرى الذى توصل إليه المهندس المصرى المسلم للانتقال من الشكل الرباعى إلى الشكل الدائرى للقبة .

والمقرنص كلمة لم يحسم العلماء أصلها حتى الآن ، وإن كنت أميل إلى رأى الدكتور عبد العزيز مرزوق فى كتابه «الفنون الزخرفية الإسلامية» حيث يقول أن أصلها لفظة مقرفص للتشابه الغربى بين حنية المقرنص وبين الجالس القرفصاء ، أما فى قاموس لسان العرب فالمقرص صفة للبازى المعد للصيد أو المربوط ليسقط ريشه ، وما من صلة بين معنى الكلمة فى لسان العرب ، وشكل المقرنص المعمارى ، أما ما يقوله داياز DIEZ فى دائرة المعارف الإسلامية إن الكلمة مأخوذة عن كورنيس اليونانية أى كورنيش . فهذا تعليل واهى وكلام فارغ .

المقرنص حل معمارى إسلامى خالص ، لا تراه فى أى معمار آخر فى العالم . يتكون من وحدات متصلة ، منفصلة ، نفس القانون الذى يحكم فن الزخرفة العربية . كل وحدة مستقلة بنفسها ، متصلة بما بعدها ، يمكن أن يستمر التكرار بلا نهاية تماما كاستمرار الزمن الأزلى ، ويمكن أن تتوقف الوحدة أو الوحدات

عند أى نقطة فيكتمل الشكل الزخرفى أو الهندسى ، تماما كالزمن الفردى المحدود ببداية ونهاية ، ما من شىء يعكس المفهوم الإسلامى للزمن وللحياة كالفن العربى الذى اصطلح على تسميته بالأرابيسك .

المقرنص الواحد يشبه محرابا صغيرًا ، او جزءا طوليا منه ، تتعدد أشكاله ، يذكرنا فى العموم ببيوت النحل . فى الأركان الأربعة لقبة قايتباى تطل علينا المقرنصات الرقيقة ، المتراكمة ، فى حركة صاعدة الى أعلى . وفى نفس الوقت إذا وصلنا بالبصر إلى نهايتها يخيل إلينا أنها هابطة من أعلى إلى أسفل . المهم أنها نقطة محورية فى البناء ، مرحلة تتدرج فيها الجدران من المربع إلى الدائرى حيث تبدأ القبة التى تميل جدرانها حتى تلتقى كل جهاتها عند المركز الشاهق الذى يعلوه الجوسق النحاسى من الخارج ، وأحيانا يطل العنصر الفرعونى بشدة وإلا فماذا يعنى هذا القارب الموجود فوق قبة مولانا الإمام الشافعى أو قبتى فرج بن برقوق ؟!

ما من مرة أقف تحتها إلا وينتابنى فى البداية إعجاب ودهشة ، كيف واتت الجرأة المعمارى المصرى العبقرى بلوغ الارتفاع الشاهق بدون أعمدة ، صعد بالجدران والقبة مستندًا إلى الهواء ، إن الأمر يحتاج إلى دقة هائلة وإلى قوة خيال أيضا ، وهذا كله وراؤه طاقة من الإيمان ورؤية ، يريد المعمارى هنا أن يشعرك باللانهائية إذا تطلعت الى اعلى صوب الخالق الاعظم . . وحقا قد نجح ، فبرغم أن القبة مصنوعة من المادة ، من الحجر ، فإن الواقف تحت المركز مهما حاول فلن يدرك نهاية القبة ، هذا الفراغ الشاهق ، المنطلق من الأرض إلى العلو ، كالسهم ، لا يحد منه شئ حتى القبة

نفسها ، لا أقدر على إطالة النظر إلا لحيظات معدودات بعدها يرتد بصرى إلى الأرض متعبا ، مرهقا .

لا فائدة .. فالكينونة المادية لن تبلغ أبدا المركز والسمة .

وقد شاء المعمارى أن يشعرك أيضا بمحدودية الحياة الدنيا وقصرها ، هذا هو ضريح سلطان عظيم حكم تسعة وعشرين عاما كاملة ، وكان عصره مزدهرًا ، قويا ، ها هو تحت الأرض ، مجهول للكثيرين ، وحقا .. لكم عجبت لشعبنا المصرى العظيم ، البناء هنا رائع والقبة هائلة ، ومع ذلك لا يقف أحد الزوار البسطاء ليقرأ الفاتحة خصيصا على روح أى سلطان مدفون . وإن فعل يقول «لأرواح موتى المسلمين عامة» ، ومع ذلك فان الجموع تتزاحم حول أضرحة الأولياء والمشايخ الذين .. يجلهم الناس ، إذا أردنا أن نعرف الفرق ، فلنزور القباب التى دفن تحتها السلاطين والأمراء ، مثل قايتباى وقلاوون ، وبرقوق ، والمؤيد ، والقباب المدفون تحتها الأولياء والمشايخ ، مثل الحسين ، والسيدة زينب ، يوم الجمعة الماضى مضيت إلى زيارة أمى وأبى - رحمهما الله - المدفونين على مقربة من سيدى الليث ، وسيدى عقبة ، وسيدى ذو النون ، والإمام الأعظم الشافعى ، انتهت إليه ، جلست أمام ضريحه ، تحت قبة هائلة الجمال ، عظيمة البنيان ، مجمع للفنون الإسلامية كافة ، رحت أرقب الطائفين بالضريح ، على بعد متر واحد يقوم ضريح الملك الكامل ، والملكة شمس ، ولكن مزور الجمع أمامهما سريع ، أدركت إلى أى حد يجهل المثقفون مناشعبهم ، وأدركت إلى أى حد أفسدت النظريات علينا حياتنا إلى واقعنا الحقيقى . إلى علاقة الشعب المصرى الخاصة جدا ، والطويلة جدا بقديسيه . فراعنة كانوا أو مسيحيين ، أو مسلمين .

تحت قبة الإمام الشافعى ما تزال الحياة تتدفق ، ومجراها يسيل ، تحت قبة قايتباى يزداد الاحساس بالفناء والعدم ، ويبدو أن الملوك أدركوا ذلك ، فتوسلوا بالأولياء ليذكرهم الناس . حتى أن بعضهم كان يُدفن عند قدمى شيخ فقير صالح اعتقد الناس فيه .

على الطرف الآخر من القبة يوجد مربع داخله حجر أسود عليه أثر قدم ، يقال إنها أثر قدم سيدنا وشفيعنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وإلى هذا الأثر يسعى العشرات من البسطاء يوميا ، يقبلونه ، ويتبركون به ، وقد يلتفتون إلى السلطان الراقد تحت تربة من الرخام البارد .

* * *

كل ما فى القبة أصداء ورموز ، فالمكان رمز للأول وللآخر ، للبداية والنهاية ، للحياة وللموت ، الكلمات المكتوبة بخط عربى رائع متشابكة حول القبة ، آيات بينات ، النوافذ الملونة الموزعة على الارتفاع الشاهق ، هنا أجمل وأرق مجموعة من النوافذ ذات الزجاج المعشق بالجبس . إحدها مستديرة ناحية الشرق ، زجاجها أصغر ، رمز للشمس ؟ ربما ، بعضها داخلة اشجار خضراء ربما رمزاً لشجر الجنة . فى الأعالى ست عشرة نافذة علوية شاهقة تنتظم حول القبة الدائرية . هناك فى أقصى الارتفاع أربع . كل منها تواجه جهة أصلية من جهات العالم .

على امتداد النهار ينفذ الضوء ، ولكنه لا يصلنا فى صورته الأصلية ، إنما يلامس الجدران ملونًا ، أتأمل البقع المتداخلة والتى لا يمكن تصنيفها ، فلا هى حمراء ولا صفراء ولا خضراء إنما هى

ألوان لا وجود لمثلها فى العالم الحسى ، إنما هى شفرات يستعصى فكها لأنها باختصار . . ليست من عالمنا . .

* * *

هكذا يتحول الحجر إلى همسة . والخشب إلى صدى والكلمة إلى رمز ، والوجود كله إلى حلم .

يعلو على الضريح كرسى المصحف ، من الخشب المطعم بالعاج ، أما المصحف نفسه فيستقر الآن فى مبنى دار الكتب المصرية المطل على النيل والمعروف بالهيئة المصرية العامة للكتاب .

أخطو تجاه الضريح ، أقرأ له الفاتحة ، فلم يكن قايتباى ظالما ، ولا غشوما ، هكذا عرفته من خلال تاريخه ومن أصدق من ابن إياس المعاصر له ، وحتى نقف على بعض من ملامحة لنستعيد بعضا منه ، خاصة البداية والنهاية .

* * *

فى كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، يذكر السخاوى أن قايتباى ولد تقريبا سنة ثمانمائة وعشرين ، أحضره إلى مصر تاجر الرقيق محمود بن رستم لذلك لقب بالمحمودى ، اشتراه الاشرف قايتباى سلطان مصر ، ثم انتقلت ملكتيه إلى السلطان الظاهر جقمق الذى أعتقه ، وهكذا بدأ إرتقاء السلم المملوكى ، يذكر السخاوى أن بعض الشيوخ الكرام تنبأوا له بأنه سوف يصير ملكا ، هكذا قال له المحب الطوخى ، ومحمد العراقى شيخ خانقاه سريا قوس الذى قالها صريحة فى وجهه : استفق فإنك الملك وكن من الله على حذر وإيقان . وتلك نبوءة تعرض للقتل ، فقد كان سلاطين المماليك

يخشون الأمراء الأقوياء الذين يمكن أن يخلفوهم ويحاولون سلطنتهم تقول مصادر التاريخ أن المنجمين قالوا للسلطان الغورى ان من سيخلفه على عرش مصر يبدأ اسمه بحرف السين ، وسرعان ما بدأ الغورى يتعقب الأمراء الأقوياء الذين تبدأ اسماؤهم بحرف السين ، ويعمل على تصفيتهم خاصة سيباى نائب الشام ، ولكن الغورى لم يفكر قط فى سليم العثمانى الذى غزا مصر وحولها إلى ولاية تابعة للآستانة وقتل الغورى نفسه !

أحد الصالحين رأى حلمًا أخبر عنه ، إذ شاهد شجرة رمان عليها ثمرة واحدة فقط وقايتباى يمد يده ليقطفها . ولكن قايتباى أمره بكتمان ما رأى . . طبعا تحوطًا وحذرًا . يقول ابن إياس إنه فى رجب سنة ٨٧٢هـ ، قرر الأمراء خلع السلطان تمربغا ، ومبايعه الاتابكى قايتباوى وتلقب بالملك الأشرف ، وعندما تقدموا إليه بشعار الملك ، العمامة السوداء ، والجبة السوداء المطرزة بالذهب والسيف البداوى ، تمنع وبكى ، والبسوه الشعار غصبا ، وهو يتمنع غاية الامتناع .

لا نعرف هل كان تمنعه هذا ناتجًا عن رهبة حقيقية من المسئولية الجديدة ، أو إنه كان يتظاهر ، أى يمثل ، المهم . . أننى لاحظت أن الذين تمنعوا وبكوا من سلاطين المماليك هم الذين قضوا اطول الفترات فى الحكم ، أمضى قايتباى حوالى تسع وعشرين سنة ، ومات على فراشه وهذا أمر نادر فى العصر المملوكى ، لم تقطع رأسه ولم يخوزق ولم يدس أحدهم السم له .

بلاشك كان عصره أزهى الازمنة المملوكية وكان بداية النهاية أيضا التى اكتملت عام ٩٢٢هـ على يدى سليم العثمانى .

كان قايتباى سلطانا عظيما . يذكرنا بملوك مصر الأقدمين

رمسيس الثانى ، وتحتمس ، وأحمس . الحقيقة أن سلاطين المماليك كانوا فراعنة مسلمين ، وأنا أقصد المضمون الثقافى والسياسى الذى استمر على إمتداد التاريخ المصرى ، ولهذا تفصيل طويل !

* * *

أتطلع إلى القبر ، إلى الضريح الرخامى المهمل ، أستعيد صوت ابن اياس وهو يصف موكب توليه السلطنة :

«فلما ركب سار ومشت قدّامه الأمراء بالشاش والقماش ، وركب الخليفة عن يمينه ، وسار حتى طلع من باب سرّ القصر الكبير ، فلما طلع جلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض ، وذلك يوم الاثنين سادس رجب من السنة المذكورة ، قيل ولى الملك وله من العمر أربع وخمسون سنة . .»

يبدأ إذن عصر قايتباى ، وتصل الفنون فيه إلى مستويات رفيعة هذه القبة شاهد عليها هذا التناسق . هذه الرقة التى تعتبر طابعا للمكان كله ، خلال سنوات حكمه بدا قايتباى كبنّاء عظيم انتشرت منشأته فى مصر والشام والحجاز ، ويضيق المجال عن حصرها ، لكن أهمها بلا شك هذا المسجد ، وقلعته الشهيرة فى الإسكندرية القائمة حتى يومنا هذا والتى قامت على أنقاض منارة الإسكندرية وإعادة بناء المسجد النبوى الشريف فى المدينة المنورة بعد الحريق الذى شب فيه ، وما زال البناء الذى شيده قايتباى يشكل النواة الأساسية للمسجد ولشخصيته المعمارية ، عديدة وهامة منشأت قايتباى المعمارية ، كثيرة تحكى تفاصيل الأحداث التى تخللتها مدته ، ونصل إلى النهاية مع ابن إياس إذ يقول :

«فلما كان يوم الأحد سابع وعشرين ذى القعدة من سنة إحدى وتسعمائة ، فيه كانت وفاة الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى توفى إلى رحمة الله تعالى فى ذلك اليوم بعد العصر وبات بالقلعة ، وأخرج صبيحة يوم الأثنين ثامن عشرينه فتوفى وله من العمر نحو من أربع وثمانين سنة ومات بعلة الدبلة ، واعتراه علة البطن أيضا ، وأمتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعه وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرين يومًا ، بما فيه من مدة انقطاعه عن توعك جسده .

يقول ابن إياس إنه عاش عمره كله وهو فى عز وشهامة ، من حين كان خاصكيا إلى أن بقى سلطانًا ولا نفى قط ، ولا تقيد ولا سُجن ، وكان عليه سكينه ووقار مهاب الشكل فى العيون ، جميل الهيئة ، مبجلا فى موكبه ، كفوا للسلطنة ، وافر العقل ، سديد الرأى . عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأشياء فى محلها .

حسنا يا شيخنا العظيم ابن إياس . . فلتستمر فى سردك ، ولأقرأ أنا الفاتحة على روح السلطان الذى دونت هذا عنه ، فقد أصبح تحت تراب هذه القبة ، وأنت أيضا فى مكان ما من هذه الأرض ، ما زلت أجهله ولم أستدل عليه ، ولكننى أترحم عليك قبل تأهبى للصعود الى المئذنة ، أقرأ على روحك الفاتحة ، فكلنا مصيرنا إلى هذه الرقدة الأبدية وحسن الحظ من سيذكره الناس يوما ، ومن أجل هذه الذكرى قامت هذه القبة ، وذلك المسجد ، وانتظمت هذه الفنون كلها .

◇ فوتوماتون ..

ابريل ١٩٩١

. . صورة صغيرة .

أربعة فى ستة ، قديمة ، بدأت ألوانها تتغير منذ زمن بعيد لتكتسب هذا اللون الحائل الذى يقف على حواف الألوان المختلفة . فلا هو أصفر ، ولا بنى ، ولا أحمر ، ولا أخضر .

إنما هو لون لا يمكن تحديده . أو تعيينه . أو ارجاع نسبه إلى لون مميز ، تماما كالزمن ، كالوقت الذى نرى إعراضه ولا ندرك جوهره. نلمس آثاره ولا نفهم كنهه .

حوافها تأكلت ، أضعها تحت زجاج مكتبى ، فى موضع يمكننى العبور بعينى عليها اذ أجلس اليه ، متسائلا بين الحين والآخر . .

«أحقا هذا أنا؟ »

صورتى أم صورة شخص آخر كان يسعى يومًا ؟ ماذا يربطنى بها؟ أى صلة ؟ أى ؟

* * *

إنها أقدم صورى ، ربما التقطت فى نهاية الخمسينيات بالتأكيد قبل عام ألف وتسعمائة وستين ، أقدم ما وصل سالما من صورى القديمة حتى هذه اللحظة ، إذ فقدت كافة ما التقط لى من صور قبل عاما ألف وتسعمائة وستة وستين . كنت حريصا على الاحتفاظ بصورى القليلة ، والتطلع إليها بين الحين والحين . محاولا تذكر اللحظات التى تم تثبيتها من الزمن . منذ بكورة عمرى وهاجس الوقت يلاحقنى فى البال الآن ، وكيف أصبح وأنا آدنو من الخمسين ، وقطار عمرى يوشك على دخول العقد السادس؟

كنت أضع صورى تلك فى مظروف أصغر ، لم أكن قد امتلكت ألبوما بعد .

أذكر من بينها صور المدرسة الابتدائية . فى نهاية كل سنة يصطف الفصل بأكمله فى فناء مدرسة عبد الرحمن كتخدا الإبتدائيه بقصر الشوق ، المبنى مغلق الآن آيل للسقوط . خرب ، وما من حاولة لانقاذه مع أنه كان من دور القاهرة القديمة المشهورة .

كنا ننتظم فى ثلاثة أو أربعة صفوف متدرجة ، لا يخفى أحدنا الآخر ، وفى منتصف الصف الأول مقعدين أو ثلاثة يجلس إليها الناظر والمدرس الأول وأحد مدرسى الفصل ، أذكر الشيخ مصطفى . غاب اسمه الثانى عن ذاكرتى المثقلة . المجهدة ، كان شيخا مهيبا . عميق الحضور يسكن حارة درب المسمط ، إذ أره خارجًا منها اتوارى مختفيا عن انظاره فى الطريق ، لم يكن قاسيا فلا أذكر إنه ضرب زميلا لى ، ولكنه كان عميق الصوت . قوى المهابة . ترك عندى أثرًا ، إذ علمنى كيف أمسك الكتاب بين أصابعى بشكل صحى ، وحتى الآن كلما اتخذت هذا الوضع يمر من أمامى ، أحيانا مسرعا ، ومرات أخرى متمهلا .

كان الشيخ مصطفى أستاذا للغة العربية . كان يتوسط مقدمة إحدى هذه الصور . كم تمنيته تأملها الآن ، استعادة ملامح زملائى .

صورة أخرى لأسرتنا فقدتها ، كان والدى - يرحمه الله - يصحبنا للنزهة فى الحدائق والمتاحف ، وإذكر إنه حدثنا عن نافورة جديدة تطلق الماء إلى أعلى مصحوبة باضواء ملونة ، وذات عصر خرجنا قاصين ميدان التحرير . وانبهرنا بالنافورة ذات الأضواء الملونة وجلسنا فوق دكك الرخام المحيطة بها ، وطال وجهى رذاذ مائها . ثم جاء رجل يرتدى حلة صفراء ، ويحمل آلة تصوير ذات ثلاث سيقان خشبية . وافق أبى ، دس المصور رأسه فى قماش طويل يشبه الكم الضخم .

إنها الصورة الوحيدة لنا معًا من هذا الزمن الآمن ، الجميل ، ربما التقطت فى عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين ، ربما بعد ذلك . ولكم كنت أتمنى أن أعلقها فى أقرب مكان . فكل ما لدى من صور الراحلين العزيزين لا يزيد عمر أقدمها عن عشرين عاما خلت! لكن هذه الصورة ضاعت أيضا .

كذلك صور أخرى لرحلة قمت بها إلى الأقصر عندما كنت طالبًا فى مدرسة العباسية الثانوية الفنية ، كنت عضوا فى فريق الكشافة ، وسافرنا إلى الآثار الفرعونية والى أسوان ، وصلنا الى موقع الاحتفال بتفجير أول شحنة ديناميت فى مشروع السد العالى ، ضغط الزر جمال عبد الناصر ، والملك محمد الخامس ، ورئيس عربى ثالث لا أذكره الآن .

وصلنا إلى الموقع فى اليوم التالى مباشرة . التقطنا صورة وهذه ايضا فقدتها .

نعم ..

فقدتها ، وفقدت كافة صورى الملتقطة لى قبل التاسع من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وستة وستين . كذلك كافة الصور التى خصت شقيقى إسماعيل ، وأبى وأمى ، لم ينج من الزمن القديم إلا هذه الصورة فقط ، الصورة الصغيرة «الفوتوماتون» . وقبل أن أتوقف عندها ، لابد من ذكر الظروف التى فقدت فيها صور الزمن الأول ..

* * *

فجر التاسع من أكتوبر ، عام ألف وتسعمائة وستة وستين .

دوت طرقات عنيفة على باب شقتنا الصغيرة فى حارة درب

الطبلاوى بقصر الشوق . حدث ذعر فى البيت البسيط الذى لا يتوقع شرًا مباغتا ، وقد أورث هذا الذعر شقيقى الأصغر على مرض الصرع الذى استمر معه حتى الآن ، وعالجه الصديق الدكتور عادل صادق منه لمدة ثمانية عشر عاما متصلة ، بكل ما ترتب عليه من مضاعفات . حتى حصل أخى على ليسانس الآداب منذ أعوام قليلة .

لن أخوض فى التفاصيل . فالمرارات داخل نفسى كثيرة ولست بساع إلى نكأ الجرح الآن .

دخل ضابط يرتدى قميصا ونبطلونا مدنيا ، يتبعه اثنين مخبرين ، اتجه كل منهما الى غرفة ، وبدأ التفتيش كانت مكتبتى تحتل صوانا واحدًا فقط قديما اشتريته من تاجر أثاث قديم بخمس جنيهات وقتئذ . كانت تضم حوالى خمسمائة كتاب . وكشاكيل تحوى مذكراتى ومخطوطات قصص ، وثلاث روايات لم تنشر ، وصورى ! بعد تفتيش دقيق دام اكثر من ساعتين ، كانت المضبوطات عبارة عن نثار ذكرياتى ، وصور تشير إلى لحظات منقضية . وثلاث روايات مخطوطة لم تنشر فقدتها إلى الأبد ، وحوالى خمسة رزم ورق أبيض مسطر ، فلكى أكتب مطمئنا لا بد أن أحتفظ بعدد من هذه الرزم والغريب أننى كنت أتذكر ما سلب منى خلال أيام حبسى الانفرادى الذى دأم اكثر من شهر فأحزن على هذا الورق الأبيض نفس حزنى على مخطوطات رواياتى الثلاث الضائعة .

لم ينج إلا هذه الصورة الصغيرة «الفوتوماتون»

* * *

ربما بدأ نظام التصوير السريع فى الخمسينيات . حيث يمكنك أن تحصل عى الصور بعد دقائق . بدون رتوش . فى شارع أم الغلام القريب من مسجد مولانا وإمامنا الحسين افتتح ستوديو علق إعلانا ملونا كبيرا ، عن آلة التصوير الحديثة وكان الثمن زهيدا جدا .

داخل الاستوديو عقال عربى ، وقبعة رعاة البقر ، ولحية مستعارة ، ومسدس ، وخنجر ، وغطاء جلدى لعين قرصان .

اخترت عقالا عربيا ، ملون بالأحمر والأصفر ، مازال أصل اللونين واضحا ، ومسدسًا . ها أنذا أشهره ، لكن فى وجه من ؟ هل كنت أستعيد وضعا لنجم سينمائى ؟ أم أتخيل نفسى بديلا لبطل إحدى القصص البوليسية التى كنت ادمن قراءتها ؟

لماذا أبدو جادا ، بل . . غاضبا ؟

شقيقى إسماعيل الى جوارى ، مبتسمًا ، طفولى الملامح ، يتحدث فى سماعة هاتف وهمية ، ويمسك كتابا مفتوحا ، إحدى قصص أرسين لوبين ، كنت أصحبها معى وأظن أننا خشينا تركها فى الخارج ، لأن آلة التصوير تشبه الدولاب لابد أن تدخل إليها ، ومثلها متطور يوجد الآن فى مطارات العالم وشوارع المدن الكبرى للحصول على صور سريعة تلزم للجواز ، للبطاقة ، مقابل وضع قروش قليلة فى خانة صغيرة .

أعود إلى تأمل الصورة .

كم بقى من هذه الملامح عندى ؟ ، إلَمَ تمت الىّ ؟ أتعرف على شقيقى إسماعيلَ أكثر مما أتعرف على نفسى ؟

ما الذى يجمعنى الآن بهذه الصورة ؟

وإذا ما قدر لهذا الصبى المطل منها ان يخرج وأن ينطلق فماذا سيقول لى ؟

وماذا سأقول له ؟

هل سيسألنى عما فعلته به ؟ عما سببته له ؟ ، كيف سأجيبه؟ بل إذا مضى وجلس إلى جوارى ، وحاورنى ، هل سأتعرف عليه ، هل سأدرك ذاتى التى كانت ؟ إننى لأمعن النظر إلى صورة (الفوتوماتون) التى نجت من عوامل الدمار ، ومن الاعتقال السياسى ، وأتساءل وأنا عظيم الشجا . .

«أين ذهبت هذه الأيام ، أين؟ » .

* * *

صورة فى الفرح..

فى السجن ، فى المعتقل ، تتشابه الأيام ، والوجوه ، يخلو الواقع من الأطفال ، من النساء . من الطيور المحلقة فإذا رأيناها فإنما من خلال القضبان . تحط لفترات وجيزة جدا ثم تسرع بالطيران ، لم أر عصفورا بنى عشه قط فى سجن القلعة الرهيب الذى أصبح الآن متحفا .

بعد انتهاء التحقيق ، نقلونا إلى معتقل طرة . مكان بعيد ناء وقتئذ ، كل ما كنا نسمعه من علامات الحياة الدنيا صفير قطار بعيد كان يعبر الأفق المجهول عند الثالثة فجرا .

يوما ما استيقطنا لنجد صورة طفل جميل ، أبيض ، غزير الشعر فى العنبر الذى ضم اثنين وسبعين معتقلا سياسيا ، باختصار شديد يمكن القول انهم زهرة أدباء الستينات ، ويكفى أن أذكر منهم ، سيد حجاب ، يحيى الطاهر ، صلاح عيسى ، جلال السيد ، محمد

العزبى ، أحمد العزبى ، فوزى جرجس ، محجوب عمر ، غالب هلسا ، يحيى الطاهر ، الأبنودى وغيرهم . .

بشكل ما نجحت فريدة زوجة على الشوباشى فى توصيل صورة وحيدها نبيل الذى لم يتجاوز عمره بضعة شهور إلى الأب المعتقل ، وضعه بجواره ، وشيئا فشيئا صارت الصورة محور اهتمام المعتقل و ليس فى عنبر اليساريين فقط ولكن من الوفديين الذين هتفوا للنحاس باشا فامضى كل منهم ستة وعشرين شهرا ، أو من الإخوان المسلمين الذين كان عددهم بالآلاف .

أصبحت صورة نبيل تذكرنا بالعالم الإنسانى الذى أجبرنا على الإبتعاد عنه .

ضعنا لها اطارًا معدنيا من علبة حلاوة طحينية فارغة ، وصار موضعها فى مكان بارز بجوار «فرشة» والده فوق الأرض . مرت الأيام وكبر نبيل ، وفى عام ١٩٧٣ انتقل مع والديه إلى باريس ، حيث يعمل الآن والده فى وكالة الأنباء الفرنسية مسئولا عن القسم الثقافى ، أما والدته فهى الإعلامية البارزة فى إذاعة مونت كارلو الناطقة باللغة العربية . تخرج نبيل من الجامعة ، وقدر العودة إلى مصر والعمل فيها مع أن كافة الظروف تعينه على البقاء فى باريس . الأسبوع الماضى احتفلنا بزواجه فى ليلة جميلة شهدها نجوم الأدب والفن والسياسة فى مصر ، جرى الفرح فى قاعدة جميلة مطلة على النيل قرب المعادى ، وطوال الفرح كنت أنظر إليه ، وأتأمل ملامحه التى تخطو بعمره نحو الخامسة

والعشرين ، وأتذكر صورة الطفل ابن الشهور المعدودات والمستقرة الآن فى شقة والديه فى باريس ، داخل الإطار المعدنى نفسه الذى اشتركت فى صنعه . تلك العلامة الجميلة فى عالم قاس انتهت أيامه . وخلفت ما خلفت . ولكن تلك الصورة تبدو فى الذاكرة كزهرة جميلة نبتت من قلب الصخر القاسى .

الأربعـــاء :

أحرص صباح كل أربعاء على لقاء أستاذنا مصطفى أمين ، والإصغاء إلى فيض ذكرياته الخصب ، وهو من أعظم الحكائين الذين أصغيت إليهم ، يحول كل حادثة مرت به إلى قصة متكاملة الأركان . اليوم بعد جلوسى دخل مدير مكتبه ليقول أن هناك شخصا جاء من مكتب الدكتور (. . . . .) ، وذكر اسم مسئول كبير ، يحمل رسالة عاجلة هامة . وعندئذ أو مأ الاستاذ سامحًا له بالدخول .

المظروف أزرق ، عليه عبارة بالأحمر ، سرى وشخص . . هام جدًا ، جدت عينا الأستاذ على الخطاب المكتوب على ورق أزورية- أزرق فاخر ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة . .

كان الخطاب عبارة عن تهنئة بعيد الأضحى المبارك ، تهنئة وصلت متأخرة حوالى أسبوعين ، ربما لهذا السبب حمل المظروف عبارة . سرى جدا .

هكذا ..

تمضى الأعوام ، وتتنأى الأيام ، بينما تحل الذكرى فى موعدها . وقد كانت يوما ساطعة ، جليلة ، ولأن كل أمر مصيره إلى النسيان . فتبهت ملامحها حينا وتشتد حينا ، كم من أيام تمر علينا الآن فى صمت ، وقد كان حولها يوما نذير باندلاع المظاهرات ، وترديد الهتافات «الاستقلال التام أو الموت الزوءام» . وتنطلق الرصاصات يوم ١٣ نوفمبر ، عيد الجهاد الوطنى ، ويموت طلبة فى عمر الشباب ، وإن نسيت الذاكرة الجماعية اسماء المجهولين منهم ، فقد خلد أستاذنا نجيب محفوظ رمزاً لهم ، هو فهى عبد الجواد الذى صرعه رصاص الإحتلال الإنجليزى .

٩ مارس ..

٩ سبتمبر ..

١٣ نوفمبر ..

٢٣ يوليو ، ١٨ يونيو ، ٦ أكتوبر ..

أهى مجرد أرقام يسلبها الزمن القاسى المعنى والدلالة وقد تثير عند البعض عكس ما أضرمته يوما عند اجيالا بأكملها .

أرقام أم معانى ؟ ، حروف أم أيام من معاناة وتضحيات وتقرير مصائر .

بالنسبة لى . بالنسبة لجيلى . بالنسبة لمن جاء مثلى من أعماق الشعب المصرى ، أقول إنها ليست أرقاما مجردة وليس يوم إجازة

يمكن أن يلغى غدا أو بعد غد ، وليس اسما لشارع يلغيه محافظ بجرة قلم .

أقول إنه تاريخنا العام والشخص . ٢٣ يوليو الذى يحل اليوم . والعالم غير العالم ، ولهول ما يجرى من متغيرات فى الكون أكاد أحيانا أشعر أننى واحد من أهل الكهف !

* * *

٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

أتممت سبع سنوات من اقامتى فى العالم . وقفت فى ذلك العصر فوق سطح بيتنا فى حارة درب الطبلاوى ، كان أفق القاهرة فسيحا ، وشفافا . ومن الجمالية كان يمكن رؤية أهرام الجيزة . كنا نتطلع إلى أسراب الطائرات الحربية التى تحرق فى سماء القاهرة ملهبة خيالنا الطفولى ، قام الجيش بالثورة ، خلع الملك ، فاروق الأسطورة الذى كنا نتناقل الحكايات الخرافية عنه أثناء لعبنا فى الحارة من ذلك قدرته على ابتلاع خروف كامل فى وجبة واحدة وقوته الهرقلية . وكان البعض منا يتساءل : هل يقضى الملك حاجته مثل بقية الخلق ؟

سمعت الست روحية جارتنا تقول إن الجيش سيخفض الأسعار وتذكرة الأتوبيس ستصبح بتعريفة (أى خمسة مليمات وتلك عملة منقرضة الآن)

لا أذكر من السنوات السابقة على ٢٣ يوليو إلا شظايا وزارات متعاقبة تغيرت فى فترة وجيزة . حسين سرى ، نجيب الهلالى . احتراق القاهرة وألسنة اللهب تضىء الأفق انسحاب العمال

المصريين من معسكرات الإنجليز في القناة معركة الإسماعيلية وتصدى الشرطة المصرية لجنود الاحتلال ، كان والدى يعيد قص تفاصيلها في لحظات صفوة ، ويتغنى بموقف الضابط الشجاع مصطفى رفعت هذا الماضى الذى يبدو بعيدا الان مجرد بقايا ضوئية تسفر عن موقف هنا وهناك . مثل فيلم قديم لم يبق منه إلا لقطات صالحة . اما الأخرى فاصبحت معتمة . تلك هى الذاكرة . وقوانينها الخفية . إذ ألاحظ فى السنوات الاخيرة وميضا مفاجئا يضيء لحظات ظننت اندثارها . وأوقات ابتعدت تماما .

بعد ٢٣ يوليو بدأ التكوين . .

* * *

مركز شباب الجمالية .

حضرت افتتاحه ، ساحة مفروشة بالرمال ، خطوط الجير تحدد وتؤطر ، مدرجات تزدحم بالناس ، بالونات منفوخة فوق الأرض يفرقعها فرسان يرمحون بخيولهم . منصه بعيدة عنا . محاطة بقماش السرادقات ، لافتات معلقة ، يصل الضباط فيعلو هتاف وتصفيق . أذكر قول أحد الجالسين . .

«سيزرعون تلال الدراسة أشجارا . .»

يقف جمال عبد الناصر ليخطب ، بعد سنوات عديدة وأثناء تقليبى مجلدات الأخبار القديمة قرأت نص الخطاب ، كان معظمه مكرسًا لمهاجمة الشيوعية .

أصغى الآن إلى خطب مسجلة لعبد الناصر ، خطب القيت فى أيام عشتها ، فى لحظات مررت بها ، يوم حادث المنشية أثناء

سرده التاريخ الطويل قبل إعلانه تأميم قناة السويس . صيحته الشهيرة . سنقاتل .. سنقاتل ، من فوق منبر الأزهر ، هذا خطاب تلقيته عنه مباشرة وكان عمرى وقتئذ أحد عشر عاماً ، سمعته يقول إنه باق في مصر ، وإن أولاده فى القاهرة ، وإنه لن يرحل ولن يرحلوا إلى أى جهة ، وسرت فى الصفوف همهمة . وصيحات جهاد تردد صداها بين الأعمدة الرخامية فى ساحة الأزهر ، نفس الفراغ الذى ردد صيحات الجهاد ضد الصليبيين والفرنسيس والإنجليز كان ذلك ظهيرة جمعة . ميدان مسجد الحسين القريب مزدحم بالمتطوعين . بمسكين بنادق (لى انفيلد) القديمة . الزمن نوفمبرى ، خريفى ، عناوين الصحف تعلن أن بورسعيد دفعت ضريبة الدم .

لم أر عبد الناصر إلا من موقع المواطنين المتزاحمين فى الشارع ، منتظرين موكبه ، كان حضوره قويا ، بهيا ، طاغيا على كل ما عداه ، أعتدنا انتظاره فى العيدين بعد صلاة العيد في مسجد مولانا الحسين . كان ظهور ثلاث دراجات بخارية إيذانا باقترابه ، يركب إحداها صول ضخم ، لا أدرى كيف عرف الجمهور اسمه . ينادونه «عم على» ، وكان ظهور عربه مصورى الصحف تعنى اقترابه هو ، كان يطل من العربة المكشوفة . لا ألمح إلا مشيب فوديه ، أو تلويحة يده ، ومع ذلك ينصرف كل إنسان وكأن عبد الناصر لوح له هو ، وصافحه هو .

كانت ثورة يوليو ولا تزال تعنى التحرر الوطنى ، والعدل الاجتماعى ، لولا الثورة لما اتيح لى فرصة التعليم ومثلى ملايين ، لولا الثورة لما اتيح فرصة التقدم لقطاعات واسعة من هذا الشعب ، كان زعيم الثورة منحازاً للأغلبية لبسطاء الناس ، وقاده حلمه

بالعدل الاجتماعى إلى الصدام بقوى أكبر منه وأعتى ، من هنا كانت يونيو ١٩٦٧ ، وبعد رحيلة تعرض وما زال لهجوم وحملات تجريح وتشكيك ، ليس هو المستهدف كشخص ، ولكن ما يمثله من قيم تتمثل فى محورين أساسيين الكرامة الوطنية ، والعدل الاجتماعى ، بعد هزيمة عرابى ، عدلت المناهج الدراسية ، واستنفر المؤرخون المحليون والمستوردون . وصف أحمد عرابى بما لا نتصوره من نعوت وسباب ، وبعد عودته من المنفى خرج يوما لى احد مقاهى المنصورة فقابله شاب لم يع ايامه جيدا ، بصق فى وجهه ، وقال له إنه السبب في الاحتلال ، حزن عرابى . ومضى الى بيته ولم يخرج منه إلا ميتا . وتمضى سنوات طوال حتى يصدر مؤرخ وطنى عام ١٩٤٨ كتابا يحاول أن ينصف فيه عرابى . وسرعان ما يصادر كتاب محمود الخفيف ويمنع . إلى أن ينشره رجاء النقاش فى الستينات ، ومع ضراوة هذه الحملة لم ينس الشعب المصرى أحمد عرابى ، وظل يردد «الولس كسر عرابى» ، ولم يغب عرابى عن الضمير الوطنى .

اليوم ، بالضبط تنقصنى تسعة وثلاثين عامًا ، تبدأ الثورة عامها الأربعين ، اتذكر قول عامل بسيط يوما وانا أجادله فى رأيه حول عبد الناصر . قال لى :

«شوف يا بنى ، لو لم يفعل شيئا سوى أنه أمن العامل البسيط مثلى على رزقه لكفاه . . قبل ثورة يوليو كان يمكن لأى موظف أن يقذف بى إلى عرض الطريق بلا ضمان . . بلا أمان . .

* * *

هكذا أحاول إستعادة المعانى ، والصور ، فهذا تراثى الشخصى ، وتراث وطنى أيضا . ولأن المواجع عديدة . ألجأ دائما إلى الشعر ، أستعيد قصيدة صلاح جاهين . .

وقف الشريط فى وضع ثابت
دلوقت نقدر نفحص المنظر
مفيش ولا تفصيلة غابت
وكل شىء بيقول وبيعبر
من غير كلام ولا صوت
أول ما ضغط الموت
بخفة وبجبروت فى يوم أغبر
على زر فى الملكوت
وقف الشريط فى وضع ثابت
دلوقت نقدر نفحص الصورة
انظر تلاقى الراية منشورة
متمزعة لكن ما زالت فوق
بتصاع الريح اللى مسعورة
وانظر تلاقى جمال
رافعها باستبسال
ونزيف عرق سيال على القورة
وف عنفوان النضال
وقف الشريط فى وضع ثابت
انظر إليه شوف قبضته السمرة

وعـــيـــونه ثورة مكحلة بثـــورة
وصـدره عـرض الأرض حـاضن مـصـر
والشـام وليـبـيـا وتونس الخـضـرة
والقــــصـــــبــــة وفلسطين
والأردن المـــــــــســـــــــكـــــين
والبـحـر والبـسـاتين والصـحـرا
وف عــــــز طـحـن الـسـنين
وقف الشـــــريط فـى وضع ثابت
انظر وشـــوف ع المهل بالراحـــة
الشـمس وسط القـبـة قـداحـة
وناس بعـيـد فى الظل مـرتاحـة
ومـصـر واقـفـة صـبـيـة فـلاحـة
على كــتــفـــهـــا بلاص
فـــيـــه الف تقب رصـــاص
والميـــــه منـه خــــــلاص
شــــلالهـــا فى الرمل غـــاص
صـبـيـة حلوة كـأنهـا تفـاحـة
لـكـنـهــــا م الحــــزن دابت
وسط الســـواد ندابة نواحـــة
ولما هل بطلهـــا فى الســـاحـــة
بـالحـب والاخــــــــلاص

وقف الشريط فى وضع ثابت
خلى المكنجى يرجع المشهد .
عايز أشوف نفسى زمان وأنا شب
داخل فى رهط الثورة متنمرد
ومش عاجبنى لا ملك ولا أب
عايز أشوف من تانى وأتذكر
ليه ضربة من ضرباتى صابت ؟
وضربه من ضرباتى خابت
وضربة وقفت بالشريط فى وضع ثابت ؟
قال المكنجى : رجوع ما فيش
عيش طول ما فيك أنفاس تعيش
وبص شوف
ركن الشباب صفوف صفوف
ركن الشباب فى السينما بيصفر
مفيش وقوف
ركن الشباب فيه الف مليون شب
ومش عاجبهم لا ملك ولا أب
انظر إليهم
وأنت تتذكر ..

نقـــول لمـــين:

يأتى هذا العرض المسرحى الجميل ليكون بمثابة ريح طيبة من زمن المسرح الجاد ، الممتع ، الأصيل ، فى كل ليلة تمتلىء مقاعد مسرح السلام تماما وتضاف مقاعد أخرى ، ليشاهد المتفرجون عرضًا جادًا ، ممتعا ، فى زمن تسف فيه العروض المسرحية بشكل مذهل ، لكن أهم ما فى مسرحية (نقول لمين) ، هى قدرة المخرج فهمى الخولى عى تقديم مواهب جديدة اكتشفها فى صفوف الشعب ، مما يثبت قدرة هذه البلد الولادة ، المعطاءة .

فى فضاء المسرح يتردد كل ليلة صوت جميل ، رائع ، قوى ، فتاة من الإسكندرية اسمها ماجدة إبراهيم ، تنشد كلمات محمد الصوان وألحان حمدى رؤوف ، إنها اكتشاف حقيقى يعيدنا إلى زمن الأصوات الجميلة القوية ، أتمنى ألا يضيع فى زحام الحياة ، ولغات شرائط الكاسيت .

أما موهبة صفوت حجازى الذى يقوم بدور (ابوح) فتدعو إلى الإعجاب . إنه موظف بشركة النصر ، كذلك مجدى السباعى الذى يقوم بدور السلطان .

إن القيمة الحقيقية لهذا العرض ، هو امكانية تقديم مسرح الدولة لعرض راق فنيا ، ممتع بما احتواه من عروض غنائية وموسيقية ، واكتشاف مواهب جديدة خصبة . لهذا أقول للفنان فهمى الخولى . .

والله زمان . . زمان المسرح الجميل !

يوليو - ١٩٩١

الأحد - الغردقة..

إنه هو . .

نفس السائق الذى قاد الأوتوبيس السياحى الضخم منذ أسبوع . جئنا بصحبته ، كان هادئا . راسخًا طوال الساعات السبع التى يستغرقها الطريق من ميدان التوفيقية وسط المدينة إلى آخر شاطئ مدينة الغردقة كان يتطلع إلى المرآة المعلقة فوقه ، تكشف له المقاعد كلها . يداعب الأطفال ، ويبتسم للركاب القلائل ، إذ لم يكتشف المصريون بعد شاطئ البحر الأحمر كمصيف ، عندما علم صديقى مصطفى نبيل بسفرنا قال إن الناس تتجه شمالا وأنت تتجه جنوبا .

تبدو المنطقة هنا مثالية صيفا ، مع أن الموسم النشط يبدأ فى الخريف ، ولكن جفاف الهواء وندرة التلوث وهذا الفضاء الرحب ، والطبيعة الخاصة جدا ، حيث الجبال الفريدة ، مدببة القمم فى الأفق الغربى ، والبحر والممتد بزرقته اللازوردية الصافية ، والليل غزير النجوم تجعل المكان مثاليا . إضافة إلى ندرة الزحام ، على شاطئ القرية التى اعتدناها عدد قليل جدا على شاطئ ، لا يتجاوز أصابع اليدين . معظمهم أجانب ، وبالتحديد من ألمانيا . لقد اكتشفوا المكان منذ فترة مبكرة إذ يجيئون صيفا وشتاءاً ، يستمتعون بسطحه وعمقه فمعظهم يمارس رياضة الغوص . وعلاقتى بالبحر الأحمر غريبة ، فمنذ حوالى ربع قرن كتبت رواية قصيرة عنوانها (الزويل) نشرت عام ١٩٦٩ ، حول اختفاء شابين كانا فى رحلة إلى شاطئ البحر الأحمر النائى ، وصفت المنطقة

بجباهلها ووديانها بدون أن أراها ، تخيلتها ، ولا أدرى حتى الآن مصادر تخيلى وعناصره ، فى عام ١٩٧٠ ، وفى ذكرى معركة شدوان مضيت إلى الغردقة بصحبة زميلى مكرم جاد الكريم ، فوجئت أننى وصفت المنطقة وكأننى خبير بها ، بالضبط رأيتها كما تخيلتها بالطبع كانت الغردقة وقتئذ مركز مواجهة عسكرية مع إسرائيل ، ساحل يمتد أكثر من ألف كيلو متر ، كان تأمينه مهمة صعبة ، ولكنها ليست مستحيلة أمام قواتنا المسلحة التى وضعت خطة محكمة قطعت بها رجل الجيش الإسرائيلى . كان الشاطئ ممتدًا ، خاليًا ، مكان القرى السياحية الجميلة القائمة الآن كانت حقول ألغام ، أما المدينة نفسها فلم تكن إلا مجموعة من البيوت الفقيرة للصيادين قرب الميناء ، وبعض المبانى المتواضعة للموظفين ، لم يكن هناك إلا فندق واحد فقط هو الشيراتون الذى تم بيعه فى الأسبوع الماضى بخمسين مليون جنيه فقط !

لم يكن هناك أى فندق قطاع خاص ، إلى أن جاء فى السبعينيات شقيقان من المنصورة ، بدأ احدهما فى بناء قرية تعد الآن من أشهر القرى فى الساحل ، كان الناس ينظرون إلى البناء يرتفع يوما بعد يوم ويتعجبون من هذا المستثمر المصرى الذى يرمى نقوده ومدخره فى الرمال ، ولكن مع الزمن ثبت صحة رؤية رأس المال الوطنى عندما يتوجه الوجهة الذكية ، الصحيحة ، تتجاوز عدد القرى السياحية الآن الخمسة وعشرين ، وما زال العديد منها تحت الإنشاء . وبدون مبالغة ، أتصور أن الأمور إذا مضت بشكل صحيح فإن ساحل البحر الأحمر سوف يصبح من مناطق السياحة الأولى فى العالم .

أعود إلى سائق السيارة . محمد عبد السلام الأتربى .

* * *

فى الخمسين . كأى إنسان مصرى بسيط يفتح قلبه إذا ما أنس من محدثه ودًا . كنت مشغولا بهذا الوقت الطويل الذى يمضيه وراء مقود العربة . سبع ساعات من القاهرة يصل إلى قرية الياسمين فى الثانية والنصف ظهرًا يتناول الغذاء . ويتمدد لمدة ساعة ، قد يغفو ، قال لى أن المتعب عادة لا ينام ، لكنه يسترخى فقط ليريح جسده . ثم يعود للسيارة ، فى الرابعة تماما يتحرك إلى القاهرة ، سبع ساعات أخرى ، يصل فى الحادية عشرة مساء ، قال ضاحكا . .

- إلى أين تظننى سأمضى بعد أن أوصلكم ؟

تطلعت اليه متسائلا ، قال . .

- إلى كفر الشيخ . .

جراج الاتوبيس هناك ، حيث مقر شركة وسط الدلتا التى تؤجره لإدارة القرية ، أسرته مقيمة هناك .

- يعنى أنت فى الصباح تكون قادما من كفر الشيخ . .

- نعم . .

- طبعا ستنام غدا طوال اليوم .

استمرت ابتسامته الطيبة .

- لا . . عندى شغل . .

قال إن هذه المسافة عادية بالنسبة له . قاد السيارة مدة أطول . عندما ذهب فى موسم الحج إلى السعودية . ألفان وخمسمائة كيلومتر قطعها مرة واحدة . عدا بعض الوقفات القصيرة . .

قال إنه اشترى كيلو فول سودانى مملح من محل بجوار سيدى أحمد البدوى بطنطا ، ونصف كيلو ليمون بنزهير ، إذا شعر بالتعب يمص ليمونة . أو يأكل بعض الفول لأن الملح يعوض العرق .

- والتعب ؟

- المهم الطريق .. إذا فكرت فى التعب تتعب لكن إذا فكرت فى الطريق والذين معك تصل ..

قال إنه ليس سائق نقل ، يمكنه أن يركن العربة بجوار مقهى أو فى أى مكان ويغفو ، إنه مسئول عن أرواح معه ، فيهم عجائز وأطفال ، المهم أن يصلوا سالمين .

- وطبعا ربنا بيساعد ..

أشار بأصبعه وعينه على الطريق الطويل ، حيث الجبال من جانب ، والبحر من الجانب الآخر ، إنه خبير به ، بانحناءاته ، ومرتفعاته ، قال ..

- لكن اليوم اثنان فى الركاب قرفونى ..

فى الطريق حدث عطل بإحدى عجلات السيارة ، والعجلة الواحدة ضخمة جدا ، نزل بمفرده وبدأ فى اصلاحها ، بعض الركاب عرضوا المساعدة ، شكرهم ، ولكن اثنين أبديا تأففا ، وقالا إنه مسئول عن وصولها فى الموعد المحدد ، قال أحدهما وكان أكثرهما حدة إنه يريد أن ينزل البحر اليوم ، كان طويل الشعر ، يرتدى شورت نصف أحمر والنصف الأخر أزرق ، وحول معصمه أساور ذهب ، وفى أصابعه خواتم ذهبية . كان يرتدى نظارة قاتمة . ويبدو قاموس حديثه مبتذلاً ، بعد أن أتم عبد السلام اصلاح

العجلة بمفرده وتمدد فوق الأسفلت الساخن ، وامتلأت يداه بالشحم . تطلع فى الراكب المشاغب ، علمته التجربة أن يصمت عن كثير ، فالطريق ملئ بالبشر ، ومن يسافر يرى ، فما البال بمن يمضى معظم عمره عليه ؟ خيل إليه انه يعرف ملامحه .

يهيأ لى أننا تقابلنا قبل ذلك ..

تطلع اليه المشاغب مبديا الأهمية ، بنفس إيقاع بعض الذين يقودون السيارات عندما يخاطبون جنود المرور المساكين صارخين «أنت مش عارف أنا فين ؟ طيب وريني نمرتك» ، وفى الأغلب الأعم يكون هذا الشخص لا قيمة له على الاطلاق .

المهم ، ظل عبد السلام يتطلع إلى المرآة ، محاولاً تذكر الملامح ..

- انا نتأكد انى قابلتك ناحية أحمد حلمى ..

هز المشاغب رأسه ..

- أنا ؟ أبدا .. أبدا ..

فجأة . برقت صورته فى ذهن عبد السلام ، وهو يقف وراء حلة الكشرى الكبيرة . ممسكا بالطبق . يضع المكرونة فوق الأرز ، ثم البصل المقلى والصلصة بخفة ومهارة ..

- عرفته صاحب محل كشرى ناحية الموقف .. قرر عبد السلام أن يذهب إليه ، وأن يلتقى به ويذكره بنفسه فيما بعد ، لكن المشاغب لزم الصمت فى العربة منذ أن أصغى إلى اسم المكان الذى ينتمى اليه .

الرجل الثانى كان عجوزاً ، يبدى التأفف والضيق من الرحلة من

السيارة ، من الطريق ، من العطل المفاجىء ، من الكون كهله ، لم يجادل عبد السلام . .

* * *

يعود إلى الحديث عن مكة ، عن أداثة الفريضة .

- كل اللى ربنا رزقنى به فى مكة اشتريت به حاجات لأولادى . . وللمدام . .

إنه أب لأربعة . توأم .

- ظلا ماشين معا حتى الثانوية العامة ، تفوقا باستمرار ، بعدها افترقا ، الأول دخل التجارة والثانى إلى الحقوق ، تخرجا فى العام الماضى ، الثالث فى الثانوية العامة . .

سكت لحظة ثم قال بخجل . .

- ومنذ سنتين ونصف جاء طفل جديد . .

قال إنه لا يسهر خارج البيت ، وقته فى كفر الشيخ يقضيه مع الأسرة ، ينام مبكرا ، يصحبهم ليتعرفوا على أعمامهم حتى لا يحدث لهم ما جرى له ، إذ كان أشقاء والده أحد عشر ، عند وفاته فوجىء ببعضهم جاءوا للعزاء ، لم يكن يعرف بعضهم ، خاصة أبناء العمومة ، قال إنه اعتاد أن يناقش أمور العائلة كلها معهم ، إذا أبدى أصغرهم رأيا سديدا يأخذ به . .

- ولكنه تغيب عنهم كثيرا . .

- المدام هى المنظمة لشئون البيت كلها ، حصلت على بكالوريوس خدمة اجتماعية ١٩٧٠ ، لكنها تفرغت تمامًا للبيت . .

فى الطريق الذى يمضى عليه أحيانا ثلاثة أيام مستمرة . عدا وقفات هنية ، قصيرة ، يفكر دائما فيهم ، ما الذى سيرجع به إليهم ، ما هى حاجاتهم ، ليس له من متع الدنيا نصيب ، متعته الكبرى أن يرضيهم ، أن يلبى احتياجاتهم المعقولة . .

- والحمد لله ربنا طرح لى البركة فيهم . .

عند وصولنا كنت أفكر فى الدعاوى القائلة إن الإنسان المصرى لا يعمل إلا نصف ساعة فقط فى اليوم ، وكنت أفكر فى أمور اخرى كثيرة لم أفصح عنها لعبد السلام الأتربى ، أنما ودعته صادقًا . .

- الله يستر طريقك . .

* * *

زرت سيناء . . شاطئ خليج العقبة بعد استرداده من إسرائيل مباشرة توقفنا مطولا امام الفنادق التى بنيت كلها فى ظل الإحتلال ، كنا نتأملها بامعان ، يغيظ لأننا لم نبن مثلها من قبلها ، وباعجاب لبساطتها ، نفس الإنطباع قاله لى سعد حويدق أحد رواد الاستثمار الوطنى هنا ، قال إنه انبهر عندما رأى الفنادق التى بنتها إسرائيل ، ولكنه كان موقنا أن الخبرة المصرية يمكن أن تقيم الأفضل والأجمل ، فى بلدته المنصورة كانت الفنادق تدار بالأجانب ، خاصة اليونانيين ، وعندما بنى أول فندق يديره مصريون حرص على الانضباط فى كل شىء . قال الناس ، إنه شأن الأمور فى مصر ، تبدأ حسنة ولكن لا نستمر ، كل غربال وله شدة ، ولكن المستوى استمر ومضى الزمن مشى الخواجات وبقى المصريون فى هذا المجال .

الآن تبدو بعض المنشآت السياحية المصرية التى بنيت برأس مال وطنى كأنها تحف معمارية ، مدن صغيرة جميلة ، فيها يتمثل التراث المعمارى الطويل لمصر الذى يحكمه الذوق والجمال والفن ، أما الفنادق التى بنتها إسرائيل فكانت عبارة عن مبانى سابقة التجهيز ، يلعب العنصر الأمنى فيها الدور الأول ، فالنوافذ ضيقة جدا ، والمواقع مختارة بعناية فى حضن الجبل ، وفى بعض الأحيان تدير ظهرها للبحر كما فى مبانى مدينة شرم الشيخ التى قامت زمن الإحتلال . هذه المبانى تتوارى الآن خجلا ازاء العمارة المصرية فى خليج العقبة أو على ساحل البحر الأحمر فى الغردقة لقد رأيت قرى مشابهة فى يوغسلافيا ، وتونس ، وبلغاريا ، وأقول بصدق إن المنشآت اتى بنيت بخبرة مصرية تفوق تلك بكثير ، ومن هنا يجب تشجيع رأس المال الوطنى فى هذا المجال ، لهذا لا أفهم دخول بعض الشركات الأجنبية أو بيع مشروعات ناجحة بثمن يعد بخسًا ، كم تساوى الخمسين مليون جنية التى بيع بها شيراتون الغردقة ؟ حوالى خمسة عشرة مليون دولار فقط ، أى ما يساوى ثمن مبنى صغير أسبانيا أو جنوب فرنسا .

إن مستقبل هذه المنطقة يجب أن تعطى فيه الأولوية لرأس المال الوطنى الذى اكتشفها سياحيا وغامر وكسب المغامرة كما أرجو أن تقام منشآت فندقية من المستويات الأقل . نجمة أو نجمتين ، حتى تتنوع الفئات التى تتوجه إلى تلك المنطقة الفريدة ، سواء من الخارج أو الداخل ، كذلك الحفاظ عى الطابع المعمارى الأصيل الذى مازال غالبا على المنشآت ، أرجو ألا يحدث فى البحر الأحمر ، ما حدث فى مرسى مطروح ، فشاطئ مرسى مطروح

من أجمل شواطىء العالم ، ولكن المدينة أفسدها البناء العشوائى غير المخطط ، هذا ما أرجو تداركه فى البحر الأحمر .

* * *

الشيخ ملاك..

فى عام ١٩٧٠ . . ركبنا لنش حيد من ميناء الغردقة إلى جزيرة شاكر (شدوان سابقا) ، مررنا بجزيرة الجفتون الكبرى . فوجئت بقائد المركب يرفع يديه ليقرأ الفاتحة موليا وجهه جنوب الجزيرة ، لزمت الصمت حتى انتهى . دفعنى فضولى أن أسأله . قال إنه عند مروره الجزيرة لا بد أن يقرأ الفاتحة للشيخ ملاك ، إنه مدفون فى الجزيرة الصخرية الكبيرة المحاطة بالشعاب المرجانية ، التى يلزم للوصول إليها مدة ساعة وربع بمركب سريع .

من هو الشيخ ملاك ؟

وما الذى أتى به إلى هذه الجزيرة المهجورة ؟

لم يخبرنى أحد بمعلومات شافية عنه ، عندما ركبت قاربا سريعا بعد واحد وعشرين عاما ومررنا بالقرب من الجزيرة ، قال لى قائده بعد أن قرأ الفاتحة إن الشيخ ملاك كان بحارًا وله مولد كل سنة ، ويجئ أناس كثيرون إلى الجزيرة للاحتفال به . بعضهم يأتى من مسافات قصية بعيدا عن الغردقة يتكبدون مشاق السفر للاحتفال بالشيخ ملاك الذى كان يوما ما بحارًا يسعى .

هل يعتبره الصيادون والبحارة هنا شيخهم ؟ هل هو وليهم ؟ ولا أدرى ، لكننى قرأت له الفاتحة ، واحساسى يرف حائما حول أحد الأسرار الدقيقة لهذا الشعب العريق .

◇ السر.. فى الحقيبة..

يوليو ١٩٩١

. . لا أذكر عنوان الكتاب الذى قرأت فيه عن رجل كان يعقل ستة شهور ، ويجن الشهور الستة الباقية . فى الشهور الأولى هو إنسان عاقل تماما ، ومع بداية النصف الثانى من السنة يصاب بحالة من الجنون فلا يعرف غده من أمسه ، ولا اسمه من رسمه مع اننى لا أذكر اسمه . فإننى أفكر كثيرا هذه الأيام فى تلك الحالة . وأدعو الله ألا يصيب بها اثنين فى عالمنا على وجه التحديد . وهما السيدان ، جوربا تشوف . وبوش ! الحق أن قلقى شديد بعد أن قرأت عن تلك الحقيبة التى تحوى الشفرة النووية ، التى تردد الحديث عنها فى وسائل الإعلام عقب محاولة الإنقلاب الهزلية التى اتخذت حجة . ووسيلة لتصفية الإشتراكية فى وطنها الأول كما كان يطلق على الاتحاد السوفيتى سابقا .

الحق . . الأحداث جسام . إلى درجة أن طاقة انفعالى المحدودة إنسانيا لا يمكنها استيعابها .

الشيوعيون مطاردون ، تتعقبهم الأجهزة ، ويجرى التشهير بهم اين ، ليس فى أحد بلدان العالم الرأسمالى ، أو فى العالم الثالث ولكن فى موسكو . فى الاتحاد السوفيتى .

ترى . . ما هو الآن رأى بعض الماركسيين الانتهازيين الذين هللوا سنوات ونظروا وبرروا للبيرستوريكا ، وللثورة الجديدة مازلت أذكر ملامح أحدهم وهو يتحدث فى اجتماع عام عن الثورة الإشتراكية الخلاقة الثانية ، كان ذلك فى موسكو منذ عامين . عقب اشتراكنا فى مؤتمر للسلام اكتشفت منذ اللحظة الأولى أنه تحت السيطرة الصهيونية الكاملة . ماذا يقول أمثال هذا . وأى تبرير سيخرجون به علينا ؟ آخر رأيته فى ندوة يخطب مهاجمًا

ستالين ، وبلغ به الانفعال أن احمرت وجناته ، وتوترت عروقه ، ودق المنضدة مخاطبا الطلبة العرب معلنا أن ستالين قتل ستين ملونا من الشعب السوفيتى ؟

وتساءلت وأنا اسمعه . ماذا بينه وبين ستالين ، وكم كان عدد الشعب السوفيتى أثناء حكمه . وهل نسى هذا الماركسى المتلون أن أكثر من عشرين مليونًا قتلوا فى ميادين الحرب ضد النازية وهم يهتفون بحياة ستالين الذى قهر الفاشية . وهل نسى أنه بنى قوة عظمى من لا شىء لقد قام مجد العالم الرأسمالى على استعمار الآخرين ، ونهب ثروات الشعوب المسماة الآن متخلفة ، ولكن بناء الاتحاد السوفيتى كان من خلال العمل فقط ، وأثناء عملية حصار رهيبة ، نعم .. حدثت أخطاء فادحة ، ولكن ألا يذكر هذا لستالين الذى يلعن صباحا ومساءاً ويضرب به المثل الآن على الفظاعة والبشاعة ؟ ، والآن بدأ الهجوم على لينين نفسه الذى لم يكن يسمح بتسمية أطفال جدد باسمه على أساس أن الاتحاد السوفيتى لم ينجب إلالينين واحد !

حقا .. ويل للمهزوم ، إن كان حيا أو ميتا . أما التاريخ فلا حقيقة فيه ، كل الحقائق فيه نسبية . محكومة باللحظة الآتية .

وأعود إلى الحقيبة التى تحوى الشفرة النووية .

* * *

ترى ما شكلها ؟ أهى حقيبة عادية . مثل تلك التى أحمل فيها أوراقى ، سامسونايت ؟ جلدية ذات ارقام ؟ ، هل تمسك باليد بواسطة مقبض عادى . أم انهاء صغيرة توضع فى الجيب .

حـتى الآن لا نعـرف على وجـه التـحـديد شكل حـقـيـبـة جورباتشوف أو تلك التى تخص بوش .

المهم أن مصير العالم . مصير الكوكب الذى نعيش فيه مرتبط بهذه الحقيبة . من خلال الشفرة التى تحتويها يمكن لرجل واحد أن يطلق صواريخ القوة النووية الاستراتيجية للاتحاد السوفيتى ، أو أمريكا . وهذه الشفرة يمكن أن تطلق الصواريخ العابرة للقارات أو المتوسطة المدى ، المتمركزة فى صوامع أرضية ، بواسطة هذه الحقيبة يمكن اطلاق تلك الصواريخ سواء كان أفراد اطقمها بجانبها أو بعيدا عنها .

طبعا الجانب الآخر سيرد على الفور ، وإذا علمنا أن الاتحاد السوفيتى فقط يمتلك حوالى ثلاثين ألف رأس نووية ، لأدركنا أن هذا العدد يكفى لتدمير الكوكب الأرضى عدة مرات ، فما البال عندما ترد الحقيبة الأخرى الموجودة عند السيد بوش على الحقيبة الأولى ؟

أى أن مصير العالم كله ، مصير الحياة البشرية التى قد تكون هذه الوحيدة فى الكون مرتبط بلمسة أصبع من بوش . أو جوربا تشوف .

ماذا لو أصيب أحدهما بتلك الحالة ، عقل ستة شهور ، وجنون الستة الأخرى ، وماذا لو ان المدة توزعت على أيام السنة فيجن يومًا ويعقل يومًا ، أو ساعة وساعة ؟ ، ماذا لو أن الجنون من النوع الهادئ الذى يصعب اكتشافه ؟

لنفترض ان تلك الحالة صعبة ، لكن ماذا عن الأحوال الإنسانية العادية ؟

ربما غضب جورباشوف من زوجته رئيسا لسبب ما . ربما ضغطت عليه أو سببت له ألما نفسيا ، وفى لحظة معينة يلمس الشفرة . .

نفس الأمر فى الجهة الأخرى عند السيد بوش ، ربما توعك لنفس السبب مع زوجته ، أو ربما ضاق لعدم إتقانه لعبه الجولف أثناء تمضيته الأجازة فى ولاية مين . ماذا لو أصيب أحدهما بعسر هضم ، أو آلام فى المصران الغليظ ، تدفعه فى حالة من الضيق تجعله يلمس الشفرة ، المخاوف كثيرة ، خاصة أن كل منهما تجاوز الستين ، ومشاكل الرجال بعد تلك السنة كثيرة وعديدة !

هكذا يتعلق مصير العالم باثنين من البشر أو أربعة أو سته وكل منهم معرض للحظات الضعف الإنسانى ، ولأننى لم أر جورباتشوف أو بوش حاملاً لأى حقيبة من أى نوع ، فلابد أن شخصا ما هو المكلف بحملها ، وربما فتحها أيضا واستخدامها ، هذا المجهول . . ماذا نعرف عنه ؟ وكيف الحال إذا كان مدمنا . أو فى طريقه إلى الإدمان ؟

المخاطرة عديدة . كانت قائمة عندما كان العالم تحكمه قوتان عظميان تحدثان حالة من التوازن ، لا تنفرد إحدهما به فتغلب مصالحها بدون رادع أو وازع من ضمير سياسى أو بشرى . وكان المستفيد من ذلك شعوب العالم الضعيفة المهددة من القوى الأكبر المفترسة ، أذكر أن نهرو قال يوما : لو لم يوجد الاتحاد السوفيتى لأخترعناه . ولكن هذا الاتحاد يزول الآن من الخريطة ، وإننى لاعتبر انفراد الولايات المتحدة بالسيطرة على العالم كارثة تهدد البشرية ، لأسباب عديدة يمكننى أن أفصلها فيما بعد ، أما الاتحاد السوفيتى ،

أو ما سيتبقى منه ، خاصة جمهورية روسيا فسوف، تكون قوة معادية للعرب وللمسلمين أكثر من عداء الغرب للشرق ، ذلك أن بقايا الاتحاد السوفيتى تشعر بعدوانية شديدة تجاه الغرب . وانسحاق ، فعلى من ستحاول اظهار التفوق ، وتفريغ الطاقات العدوانية ؟ على الشرق العربى ، المسلم ، للأسف سوف يدفع العرب أولاد العالم الثالث ثانيا فاتورة ما يجرى فى عالم اليوم من متغيرات .

كانت الشيوعية هى العدو الرئيسى للغرب ، والآن سوف يستدير الغرب ، ومعه روسيا بوضعها الحالى ضد الشرق كله ، خاصة الإسلام . . ومنذ مجيء جورباتشوف إلى السلطة . ومع فتح الأبواب للقوى الصهيونية فى الاتحاد السوفيتى ، فان المستفيد الرئيسى من البيروسترويكا هى إسرائيل والقوى الصهيونية ، وعصابات المافيا التى تحكم موسكو الآن . والعناصر الجديدة التى ارتبطت بالشركات الغربية ، فى اليوم الثانى للانقلاب الخائب ، سمعت مستشرقا سوفيتا اسمه ناموكن يتحدث عن الوضع ، ويقول أن الشعب ظل فى البيوت بعيدا عن الساحة التى شهدت مظاهرات قدر عددها أول يوم بعشرة آلاف وأقصى تقدير لها كان خمسين ألفا . وماذا يعنى هذا العدد فى عاصمة يقدر عددها باثنى عشر مليونا ؟ ، هل هى صدفة أن يموت ثلاثة بينهم اثنين من اليهود ؟

لقد تحرك اصحاب المصالح الجديدة ، وضخمت محطات التليفزيون هذه الجموع ، وانهزم الجيش الأحمر قاهر النازية أمام عصابات المافيا ، والشباب الصهاينة ، بسبب سذاجة قادة

الإنقلاب ، والذين كان يمكن لهم الاستعانة بخبرة ضابط برتبة ملازم من إحدى بلدان العالم الثالث .

ولكن . . برغم كل ماجرى ، فشعورى يؤكد لى أن الكلمة الأخيرة لم تقال بعد ، وأن اللحظة التى سنرى فيها دبابات الجيش الأحمر مرة أخرى ليست ببعيدة ، هذا حدس كاتب مبدع . وليس تحليل سياسى .

هنا . . أعود مرة أخرى إلى الحقيبة الرهيبة .

* * *

خلال هذه الاضطرابات ، وهذا التفكك ، وتلك الفوضى ، ماذا لو سرقت الحقيبة ، ألم يستول عليها قادة الإنقلاب لعدة أيام؟ هل يعنى ذلك أن جورباتشوف نسيها فى الكرملين عند ذهابه إلى القرم؟

إن الصراعات فى الاتحاد السوفيتى بدأت ، ومازلت أذكر بنوءة صديق سوفيتى قالها أمامى عام ١٩٨٧ فى موسكو .

«نحن مهددون بحرب أهلية . .»

الآن تستقل الجمهوريات ، وربما تقع الحرب الأهلية ، ساعتها ، ستكون الحقيبة مع من ؟ . وماذا لو تمكنت احدى عصابات المافيا من سرقتها ؟ إن حرب أهلية داخل وحش نووى أمر يرعب أمريكا نفسها .

ومع ذلك ، فلأترك خوفى من الحقيبة الرهيبة جانبا ، وأفكر فى إتجاه آخر .

إن التفكك بدأ فى الامبراطورية الحمراء ، وهناك جمهوريات إسلامية هامة جدا ، منها كازاخستان حيث توجد قواعد التجارب

النووية ، والمطار الفضائى بايكونور ، الذى تطلق منه سفن الفضاء . وهناك اوزبكستان ، وقرغنيريا ، وتتارستان ، وتركمانيا ، واذربيجان ، وطاجيكستان .

تلك الجمهوريات الإسلامية مازال الإسلام قويا . راسخًا بل هو أقوى منه فى أماكن أخرى ترفع رايات الإسلام من عالمنا فى هذه الجمهوريات توجد أسلحة نووية متقدمة . وهذه الجمهوريات تاريخيا ليست أجزاء من الاتحاد السوفيتى ، لقد ضمت إليه منذ أقل من مائة سنة فقط .

لماذا لا تتجه أنظار المسلمين جميعا إلى آسيا الوسطى الآن ؟ إلى الجمهوريات الإسلامية التى تحوز السلاح النووى فعلا لماذا لا يساند المسلمين هذه الجمهوريات فى إعلان استقلالها وتحقيق فعلا؟ إذا تحقق ذلك فان امبراطورية إسلامية قوية ستولد فى العالم ، تواجه القوة العظمى الوحيدة التى تحاول الإنفراد بالكوكب ، وعندئذ لن يصبح مصيره معلقا بحقيبة واحدة أو اثنتين ، ولن ينتهى التاريخ كما يقولون . . بل ستبدأ صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية من آسيا الوسطى المسلمة ، فهل من مفكر ؟

التبريزى وتابعه..

انفق الأمير على جناح التبريزى ثروته وبدأ يعيش فى عالم المثال والحلم ، وعندما ساق القدر الشحاذ الفقير قفة إلى الأمير ، دعاه إلى الغذاء ، ومنى قفة نفسه بطعام شهى ، جلسا إلى مائدة تحوى أوانى خالية ، والأمير يدعو ضيفه الشحاذ إلى الأصنفاف الوهمية .

وسرعان ما يلتقط قفة الخيط ويبدأ مجاراته ، وتبدأ أيضا رحلتهما . الأمير مجرد من الثروة والقوة ليس معه الا الحلم . والشحاذ طامع . حالم أيضا . . يصبح الاثنان فى قفة . ولكن قفة خالية من الشفرات النووية ، الشفرة الوحيدة فيها الحلم بعالم مثالى . خال من الفقر والمرض . . هذا هو محور مسرحية (اثنين فى قفة) التى تعرض الآن على مسرح الحرية ، والتى أعتبر إقدام القطاع الخاص على عرضها نقطة تحول فى مسار المسرح المصرى الآن . فى وسط طوفان العروض الهابطة التى تخاطب غرائز أهل النفط وأثرياء هذا الزمان يقدم عاشق المسرح سمير خفاجى نصا جاداً لألفريد فرج ويثبت من خلاله أن الجدية لا تتنافى مع البهجة والمتعة والضحك ، حيث يصرح صوت على الحجار الحساس بكلمات شاعرنا الكبير سيد حجاب . ويتألق أداء صلاح السعدنى هذه الموهبة العظمى ، المصرية الصميمة ، شىء ما يذكرنى فى صلاح بانتونى كوين ، واورش ويلز ، ولكنه هو صلاح السعدنى المصرى الصميم . صاحب الحضور القوى ، أما سماح أنور التى كنت أتصور أنها تقدم نمط البنت العصرية فإن هذه المسرحية تكشف عن جوانب من موهبة خصبة متألقة ، يقدم العرض من خلال رقصات أنفق عليها الكثير ، خاصة الديكور البديع الذى صممه فنان المسرح حسين جمعه الذى مازلت أذكر له الزوبعة التى قدمها فى الستينات .

عناصر عديدة تجعل هذه المسرحية نقطة تحول فى المسرح المصرى وبالذات الذى يقدمه القطاع الخاص ، بعدها يمكن أن نرى (الفرافير) ليوسف إدريس ، ونصوصًا أخرى لغيره من الكتاب الكبار الذين يتوارون الآن أمام موجة التفاهة والسطحية .

◇ من أوراق الطفولة..

اغسطس ١٩٩١

على الشــاطـىء..

. . تراقب الأم ابنتها الصغيرة التى تلعب عند حافة البحر مع أطفال تعرفت إليهن هنا ، أمواج متوسطة العنف ، تصطدم بالرمال ثم تنحسر لترتد من جديد فى حركة أبدية ، تهدأ حينا . تعنف أحيانا لكنها لا تتوقف .

بين الحين والآخر تصيح منادية الابنة ، محذرة من التوغل فى البحر . أو مبنهة إلى شىء ما لتشعرها بقربها ، ثم تعود إلى استرخائها من جديد .

على مهل اقتربت طفلة منها ، ترتدى ثوبًا قصيرا ، جميلة الملامح ، تضع يديها خلف ظهرها ، تطلعت إلى الأم قليلاً قبل أن تسأل . .

- كل دول ولادك ؟

تطلعت إليها الأم ، كأنها فوجئت بوجودها . .

- لا يا حبيبتى . .

أشارت إلى الطفلة . .

- دى بنتك ؟

- أيوه . .

- يابختها . .

قالت الأم منهية الجلسة المسترخية . قالت الطفلة مجيبة على التساؤل . .

- عشان أنت أمها

ثم تداركت بسرعة ..

- أنا دلوقتى عندى أم جديدة ..

خفق قلبى الام ، لأول مرة تلحظ وحدة الطفلة ، من والدها ؟ أين أسرتها ؟

قالت إن ابيها ضابط شرطة . وإنهم يعيشون فى المدينة ، لكنهم يدخلون كافة الفنادق الحديثة على الشاطئ . يصحبها والدها فى الصباح ، ويتركها تتجول فى الفندق ، فى الحديثة ، فى ملاعب الأطفال .

- المدير صاحب بابا .. كل المديرين أصحابه ..

مرة أخرى تلتفت الطفلة إلى الحد الفاصل بين البر والبحر ..

- وأنت دايما بتخرجى معاها ..

تتطلع الأم إليها ، ثمة حزن بدأ يسرى عندها ، قالت محاولة أن تبدأ حوارًا مختلفا .

- وانت اسمك أيه ..

- ياسمين ..

- رحت المدرسة ؟

- فى الحضانة ..

بسرعة قالت ..

- يا بخت بنتك عشان أنت دايما بتخرجى معاها .. ثم قالت رافعة اصبعها النحيل . الدقيق جدا .

- بس .. ماما الجديدة طيبة ..

خفضت رأسها قليلا . .

– والله العظيم طيبة . . لما اقول لها عاوزه اشرب بتجيب لى كباية المية . .

تتطلع الأم بعينين يدنو الدمع من مشارفهما . تهز الطفلة رأسها مؤكدة . .

– أه والله العظيم . . بتجيب لى أشرب !

معــرض..

برودة خفيفة . نذر خريفية . أما الشتاء فتباشيره لا تخفى خاصة ليلا ، الاب والابن فى عربة الأجرة . الابن أغض قليلا ، صحبه اليوم منذ بدايته ، مضيا إلى منزل العم ، ضابط مهندس ، طيب . هادىء جدا ، أخرج أجهزة حاسية ، وأخرى الكترونية راح يشرح لابن شقيقه ، كيف تعمل هذه ، وكيف تعمل تلك ، ثم أطلعه على ألبوم الصور الخاص برحلة الأخيرة إلى أمريكا .

بعد زيارة العم . مضى الاب وابنه إلى معرض يبيع كتب الأطفال واللعب ، بعد أيام يحتفل الطفل بعيد ميلاده . اشترى الأب طائرة له ، وعروسه لشقيقته الصغيرة .

خرجا إلى الشارع . جلسا فى مقهى ، راح الابن يتطلع الى والده صامتاً ، وبين الحين والحين يستفسر عن طريقه عمل الدخيلة ، كان ينظر إلى والده ويخشى ارتكاب خطأ ما ، ويحرص على ألا يقطع صمته . حقا . . لماذا يسكت أبوه كثيرا ؟

كان يسأله .

– أنت زعلان منى يا بابا ؟

يتطلع إليه الأب . في عينيه شجن لا يخفى . وعلى أطرافها دمعتين معلقتين .

- لا يا حبيبى . .

- أمال سألت ليه . .

- بافكر . .

يتطلع إليه الابن صامتا . محملاً بالتساؤلات لكنه لا ينطق خشيته إزعاج والده ، لكم يبدو متقدما عن سنه ، كأنه يدرك ما عند ابيه ، يحسه .

ها هما معا . بعد زيارة العم ، والمعرض . ذهبا إلى قاعة سيد درويش ، شاهدا فرقة الموسيقى العربية ، عند خروجها قال الصبى . .

- أنا باحب الموسيقى العربية . .

ثم قال .

- عارف ليه ؟

نظر إليه الأب

- عشان أنت بتحبها . .

فى عربة الأجرة المشتركة أمسك بالعلبة التى تحتوى على الطائرة ، استفسر عن تفاصيل خاصة باللعبة ، تباعدت أسئلته . غفا ، مال الرأس على جسد ابيه ، أحاطه بذراعه حتى يكون وضعه مريحا ، فى الطريق والليل مكتمل ، استيقظ الابن ، قال بلهجة سريعة كأنه يتكلم فى نومه ، أو يواصل حوارًا صامتا .

- عاوزين نبقى نخرج مع بعض تانى ..
يقول الأب .
- إن شاء الله ..
يتمنى الصبى بصوت يملؤه الوهن .
- ياريت .. ولو مرة كل شهر يا بابا ..

زيـــــارة..

.. دخلت بيت صاحبى العائد من السعودية فى إجازة صيف وصلوا أمس ، بعد عناقه . وترحيب زوجته ، أحاط بى ابناؤه الثلاثة ، ابنته الكبرى ، وابنته الوسطى ، وطفله البالغ من العمر أربع سنوات .
- ازيك يا عمو ..
- واحشنى قوى يا عمو ..
تعلق الطفل بى ،
- والنبى تبات عندنا يا عمو ، خليك معانا ..
نظرت اليه ، متحسسا شعره بيدى ، قال وقبضته الصغيرة متعلقة بثوبى ..
- اصلى هناك ما حدش بيزورنا .. مابنشوفش حد خالص ..

حوارات متفرقة:

قالت الطفلة لوالدها مشيرة إلى الصورة ..
- دى مين ؟
قال الأب :

- دى ستو يا حبيبى .

قالت الأبنه :

- ودا مين ؟

قال الأب :

- ده جدو . .

قالت :

- يعنى أمك وأبوك ؟

قال :

- نعم

قالت :

- هما راحوا عند ربنا ؟

أومأ صامتا . قالت :

- واحنا كمان حنروح عند ربنا ؟

أومأ مجيبا . قالت :

- يعنى حنشوفهم تانى ؟

(٢)

راحت الطفلة تقلب صور عرس والديها ، قبلت صورتهما وهما يقطعان الكعكة ، فجأة . . التفتت إلى أمها .

تساءلت الأم :

- فين ؟

قالت الطفلة مواصلة :

- طبعا يا ستى . . سبتونى لوحدى فى البيت . .

تساءلت الأم :

- أمتى ؟

بدأ بكاء فى صوت الطفلة .

- تقدرى تقولى ليه سبتونى فى البيت ؟

نظرت الأم حائرة ، بدأ حزن الابنه واضحا . .

- طبعا رحتوا مع بعض ، وماخدتنيش معاكو . .

(٣)

تسأل الابنه

- اشمعنى أخوايا أكبر منى ؟

تبدو غاضبة ، تلوح بيدها الصغيرة مخاطبة أمها . .

- ليه ماخلفتنيش قبله ؟

تتابع . .

- كان زمانى فى المدرسة ، وعندى أصحاب !

(٤)

كان الأب يصغى بعمق إلى غناء يحبه لمطربة تركية جميلة . .
دخلت الابنه الغرفة . .

- بتسمح أمل حايين؟

قال الأب :

– نعم . .

– ليه ؟

– باحب صوتها . .

بدت غاضبة ، أشارت بإصبعها . .

– لأ . . أنت تحب ماما وبنتك بس . .

فى حديقة الأطفال..

تحاول الابنة أن تتزحلق . يزاحمها طفل أكبر حجما وسنا .

قالت :

«أنت حتخوفنى . . دا أنا عندى أخ يوريك . .

ثم اسرعت تجرى إلى شقيقها الذى كان يماثل الولد عمرا وسنا تقريبا .

«الواد اللى هناك ده بيضايقنى . .»

يتقدم شقيقها متمهلا . يتوقف أمام الصبى .

«جرى إيه يا كابتن ؟»

ينسحب الولد مبتعدا . تستعد لصعود الزلاقة ، تتطلع إلى الأولاد الذين راحوا ينظرون إلى شقيقها طويل القامة . . تصيح فيهم . .

– ارجعوا ورا .

بالعربي الفصيح

سبتمبر ١٩٩١

الواحدة بعد منتصف الليل تقريبا .

وقفنا بعد نهاية العرض المسرحى نتحدث مع بعض الأصدقاء لفت نظرى عدد من الشباب خرجوا من الأبواب الخلفية للمسرح . فتيات وشبان ، كانوا فى مجموعات صغيرة ، يستعدون للذهاب إلى بيوتهم ، بدا واضحًا أنهم يبحثون عن وسيلة مواصلات . أو يرتبون أمورهم للعودة . من قاماتهم وبعض ملامحهم استطعت التعرف على شخصياتهم التى عايشتها أكثر من ثلاث ساعات .

هذا هو الجزائرى ، بقامته النحيلة ، وعصبيته ، ولهجة القوم هناك ، كأنه ولد هناك ، وعاش عمره كله . هذا هو السودانى ، بملامحه الطيبة ، ودقته ، وبساطته وروحة المرحة رغم ظروفه الصعبة .

وتلك الفتاة الخليجية . بصوتها النخيل ومنحنيات اللهجة . من يتصور أنها فى الحقيقة فتاة مصرية تبلغ الخامسة عشرة من العمر . فى الصف الثانى من الرحلة الثانوية . من يصدق ؟ وهذا الشباب الضخم الطويل . الذى ظل رافعا حاجبه الأيسر مدة العرض كلها . مشهرا مسدسة بين الحين والآخر ، مهددًا ، متوعدًا ، ثم ينهار عند أول بادرة جد . . لابد أنه العراقى !

وهذا البخيل القصير . بالقطع هو اليمنى . .

وذلك هو المصرى بشاربه وحضوره الخفيف واصراره على اطلاق النكات . وصيحة احتجاجه عندما يطلب منه الجميع التضحية من أجلهم .

هكذا . .

رحت أتأمل هذه المجموعة من نجوم المستقبل وهم يستعدون للعودة إلى بيوتهم . عقب انتهائهم من تقديم أدوارهم فى مسرحية بالعربى الفصيح . تأليف لينين الرملى وإخراج الفنان محمد صبحى .

العرض جميل ، نظيف ، ما من كملة تخدش الأذن كما يحدث فى عروض تجارية تسئ إلى سمعة الفن المصرى . ولكن أقرأ بأسى بعض ما يكتب فى الصحف العربية العرض واع فكريا ، وسياسيا ، يمكننى القول أنه أدق تشخيص لوضع الأمة العربية الحالى . ودخولها فى منعطف حاد من التاريخ فى عالم لا ندرى ما سيجرى فيه غدا لسرعة المتغيرات ، ذلك التشرذم والإنقسام الذى كان أوسع شرخ نفذ منه الفرنجة إلى دولة الأندلس القوية ، المهيبة ذروة من ذرى الحضارة العربية والإنسانية ، تحتفل أسبانيا هذه الأيام بمرور خمسمائة سنة على زوال الحضارة الإندلسية العربية ، وخروج العرب من أسبانيا ، وتسليم مفاتيح غرناطة ، وبدء أبشع مأساه إنسانية فى التاريخ لمن تبقى من العرب والمسلمين . تحتفل اسبانيا الآن بهذه المناسبة و . . بمشاركة من الجامعة العربية . ولى عودة إلى هذا الموضوع !!

التشرذم ، الخلاف ، كان دائما الثغرة التى ينفذ منها الأجنبى ، وهذا ما تجسده المسرحية فى شكل فنى راق وأصيل .

المسرحية ممتعة فنيا . ومثيرة للضحك ، كما أن إخرجها رفيع المستوى ، يذكرنا بالمسرحيات الجميلة التى استمتعنا بها فى الزمن الأفل على مسارح الدولة ، قبل أن تتحول تلك المسارح الآن إلى ما يشبه الخرابات . ولكن . . أهم ما استوقفنى هو أبطالها ،

كلهم نجوم بكل معنى الكلمة ولكن لا يعرفهم أحد ، وها أنا أشير إليهم ولا أعرف اسما واحدًا منهم ، لكن ملامحهم وحضورهم يمثلان أمامى قويا ، وحافزًا للأمل .

فى بداية هذا العام نشر الفنان محمد صبحى والأديب لينين الرملى ، إعلانا فى جريدة الأهرام ، أعلنا فيه انهما بحاجة إلى وجوه جديدة للعمل فى المسرح . وسرعان ما بلغ عدد المتقدمين ألف ومائتين .

على امتداد ثلاثة شهور بدأت اختبارات دقيقة ، تم خلالها عملية اختيار دقيقة ، وكان العدد النهائى خمسين ، منهم أربعين يشاركون فى المسرحية الآن ، بعضهم طلبة ، ومنهم موظف البنك ، والمدرس والفنى ، تم تدريبهم وكانت النتيجة ذلك العرض الموحى القوى ، الذى لا يثير الأمل فقط فى المسرح المصرى ، وطاقاته المتجددة عندنا تتوفر الخبرة والموهبة والإرادة ، هذه التجربة تأتى من القطاع الخاص ، من هنا أقول إن طاقات الأمل لا تنفد فى مصر .

اذكر منذ حوالى ربع قرن ، دعانا الأستاذ سعد وهبه إلى دنشواى المنوفية ، شاهدنا عرضا فى الجرن ، كان النص «جمهورية فرحات» ليوسف إدريس ، والإخراج لهناء عبد الفتاح إذا لم تخنى ذاكرتى ، وكان الممثلون كلهم من الفلاحين ، اذكر منهم امرأة ذات صوت مدهش جميل ، قوى ، كانت بائعة لبن فى القرية ، فكرت وقتئذ ، كم من الأصوات الرائعة فى بر مصر ، هل نسينا أن أم كلثوم جاءت من أعماق الريف ؟ كم أم كلثوم أخرى لم تعرف

الطريق إلى الناس ، أو أجهدتها ظروف التربة التى لا تساعد أحيانا على ابراز النبات . هذا بلد ولاّد ، يطرح المواهب والقدرات . ومن ثرائه يهدد ما يقدم ، فلا ينفذ إلا الضئيل جدا ، وقد لا يحدث فى معظم الأحيان ، المهم هو توفير المناخ .

أفكر فى الفلاحة ، بائعة اللبن ، التى أشجانا صوتها ذات ليلة نائية . بعيدة ، ثم غابت تماما ، وما أرجوه ألا يقع ذلك لتلك المواهب الكبيرة التى قدمها محمد صبحى ولينين الرملى بعد أن نجحوا فى تقليب التربة وتهيئة المناخ . .

الأربعاء

وبمناسبة مقهى الأوبرا الذى يعلو مسرح محمد صبحى فإن ذكريات شتى تتداعى ، أبرزها . أستاذنا نجيب محفوظ ، فى نهاية الخمسينات وبداية الستينات عرفت طريقى إلى ندوته الأسبوعية التى كانت ملمحا أساسيا من ملامح الحياة الثقافية المصرية ، ثم توقفت عام الف وتسعمائة واثنين وستين لأسباب أمنية . فى تلك الندوة بدأت ملامح جيل الستينات فى التشكل ، وفى هذه الأيام كنا فى مقتبل حياتنا ، وفى مكتمل عافيتنا ، بعد انصراف الأستاذ فى الواحدة ظهرًا ، موعده الذى لم يتغير منذ الأربعينات ، نتيجة إلى مكان آخر لنستكمل النقاش ، صلاح عيسى الذى أدين له بالكثير فى تكوينى الثقافى ، كذلك وجدى حافظ ، وعبد الفتاح الجمل ، وزملائى يوسف القعيد ، وأبو عوف ، والمرحوم عبد الجليل حسن ، الذى مات غريبا فى ليبيا ، أذكر أنه تطلع إلىّ بدهشة عندما رحت أتحدث عن المؤرخ المصرى ابن إياس وأتلو

صفحات حفظتها عن ظهر قلب من موسوعته ، أذكر سؤاله بدهشة : كيف ومتى قرأت هذا الكتاب الضخم ؟ وازداد دهشة عندما رحت احدثه عن ابن تغرى برءى والمقريزى وابن عبد الحكم ، لم أكن بلغت العشرين فى ذلك الوقت ، كما نمضى الساعات الطوال ، نقرأ ما كتبناه ونتناقش ، كنا نفيض حميمية وتوقدا ، وقد مضت أعوام كثيرة وتغيرت أمور شتى ، وتغيرنا . كنا نطمح فى ذلك الزمن البعيد إلى تغيير العالم ، فإذا بالعالم يغيرنا !

من الصداقات العميقة التى بدأت فى مقهى الأوبرا ، صداقتى بعلى الشوباشى وزوجته فريدة ، كانت فريدة تكتب القصة وتفيض حيوية ، وحتى الآن تبدو كما عرفتها منذ ثلاثين عاما ، تفيض انفعالا وتوقدا ، وعندما سافر على إلى باريس ليبدأ رحلة عمله فى وكالة الأنباء الفرنسية لحقت به فريدة لتصبح إعلامية بارزة فى إذاعة مونت كارلو ، صوت مصرى محترم ، واع وبرغم الحياة الباريسية ، وظروف الإغتراب ، وظلت فريدة تستمد دماء شراينها من الواقع المصرى وهمومه وأفراحه ، وكان ما يشغلها انتماء وحيدها نبيل الذى كانت تسهر على تعليمه اللغة العربية ، وتوحى القادمين من القاهرة باحضار دروس اللغة العربية المسموعة ، والافلام والمسرحيات حتى لا يشب نبيل جاهلا بلغته الأم ، كما يحدث لكثير من أبناء الاسر العربية المستقرة فى أوروبا ، نبيل الآن فى مصر عاد ليعمل فيها بعد أن أنهى دراسته فى باريس .

ومنذ أسبوع قرأت بدهشة خبرا فى الزميلة الأهالى يقول أن سفيرين عربيين عرضا على إدارة الإذاعة دفع أى مبلغ لفصل

فريدة ، وتعجبت لهذا الخبر ذو الدلالة ، بل ذو الدلالات ، فبعض العرب يريد فرض مقاييسه المتخلفة والتى تتنافى مع حقوق الإنسان على عالم يرفع راية تلك الحقوق عاليا الآن ، إن الإعلامى الذى يعمل فى الإذاعة ملتزم بما تورده وكالات الأنباء الرسمية ولا يؤلف الأخبار من عنده . فلماذا الغضب ؟ هل يرجع السبب إلى نبرات الصوت ، أو إلى إبداء الحماس لهذا الخبر أو ذاك . أو لأنه عندما يعجز البعض عن شراء الآخرين يسعون بشتى السبل إلى مطاردتهم .

رفضت إدارة الإذاعة ، واستمر صوت فريدة الشوباشى ، الصوت المصرى الوحيد فى الإذاعة ، استمر بنفس الحيوية والتدفق الذى كنت اسمعه به فى تلك الأيام البعيدة ، البعيدة الآن والتى مررنا بها فى بداية الستينيات .

الجمعة:

دخلت إلى مكتبة الحاج مدبولى .

لا أنزل وسط المدينة إلا وأعرج عليها ، متفقدًا الكتب الجديدة . وقفت أتأمل العناوين . فجأة . . دخل .

وجدت نفسى فى مواجهة الدكتور عبد العظيم رمضان وفى جزء من الثانية انصهرت داخلى مشاعر عديدة .

مددت إليه يدى . .

فاضت ملامحه بالود .

صافحنى

تبادلنا حديثا قصيرا . سؤال عن الصحة والأحوال . وإجابة بحمد الله وشكره . فى لحظة إنسانية صادقة انبعثت المودة القديمة ، وكأن اختلافنا لم ينل منها ، الحق أننى خرجت من المكتبة متأثرا ، متسائلا ، أليست العلاقات الإنسانية أبقى وأثمن من أى خلاف ؟ لقد اختلفنا فى الرأى ، وربما وقع بعض شطط ، ولكننى فى الواقع لم يغب عن داخلى قط تقديرى للرجل أولا كانسان صاحب رحلة شاقة فى الحياة . تشبه رحلتى فى كثير من جوانبها ، وكأستاذ للتاريخ قرأت مؤلفة عن تاريخ الحركة الوطنية وأعجبت به منذ سنوات بعيدة .

إذن . . يمكن ان يقع الخلاف وأن تستمر العلاقة والمودة الإنسانية ، للأسف عرف خلافنا طريقه إلى المحاكم . فى اليوم التالى أتصلت بصديقى المحامى نجاد البرعى نجل الشاعر الكبير محمد البرعى ، ورجوته أن يتخذ الإجراءات المؤدية إلى تنازلى عن القضية التى رفعتها من ناحيتى . فلا شىء فى العالم يساوى لحظة صدق إنسانى ، وسوف تمضى السنوات وتزول الأسباب ، ونزول نحن أيضا ، فلا أقل من أن نبقى على الذكرى الحسنة ، القدرة على تجسيد هذا المثل القديم نردده كثيرا ، الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية ، وسوف تزول كل الأسباب وحقا لا يبقى إلا الود الإنسانى .

الخميس:

حقا . . ما أحوجنا إلى الجبرتى أو ابن إياس ، واقعنا اليومى يأتى إلينا بمزيد من الأمور الغريبة . ولقد تمنى الأستاذ أحمد بهاء

الذين منذ سنوات مؤرخا كالجبرتى يصيغ أحداث عصرنا وأستأذن القراء فى رواية حادثة قرأتها الأسبوع الماضى ولكن بأسلوب ابن إياس .

« .. وفى يوم الخميس جرت واقعة غريبة . إذ فوجىء طارق بن تميرك وهو وكيل لنيابة خط الدرب الأحمر بدخول امرأة شابة عليه ، اسمها نشوى ابنة جمال عبد الحميد ، وهى من العامة ، وأمرها معروف تجارة الحشيشة . قالت له إنها تزوجت منذ يومين لا غير ، أثناء وجودها فى بيتها بمفردها بعد خروج رجلها لطلب الرزق . فوجئت بدخول شخص من أرباب السوابق وأصحاب الجرائم اسمه حسين بن حنتش أشهر فى وجهها منشارا من حديد ، وطلب منها دفع الفردة المقررة على كل من أهالى الحارة ، لكنها رفضت دفع المعلوم ، ورمته بالطوب فى رأسه ، فهجم عليها يبغى إيذائها ، فما كان منها إلا أنها أمسكت بقضيب من حديد وسددت إلى رأسه ضربة ، سقط بعدها ولم يحط منطق . ثم خرجت بقلب جامد لتعترف بما فعلت .

هذا ، وقد اضطرب الأمر فى كثير من أنحاء القاهرة ، وغاب رجال العسس ، والمحتسب ، ونزل الرعاع من الناس . والحرامية ليكدروا على الخلق حياتهم ، ويفرضوا على القوم الأتاوات ، وليعيدوا سيرة الزمن القديم . عندما كان الفتوات يقومون مقام رجال الشرطة الذين عز وجودهم فى أيامنا خاصة فى النواحى التى يسكنها العامة ، وفشا بذلك الإجرام ، وخاف الناس على أمورهم . ولله الأمر من قبل ومن بعد .. »

وخرجت السنة على خير!

يناير ١٩٩١

الحمد لله خرجت السنة على خير .

بهذه العبارة كان شيخنا محمد ابن إياس الحنفى المصرى يودع كل عام ينتهى ، أثناء تدوين أحداث عصره فى مؤلفه البديع «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» منذ حوالى خمسمائة سنة . مهما كانت الأحداث التى جرت ، سواء كانت وقائع مبهجة ، أو كوارث عظيمة ، ونوازل جسيمة .

المهم . .

أنها خرجت على خير . خرجت إلى الأبد ، إلى ما لا يمكن استعادته أبدا . والحمد هنا واجب ما دام الإنسان حيا ، يودع عامًا ويستقبل آخر .

واليوم نحمد الله على إنتهاء سنة واحد وتسعين وتسعمائة وألف ميلادية ، نحمده كما كان يفعل ابن إياس ، ولنحاول أن نرى بعضا مما جرى فيها بعينيه ، تماما كما تمنى كاتبنا الكبير احمد بهاء الدين تسجيل وقائع العصر بعينى مؤرخ غابر مثل الجبرتى أو ابن إياس لهذا نبدأ بحمد الله وشكره على خروج السنة بخير . نحمده لأننا ما نزال نحيا فى هذا العالم وأن كان شعورى بالغربة أثقل ، وذلك لشدة ما يجرى فى الدنيا من أمور تستعصى على التصديق ، وتعسر على الاستيعاب .

فى بدايتها وقعت كارثة الكويت ، نتج عنها تشرد مئات الآلاف ، وتيتم أطفال ، وترمل نساء ، وتبدل أوضاع ، وكان سبب ذلك سوء التدبير ، وفساد السياسة ، والحماقة وأدى هذا كله إلى مجىء الفرنجة من جميع بلادهم وعلى اختلاف

طوائفهم ، ونحلهم ، ومللهم ، قدموا بقضهم وقضيتهم ، وعتادهم وسلاحهم ، ورجالهم ونسائهم .

وبعد ان كان العرب يسعون إلى إخراجهم من ديارهم وابعادهم . سعوا إليهم بأنفسهم ، ودفعوا لهم من نفيس أموالهم .

وفيه دخل بعض العرب فى الدجن . واصبحوا مدجنين تحت واية الأجنبى الذى استدعوه لحماية أموالهم وديارهم وحريمهم وعيالهم ، وبدلاً من الاستعانة بأخوانهم فى الملة والجنس . فكأن التاريخ يعيد نفسه . وهذا يشبه ما أقدم عليه بعض أهل الأندلس الذين عرفوا بالمدجنين - أى مستأنسين ، لطاف ، خفاف ، كالدجاج - والسبب فى هذا كله حماقة حاكم العراق ، وتعنت وضعف ولاة آخرين .

وكان ذلك من افظع حوادث العام ، والذى أصبح فيه العرب اضعف ، وأوهن ، وقرب نهاية السنة جاءت الأخبار باحتفال فرنجة أسبانيا بمناسبة مرور خمسة قرون على خروج العرب من الأندلس .

منذ خمسمائة عام خرجوا من الجغرافيا ، والآن يحق لنا أن نسأل : هل سيخرجون من التاريخ بعد تبدل الأحوال وتغير أمور الدنيا فى غير صالحهم ؟ نسأل الله اللطف والعناية وحسن العاقبة .

* * *

وفى هذه السنة جرى بما لم يسمح مثله من قبل إذ زالت دول كانت توصف بالعظمى ، وقامت دول أخرى لم يكن لها وجود .

وكان ذروة ذلك اختفاء ما عرف لمدة أكثر من سبعة عقود بالاتحاد السوفيتي . وكما كان ظهوره من علامات التاريخ فى بداية القرن ، فإن زواله من الأحداث الكبرى قبل نهاية نفس القرن ، ويجئ هذا مع تعثر الأحوال هناك ، وندرة القوت ، وصعوبة المعيشة مع غموض المستقبل .

وكان قد جرى فى أغسطس انقلاب غريب ، عجيب ، نزلت فيه دبابات فارغة من أى ذخيرة الى الشارع ولكن هذه الحركة لم تستمر إلا ثلاثة أيام أو أقل . جرى فيها ما لا ينطلى على أصحاب العقول السليمة ومن ذلك ظهور كبير الروس واسمه بوريس فى الطريق راكبا دبابة من دبابات الإنقلاب ، ملوحًا بيده ، ممسكا بورقة يقرأ منها . مظهرا أنه يقاوم الدبابات فى العراء ثم انتهى كل شىء كما بدأ ، بدون أن يفهم أحد ، كيف جرى ذلك ، ولكن هذا كله لم يكن إلا خطى مرسومة ، متتابعة ، متسارعة لتبديل أوضاع طال استمرارها . سرعان ما صدر مرسوم بحل الحزب الشيوعى ، فصار الشيوعيين الروس مطاردون فى بلاد الشيوعية ، حتى أن أصواتا ارتفعت فى العالم الغربى تطالب بحمايتهم !

عاد كبير السوفيت أشد ضعفا . وبدأ نجمه يخفت يوما بعد يوم، بينما نجم كبير الروس فى صعود . وبعد تمام الأمر ، وانحلال عقد الجمهوريات . صار كبير الروس رئيسا على لا شىء ، فاضطر الى الإستقالة ، وتردد أن صاحب فندق فى بلاد أمريكا عرض عليه وظيفة فى الملهى الليلى مقابل مليون دولار ، وقال البعض إنه ربما يقبل ، ولم يعد مثل ذلك يدهش فى هذا الزمن العجيب . وقبل

ذهابه قام بتسليم الزر النووى إلى كبير الروس ، وهذا الزر يقع فى حقيبة ، والحقيبة فيها ما يعرف بالشفرة ويمكن لمن يملك هذا الزر أن يضغطه فيطلق آلاف القذائف المهلكة . كل منها يفنى ولا يبقى ، فكأنه يوم القيامة .

هذا الزر الآن بحوزة كبير الروس بوريس ، ويقال إنه يشرب الخمر دائما . وهو عالى الصوت فى غير فائدة . هواش ، يعرف أمثاله عند الفرنجة بالديماجوجيين . هذا الديماجوجى . يملك الآن التصرف فى الزر فلله الأمر من قبل من بعد . وحمانا الله وحمى البشرية من أخطار الزر .

* * *

وفى هذه السنة آلت الأمور إلى كبير أمريكا واسمه بوش . فصار المتصرف فى الأمور . مسموع الجانب . لكنه مستأسد على الأمم الضعيفة كثير الزئير عليها . فمرة يهدد ويتوعد ليبيا ويضغط ويتشدد فى أمر الحصار المضروب على شعب العراق بمسنيه وأطفاله ومرضاه ، وهذا ليس من شيم الأقوياء ، الأشداء .

وفيها تطلع بعض ممن لهم اهتمام بأمور السياسة جهة اليابان وأوربا . وقالوا لعل قوة تخرج من هناك تحدث توازنا مع الأمريكان . وغاب عنهم التطلع الى داخلهم وإلى قواهم . غفر الله لأبناء العرب . وفيها ظهر التفاح الأمريكى الأحمر مزروعا فى مصر . وثمرة اسمها الكانتلوب . وفراولة بدون طعم . وعز الخضار حتى صار ثمن الكيلو من الخيار أغلى من الفراولة . وبيع الحرنكش بالكيلو . وفيها قل إنتاج مصر من القطن ، وأوشك طويل التيلة

على التلاشى ، أعاد الله لمصر قطنها طويل التيلة ، وفيها شطت الأسعار ، وفشا الغلاء ، وأصبح الخلق من أمرهم فى هم عظيم ، وكثير عدد الذين يتحدثون الى أنفسهم فى الطرقات ، تواهم كأنهم سكارى ، حيارى ، وماهم بذلك . ألطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير .

* * *

وفيها أشتد الحر صيفا حتى زاد عن الحد ، وجاء البرد قبل الأوان ، حتى أن الناس شحوا من الطرقات ، وزادت النوات عن الحد ، وقال البعض إن هذا غضب من رب العالمين ، وقال بعض من لهم المام بالعلوم إنما هو ثقب الأوزون . وما بين الذر النووى والثقب الأوزونى تتقلب أحوال العالم وتتغير . فارحم يا كريم .

وفيه وقعت كارثة زاوية عبد القادر ، واغرقت المياه البيوت بعد إنكسار الجسر ، فطفشوا على وجوههم ثم أقاموا فى الخيام المصنوعة من القماش تحت السيول المنهمرة . والرياح العاصفة ، والبرد الوعر ، واعتبر ذلك من علامات السوء ، وإذ وصلت المفاسد إلى شرايين الرى وقنواته . فبدأ الخرق العظيم . وفيها احترقت مخازن عدة ، وقيل الفاعل مجهول . وفيها ظهر الفتوات فى كثير من المناطق حول القاهرة وقلبها ، وفرضوا على الناس الاتاوات والفرد ، وفى الدرب الأحمر هجم واحد منهم على امرأة مطالبا بالاتاوة وعندما رفضت حاول قتلها ، فضربته بسكين فمات لتوه . وقديما عرفت مصر الفتوات ، لكن كان عندهم شهامة ومروءة ، أما فتوات هذه السنة فجلهم من عناة المجرمين .

وفيها كانت واقعة نواب المخدرات ، وأمرها معروف ، وبرغم تنبيه رجال الشرطة المكلفين بهم وكتابتهم التقارير إلى هذه الجهة وتلك ، إلا أنهم أستمروا وتمكنوا حتى أقدم صحفى شجاع على إعلان الأمر والطرق عليه باستمرار ، ولم يبال وجيه أبو ذكرى بما يواجهه من مخاطر حتى تم تصحيح الأمر ، وتقديم الوضح . وبمثل هؤلاء الشجعان من أصحاب الأقلام تستقيم الشئون .

وفيها صدر حكم يعد الأول من نوعه ، قضى بحبس كاتب روائى ، وطابع كتابه وموزعه لمدة ثمانية أعوام . وكتم الأدباء من شعراء وقصاصين وكتاب مخاوفهم .

وفيها انتخب مصرى سكرتيرا عاما للأمم المتحدة ، وهو بطرس غالى . وهو مشهود له . مقدر . فابتهج المصريون لذلك .

وفيها تزوج شيخ عربى صبية مصرية صغيرة ودفع لأهلها الفقراء قرشين . وبعد سفرهما تبين الأمر ، إذ تزوجها ليأخذ كليتها ويزرعها فى جسد ابنته ، استغاثت الصبية بالطبيب المعالج ، وجرت محاولة لانقاذها وفيها دهست سيارة ثلاثة شباب ، اثنان من الكويت ، وآخر من مصر . وجاء والد أحد الشابين فانقذ ابنه وصاحبه الكويتى ، وترك المصرى يواجه مصيره . فاصيب بعجز وعاهة . وتحدث الناس فى ذلك بعد أن فضح الأمر بقلم صحفى شجاع هو عبد السلام داود . والغريب أن الوالد الكويتى الذى تقاعس عن إنقاذ الشاب المصرى يقال له مثقف ، أى ممن يهتمون بالقراءة والكتابة ، فكيف لم يرق قلبه لمن هو فى مثل عمر ابنه ؟

وفيها كانت كارثة السفينة التى غرقت فى البحر الأحمر ،

ومات فيها أكثر من أربعمائة إنسان ، وبعد أن كثر القيل والقال ، خف الأمر تدريجيا إلا عند أسر الضحايا الذين حاروا بين لوعة الفقد وصعوبة إنهاء المعاملات ، وصرف التعويضات . إلا ان كلاً من الذين أثره فى البحر . راح كل منهم على أمره ، وضاع اثره ، واختفى خبره ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفيها كثر الكلام عن حقوق الإنسان .

وعز وجود الطماطم بسبب البرد .

وطالب البعض بإتقاء الله ، والاتعاظ بما جرى للآخرين ، وممن مات فيها أمير الطرب والغناء محمد بن عبد الوهاب ، وكبير ادباء الأقصوصة بلا منازع يوسف إدريس ، وتساءل البعض ، ماذا نحن فاعلون والقرن على وشك الإنتهاء ؟

وكثر الطلب على الليمون البنزهير لمقاومة نزلات البرد وحرقان الحلوق ، وشدة الاكتئاب .

وفى كل الأحوال ، نحمد الله على خروج عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف ميلادية على خير ، ونأمل فى العام الجديد خيرا ، ان يبلغنا فيه بعض مما نتمنى وليس كله . فبلوغ الأمانى الآن صعب . وعر ، والاستمرار فى الحياة نعمة فى حد ذاته ، ونرجوا من البارئ الكريم أن يشملنا بلطفه ويجنبنا ما جرت به المقادير !

◇ تشريفة..

يناير ١٩٩١

الوقت مبكر..

المدينة تستيقظ على مهل . اليوم سبت تكون حركة المرور أخف ، عندما وصلنا إلى طريق صلاح سالم واستدار صاحبى قاصدًا شارع الأزهر ، رأينا الجند متراصين . على مسافات متساوية توزعوا ، واحد وجهه إلى الطريق . الذى يليه يقف عكسه ، وهكذا ، تذكرت يوم الإحتفال الكبير بعودة طابا . نزلنا مطار رأس النقب وركبنا الحافلات الى المنطقة المحررة بعد المفاوضات الشاقة . آخر جزء من تراب الوطن الذى كان محتلا ، فى الطريق الجبلى اصطف الجند بنفس النظام والذى يطلق عليه المصريون وصف «تشريفة» ، كانوا فى الخلاء مصطفين ، واحد يقف مواجها الطريق ، والآخر عكسه ، أى يولون وجوههم تجاه صخور الجبل ، وفى مواضع معينة كانت وجوه بعضهم تكاد تلامس الجبل لأنهم أمامه مباشرة ، المنطقة خلاء محض ، حتى أننى تساءلت ، أى خطر يتقون ؟ خاصة إذا كان الإنسان موليا وجهه تجاه صخر اشم يصعب تسلقه أو قدوم أى كائن حى منه . ربما لم يوضع الاعتبار ، لأنها تشريفه والكلمة موحية . فوقوفهم شرفى ، أكثر منه وظيفى ، ويؤكد ذلك خلو أيديهم من السلاح ، من العصى حتى ، عدد هائل من الجند ، يتخللهم على مسافات ضباط ذوى رتب عالية ، بعضهم يمسك أجهزة الاتصال الصغيرة والتى انتشرت فى السنوات الأخيرة ، وكان يمكننا أن نميز بعض جنود الشرطة السريين على جانبى الطريق ، يقفون فى وضع ثابت بشى بهمتهم أو صفاتهم ، أما ضباط المباحث فيمكن التعرف عليهم من الملبس المعتنى به ، وهيئة الوقوف ، وطبيعة الحركة ، وكان بعضهم أيضا يمسك تلك الأجهزة الاسلكية الصغيرة .

دخلنا إلى شارع الأزهر ، مررنا بمسجد الأمام الحسين ، أحب

رؤية الميدان الجميل فى الصباح ، واستسلم لصور قديمة متعاقبة . عندما كنت أعبره مرات يوميا لأكثر من ثلاثين عاما متصلة . فيه سعيت ، وعرفت صحبى ، وخفق قلبى لمن أحببت وفى هذا الميدان وصلتى به أود لو وضعت كتابا ضخمًا ، يحوى كل شاردة وواردة . ميدان الحسين مركز القاهرة الروحى . ومنه تمتد الخيوط اللامرئية إلى سائر أولياء الله الصالحين . غريب ومثير أمرنا . أشد مناطق القاهرة حيوية ، وأكثرها إنسانية تلك التى تقوم حول أضرحة الشهداء الأولياء ، القديسين ، فكأن جذوة الحياة تستمد وقودها من الماضى وتستمر به إلى المستقبل ، والحياة والموت معًا .

أتمتم بقراءة الفاتحة على روح سيد الشهداء أجمعين ، وتمضى السيارة عبر شارع الأزهر لتبدأ طلوع الكوبرى العلوى الخالى من كل ذوق ، أسوأ مدخل إلى أغنى منطقة فى العالم بالآثار والتاريخ .

جنود التشريفة يصطفون فى الشارع ، لابد أنه رئيس الدولة الإفريقية الصغيرة المطلة على المحيط الهندى ، كان هو الوحيد الضيف الرسمى فى تلك الأيام ، لا أذكر غيره ولكن فوق الكوبرى يتكاثف المجندون . بدءا من مطلع الكوبرى وحتى منزلة فى ميدان الأوبرا يقفون على الجانبين ، مع أن الكوبرى يندر أن ترى فوقه أحد المشاة لأنه مخصص فقط للعربات !

مخبرون ، أى أنهم المفروض لهم صفة السرية ، لكنهم يقفون فى هذا المكان المكشوف تماما ، يتطلع كل منهم أمامه أو خلفه ، يستند بعضهم إلى الحاجز الحديدى .

هكذا أتيح لى أن أرى أكبر عدد من الشرطة السرية ، والحق أن اختيارهم يدل على خبرة عظمى .

هذا شاب نحيل جدا . رفيع العنق ، يرتدى نظارات طبية ويلف

كوفية حول رقبته ، ألا يشبه بعض المثقفين الذين أعرفهم ، يبدو وكأنه أفنى عمره فى القراءة والكتابة ومناقشة القضايا الفكرية والشك! هذا الرجل الممتلئ قليلا ، الأصلع ، يرتدى معطفا من الواضح أنه اشتراه مستعملا . تبرز ياقة قميصه ويدس يدية فى جيبه ، يمكن أن يكون تاجرًا صغيرا ، أو بقالا ، أما هذا الطويل الذى يرتدى حملة قدمية الطراز ، بنطلونها واسع من أسفل ، فيشبه بعض الموظفين الذين امضوا عمرهم فى الأرشيف أو الوظائف الصغيرة ، من حملة المؤهلات المتوسطة ، كانوا فيما مضى مهابين ، يمسك الواحد منهم منشة ، ويضع وردة فى عروة جاكتته ، مرتبة الثابت يؤهله لمكانة اجتماعية . والزواج من ابنه ناس طيبين ، كان ذلك فيما مضى ، عندما يقول الناس «إن فاتك الميرى تمرغ فى ترابه» ، ولكن مع الزمن الذى لا يبقى على شئ كما هو ، اهتزت هيبة الميرى ، وترنح الجنيه تحت ضربات التضخم وسوء الأحوال وتعاقب النظم المختلفة . حتى أصبح الذين ينتمون إلى الميرى من أغلب الخلق !

هذا مخبر شاب ، جيل جديد ، إنه مشوق ، وفى ملابسه درجة من الذوق والعناية ، إنه يشبه بعض المترددين على مقاهى وسط المدينة ، أو النوادى فى الضواحى لمقابلة المعارف .

تلتقى عيناى بعينى البعض ، فى لحيظات مرور السيارة بهم ، هذا نحيل وذاك طويل . هذا بدين والآخر نحيف ، هذا أسمر الآخر قمحى . هذا يبدو من الصعيد ، والآخر من الشمال ، وكان احدهم يشبه الناقد المعروف عبد الرحمن ابو عوف شبها عجيبا تصل السيارة إلى ميدان الأوبرا ، أرى من جديد اصطفاف الجند . كلهم يرتدون الملابس الشتوية . الأحذية الضخمة كم ساعة امضوا فى هذه الوقفه ، وكم سيمضى عليهم ؟ أى الأمور يفكرون فى هذه الوقفه المنضبطة ؟

أسأل نفسى ، كيف يوجد هذا العدد الهائل من الجند ويضعف الإحساس الآمن ، لا أذكر القائل إن الأمن احساس بالدرجة الأولى ، وهذا الإحساس يتولد من ترتيباته ، زمان . . كان جندى الشرطة التقليدى يجوب الشوارع ليلا مطلقا صيحته الشهيرة . وكان كل مواطن ينام مطمئنا ، هاجعا ، كان هذا الشرطى مهمته أمن المواطنين أساسا ، ولكن الإحساس بالإمن ضعيف الآن لغياب الشرطى المسئول عن أمن المواطنين مباشرة . برغم وجود هذا العدد الهائل المصطف فى الطوابير وهؤلاء الذين يرتدون الملابس السوداء والمدربين تدريبا عاليا ، ولكن لمهام أخرى ، لا تتصل مباشرة بمقاومة اللصوص ، والمجرمين ، وتلك الجرائم التى بدأت تنتشر فى وضح النهار ، هناك مناطق كاملة فى القاهرة يسيطر عليها الفتوات الآن ، يأخدون من الناس الأتاوات مقابل السماح لهم بالحركة ، يذكرنا ذلك بفتوات عالم نجيب محفوظ الذين ظهروا فى العصر المملوكى والعثمانى ، ليحلوا محل الشرطة التى كانت مهمتها فى ذلك العصر البعيد تأمين جهاز الدولة ، وليس تأمين المواطنين . عندئذ خلق هؤلاء وسائل أمنهم الخاص ، ولكن فتوات زمان كانوا يستندون أيضا إلى تراث قديم من الرجولة والشرف ونصرة الضعفاء ، أما فتوات زماننا فمعظمهم من المجرمين العتاة ، وعندما يظهر هؤلاء ، يكون ذلك نذير . . وأى نذير ، عندئذ إما أن يسعى كل منا لتأمين نفسه ، أو يردد مستسلما هذا الدعاء الذى يتردد عقب كل آذان من فوق مئذنة مولانا الحسين :

«ألطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير . .»

* * *

عنصرية بغيضة:

.. من أهم الكتب التى صدرت مؤخرا فى تقديرى «هل فرنسا عنصرية؟» للصحفى المصرى شريف الشوباشى مدير مكتب الأهرام فى باريس ، يقدم صورة دقيقة وشاملة قانونيا وتاريخيا واجتماعيا لوضع المهاجرين المسلمين فى فرنسا . ويجىء صدور هذا الكتاب فى توقيت هام تتصاعد فيه حدة العداء للعرب وللمسلمين فى الغرب ، خاصة بعد حرب الخليج . وإنهيار الاتحاد السوفيتى ، وانفراد الولايات المتحدة كقوة عظمى بالعالم . الكتاب مثير ، وفيه تفاصيل عديدة عن وضع العرب والمسلمين . والقوى المعادية .

للإسلام فى الغرب عامة وفرنسا خاصة ، والقوى المدافعة عن ضرورة الحوار واحترام عقائد الآخرين ، فالغرب ليس وحدة مصمته ، واتجاه واحد . التفاصيل عديدة ولكننى أتوقف أمام واقفه أعجب من إنها لم تحدث أى صدى فى الصحافة العربية ، لا تلك التى تصدر فى أوروبا ، ولا فى العالم العربى . هل تذكرون صحفيا فرنسيا اسمه جان بيرونسيل ؟ إنه ذلك الصحفى مراسل لوموند الذى طرده الرئيس السادات من مصر بعد أن دأب على مهاجمة العرب والمسلمين ، وكانت مقالاته التى يكتبها من مصر تحض على الفتنة الطائفية فى يوم ٢٥ نوفمبر الماضى كتب بيرونسيل مقالاً فى لوموند عنوانه «انتقام القدر» تعليقا على انتخاب الدكتور بطرس غالى امينا عاما للامم المتحدة استهله بقوله : ياله انتقام من القدر حققه ابن البورجوازية القبطية الكبيرة ..» ثم تباكى على مصير الدكتور غالى فى مصر حيث لم يكن ممكنا ان يصبح رئيسا للديبلوماسية المصرية ولا حتى سفيرا

فى باريس . وهو الحلم الذى ظل يراوده طويلا كما يقول كاتب المقال والسبب فى هذا كله - كما يقول بيرونسيل - أن الدكتور غالى قبطى ، ويعلق على هذا الوضع قائلا بالحرف ، إنه فى مصر المسالمة والمتحضرة التى تحظى فى العالم كله بالتقدير فإن مخلفات وضع الذهيين (وهو وضع الحماية بالنسبة للاقباط) مازال يغلب ديانه الإنسان على كفاءته وحتى على المصلحة الوطنية . ثم يمضى بيرونسيل قائلا إن مصر لم تساند بطرس غالى سوى نصف مساندة عندما تردد اسمه فى انتخابات منظمة اليونسكو ووكالة غوث اللاجئين .

هذا ما كتبه بيرونسيل .

كان المقابل عنيفا ، مليئا بالاكاذيب . أثار استياء المسلمين والأقباط معا ، وانتظر العرب أى رد فعل على بيرونسيل ، ولكن لا المستشار الصحفى فى باريس تحرك . ولا السفير المصرى ، ولا أى مسئول آخر ، وتباكى البعض على المرحوم حمادى الصيد الذى كان مديرا لمكتب الجامعة العربية فى باريس ، ولم يكن يدع مقالا كهذا يمر ولا ويبادر بالرد عليه . غير أن شريف الشوباشى بادر ، لم يستطع ضميره الوطنى أن يدع مقالا كهذا يمر حتى مع صمت السفير . وسكوت السفارة ، كتب ردًا نشرته لوموند فى الخامس من ديسمبر الماضى ، اى بعد عشرة أيام من ظهور مقال بيرونسيل المسموم . قال شريف فى مقاله الذى نشر فى مكان بارز بالصفحة السادسة إن المقال صدم كل المصريين الذين قرأوه ، وقال أن أول سفير مصرى فى باريس بعد ثورة يوليو كان قبطيا وهو السفير عدلى اندراوس . وقال إن الدكتور بطرس غالى لم ينتخب عن طريق ارسال خطاب شخص إلى منظمة الأمم المتحدة ، ولكن الحكومة المصرية قامت بترشيحه ،

وانه تم تجنيد الديبلوماسية المصرية بالكامل خلال الشهور الأربعة السابقة من أجل إنجاح ترشيح الدكتور غالى وأن وزارة الخارجية الفرنسية وكبار المسئولين فيها يعلمون ذلك . وخاطب كاتب المقال المسموم مباشرة قائلا : يمكنك أن تعلم من الرئيس ميتران شخصيا كم مرة اتصل به الرئيس حسنى مبارك طالبا دعمه لترشيح الدكتور غالى . ثم قال شريف الشوباشى . ان الاقباط فى مصر بينهم نائب رئيس الوزراء . والوزراء . والسفراء ، ولواءات فى الجيش والبوليس إلى جانب المناصب الهامة فى الدولة ، أما فرنسا التى يعيش فيها حوالى ثلاثة ملايين مسلم فرنسى فلم تشرف واحدًا منهم إلى يومنا هذا بمنصب من مناصب الدولة الهامة .

واختتم الشوباشى رده قائلا بسخرية أن الدكتور غالى ظل لمدة أربعة عشر عامًا وزيرا مؤثرا فى الحكومة المصرية ، وأن الكثيرين يتمنون أن يتعرضوا لمثل هذا الاضطهاد الذى يتخيله كاتب المقال .

هذا الرد الهام الذى نشر فى لوموند لم يشر إليه أحد أيضا فى الصحافة المصرية أو العربية ، والحق إن كتاب شريف الشوباشى يتضمن صورة عامة وخطيرة لما تدبره وتشيعه بعض القوى على الطرف الآخر من البحر ، ويشير إلى كتب خطيرة لم نسمح بها صدرت تهاجم الإسلام ورسوله الكريم وتم الترويج لها على نطاق واسع خاصة بعد حرب الخليج . وإننى لأرى رأيه . ضرورة ترجمة مثل هذه المؤلفات والرد عليها حتى نعرف أى نظرة عند القوى المعادية للعرب والمسلمين الآن ، ولكن للأسف نجد عندنا أن بعض المشاريخ ورجال الدعوة مشغولون بشن الغارات على الكتب ومصادرتها مقدمين بذلك أفضل مادة ممكنه لتغذية حملات أعداء العرب والمسلمين !

فى التبراء

فبراير ١٩٩٢

بالقطع .. فى الأمر شىء .

شىء يستعصى على الأدراك ، على ما نعرفه بعقولنا ، فكم من العوالم والاسرار لم نفقهها بعد .

مررت بتلك اللحظات مرتين ، الأولى فى باريس ، بالضبط ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر عام ثمانين وتسعمائة وألف ، كنت فى سبات عميق ، متمددا فوق أريكة فسيحة تتحول إلى سرير . كانت أول ليلة فى باريس وصلت قادما من روما ، نزلت بيت صديقى على الشوباشى ، لا أذكر لحظة استيقاظى حتى الآن إلا ويمر بى شعور غريب ، ذلك الشعور المصاحب للخوف من عودة التجارب الأليمة .

استيقظت على حال ، حال يلفنى ، يعبرنى ، عنيف ، كأن الصاخة أدركتنى ، لا أقدر على وصفه تحديدا ، كنت متسارع الأنفاس . دقات قلبى تهرع راكضة ، كل منها يحاول التجاوز ، تلفنى الى جميع الإتجاهات معًا وكأننى دوهمت فجأة . أما عرقى فغزير .

بشكل ما تركز الحال حول أبى .

ماذا جرى ؟

اختلطت ملامح المكان ، كانت الجدران مغايرة ، والمدينة نائية جدا عنى ، وقفت هلعًا ، متلفتا حولى ، ويبدو أننى أحدثت ضجة ما ، إذ جاء على من غرفته ، راح يهزنى ، ممسكا كتفى ..

- إيه مالك ؟

بدأت أعى ، إذن . . أنا لست فى القـــاهرة ، وهذا بيت صاحبى ، شيئا فشيئا بدأت أصل من جديد إلى المكان . .

إذن أنا فى باريس .

قلت لصاحبى إنه كابوس ، كابوس مخيف . والحق أنه لم يكن كذلك . لقد تعايشت مع كوابيسى وأعرف أعراضها ، وآثارها ، خاصة تلك التى تدركنى فى أيام الجهامة والقتامة . كان حالا لم اعرف مثله .

سألت عن الساعة .

قال على إنها الثالثة والثلث .

عدت إلى مرقدى هائما ، موزعًا ، أما حضور إلى فكان يملأ المكان . قلت لنفسى مهدئا : هل سأصدق الأحلام ؟

ولكنه لم يكن حلمًا قط .

بعد أن سافرت ، وعدت ، وأتانى النبأ العظيم ، وقفت وحققت ، وعلمت إن والدى - رحمه الله - أغمض عينيه إلى الأبد فى تمام الثالثة والثلث فجر الثامن والعشرين من أكتوبر .

الثلاثاء - الأردن:

البتراء . كنت النزيل الوحيد فى الفندق المطل على عاصمة الأنباط القديمة ، جئت لزيارتها فى اطار مشروع فرنسى - أردنى مشترك ، يستضيف عددًا من الكتاب العرب والفرنسيين لتسجيل إنطباعاتهم عن المدينة العجيبة المحفورة فى الصخر ، اخترت هذا الموعد ، الأسبوع الأول من فبراير الحالى ، ولم أدر أننى سوف

أشهد اعنف طقس شتوى مرّ بالمنطقة . عواصف ثلجية . فيضانات ، أمطار لم تتوقف .

كانت البتراء معزولة ، فالطرق المؤدية إليها غير سالكة ، المنطقة الجبلية وعرة ، وآخر فوج للسياح غادر أمس ، فى المساء لزمت غرفتى ، أتابع أخبار الطقس وما يجرى فى العالم ، وأدخل داخل ذاتى ، قدرت اعتبارها خلوة مع النفس ، بصحبتى الكتب التى لا تفارقنى عند الرحيل .

القرآن الكريم . ديوان الحماسة لابى تمام . ألف ليلة وليلة .

غفوت بعد منتصف الليل . لا أظن أن نومى طال أكثر من ساعتين ، لكننى استيقظت أثر حلم مزعج ، جلست فى السرير ، مستعياذا بالله ، رازحا تحت شعور ثقيل بالكآبة ، وحال مماثل لذلك الحال الذى مرّ بى ليلة رحيل أبى . لكنه لم يكن بنفس الدرجة من العنف ، والقدرة على الاحتواء .

ماذا فى مصر ؟

أصبحت أتوجس خيفة من السفر ، حتى أننى لأخاف الاقتراب من الهاتف ، أخشى سماع نبأ مزعج ، أو أن أرصد فى صوت من أحب رنة او اختلاجة مصدرها محاولة اخفاء شىء ما . وهذا من اسباب كراهية للسفر خلال السنوات الأخيرة .

فكرت فى المنطقة النائية ، والثلوج ، والعزلة وحاولت العودة إلى النوم .

عمان : بعد ظهر الخميس:

بمجرد وصولى العاصمة الأردنية ، قبل أن أبدل ثيابى بدأت الإتصال بعدد من الأصدقاء ، فاروق القاضى صحفى وكاتب

مصرى مقيم هنا منذ سنوات ، وقبل ذلك صديق عزيز ، عمل لسنوات طويلة فى صفوف الثورة الفلسطينية ، قال لى :

- كنا نخاف عليك .. العواصف الشديدة أزعجتنا .. ثم تغيرت نبرات صوته فجأة ، قال :

- هناك أنباء سيئة من مصر ..

وهذه المرة أدركتنى الصراخة فى اليقظة ، قال مجيبا على تساؤلى الحاد ، الموجز .

- فيليب ..

- ما له ..

- تعيش انت ..

ياه ..

أى مباغته ، أى قدرة هائلة للموت على المفاجأة ، على إثارة الروع ، بعد أن ظننت أننى تحصنت ضده بعد رحيل الوالدين الكريمين .

اتصلت بالقاهرة . علمت من زوجتى بعض التفاصيل خاصة رقدته الهادئة التى وجدوه عليها ، تماما كذلك الهدوء الذى كان يبدو عليه ، ولكنه يخفى غليانا داخليا هائلا ، هكذا كان رحيله ، هادىء المظهر ، لكنه فجر أحزانا مروعة . وخلق حالة كانت مصر فى حاجة إلى إدراكها ، هذا المشهد المهيب الذى جرى فى كنيسة مصر الجديدة .

* * *

فيليب جلاب .

لا يمكننى الإفاضة فى الحديث عنه الآن ، يقولون إن الحزن يولد كبيرا ويصغر عكس جميع الأشياء ، لكن ما للحزن عليه لا يهدأ ،

حزن خاص لما يمثله رحيله فهذا جيل نبيل يغرب ، انحاز الى الناس البسطاء ، وضحى وقاوم ، لكنه فوجئ بانهيار كافة ما عمل من أجله ، وتبدل الأحوال بظروف لم تخطر على بال ، وأصعب ما يواجه الإنسان أن يشعر بالنفار مع ظروف لا قبل له بمقاومتها ، إما محاولة التوفيق بين المتناقضات ، فقد يدفع المرء الصادق حياة ثمنا لها .

تطلعت إلى الثلج المنهمر بغزارة ، وأينما وليت الوجه كان يطالعنى ، وباطراقته الهادئة ، وعينيه اللتين تعكسان اعماقا تفور بما لا يعلن عنه . وكنت رازحا تحت حزن عميق ممتزج بندم ما بعد فوات الأوان ، إذ كنت نائيا عنه خلال الشهور الأخيرة !

بعد أن عدت إلى القاهرة سمعت الكثير عن مشهد وداعه المهيب . وقد عشت فى الأردن يومين شهدت خلالهما الأثر العميق الذى تركه . قابلت أدباء ، وصحفيين ، وأساتذة جامعة ، وأصحاب مهن شتى ، كان كل منهم يبادرنى قائلا :

- البقية فى حياتك . .

وقبل أن ألقى محاضرتى فى مؤسسة عبد الحميد شومان ، ألقى الدكتور أسعد عبد الرحمن كلمة عن فيليب ، وقف الحاضرون دقيقة حداداً عليه ، فى نفس القاعة حاضر فيليب قبل شهور قليلة ، كل من ألتقى به حدثنى عن حزنه العميق ، وصمته المتصل .

قال لى الصديق جودت البرغوتى ، وهو من المقربين إلى فيليب إنه اتصل به فى السابعة مساء ليلة رحيله ، وجد صوته واهنا ، سأله عما إذا كان يشعر بتعب ؟ . فقال له إنه يستريح قليلا . ثم تحدثا لمدة نصف ساعة .

أخبرت شيخنا عبد الوارث الدسوقى بمكالمة جودت البرغوتى ، فقال لى إن فيليب إتصل به فى منتصف الليل أى قبل أن يغفر إلى الأبد ، وحدثه عن مكالمة جودت .

ربما تكون تلك المكالمة الأخيرة !

بعد عودتى انقضى يومين قبل أن اجرؤ على الإتصال بأستاذنا محمد عودة ، أدرك مدى فجيعته ، قال لى الرجل الذى عرف ثقيل التجارب أنهما كانا من المفروض أن يذهبا يوم الأربعاء لخطبة أحد محررى الأهالى ، وإنه قال لفيليب مداعبا ، اخيرا احتجت ولى امر ، ويجب ان تتعلم قراءة الفاتحة لاننا سنقرأ الفاتحة مع والد العروس .

قال الأستاذ عودة إنه إتصل به ظهراً لترتيب موعد لقائهما ، فوجئ بوائل ينهى إليه النبأ .

* * *

يروعنى الفقد حتى ليفقدنى توازنى ، ويحول بينى وبين أداء الواجبات الاجتماعية احيانا ، والآن ، لا أجد الأسطور وائل فيليب جلاب . ابنه الذى داعبته طفلا صغيرا ، ورأيته العام الماضى عندما التحق باخبار اليوم للتدريب ، هذه السطور تقول كل شىء ، إنها من أفجع المراثى ، وأقوالها ، واكثرها نفاذا .

يقول وائل :

ذهبت ولم أقل لك بعد كم احبك .

فلا يؤرقك هذا ولا يؤرقنى . لأن كل الأشياء سيكون عليها ان تذكرنى إلى النهاية بشىء كان بيننا ولم نقله ، شىء لعل أنبل ما

فيه اننا لم نقله . لينسجم هذا مع الصمت الذى غدا – مع الأسف – نهائيا !! سيظل مجدك هو مجد الرجال الذين لم يستسلموا ، الرجال الذين وجدوا فى الأرض وجدها سببا كافيا للدفاع عن الأرض دون مساومة ، الذين لم يمنعهم ذكاؤهم من اختيار المصير النبيل . دون ثمن .

هؤلاء الرجال الذين لا يحتاجون – عندما تحين النهاية – لتبرير النهاية ! لانهم يأنفون من كل ما يهين القلب الشجاع ، وفى سبيل فكرتهم عن أنفسهم يكونون مستعرين حتى لنبذ مطالب الحنين والتعزى ، ليعيشوا ويموتوا كما ينبغى للرجال .

أحبك . وأحب الأرض التى تمنحها لى ذكراك . وأحب حتى الأيام التى ستنظرك بلا جدوى .

أحبك يا صاحب الموت المختصر .

* * *

الجمعة صباحاً :

أتطلع إلى وجهى فى المرآة . إلى الشعر الأبيض الذى ينتشر بسرعة ، إلى الملامح المجهدة ، أى دلائل اكتمال غربة وعرة فى واقع صعب . يصعب علىّ تغييره ، لذلك تتقطع به الأسباب واحدا بعد الآخر .

المهم أولا واخيرا ، أن نخلص لما آمنا به ، أن نمضى كالرجال . وألا ننحنى أبدا ، أن نحافظ على سلامة الجوهر ، وآه يا وائل لو تعرف كم يكلف ذلك فى هذا الزمن البغيض .

مارس ١٩٩٢

ماجى..

.. فى الحادية عشرة ، ضعيفة البنية ، متوقدة الذكاء ، قوية الإرادة ، بقدر ما أبدى والداها قلقا إزاء إصرارها على الصيام بقدر تصميمها .

فى اليوم الأول عادت من المدرسة شاحبة ، متعبة ، ألقت حقيبتها الثقيلة . التى تفوقها وزناً بما تحويه من كتب عديدة وكراسات ، تمددت متعبة وراحت فى نوم عميق .

على مائدة الإفطار انتظرت حتى قال المؤذن «أشهد أن لا إله إلا الله» . رفعت كوب قمر الدين . راحت ترشفه على مهل ، بدت راضية واثقة .

سألتها أمها عن متاعب الصيام ، فقالت أنها شعرت بدوار خفيف ، لكنها احتملت . وأنها تشعر برضا الآن ، قالت ماجى إن بعض زميلاتها مفطرات ، ولكن معظم الأخريات صائمات ثم قالت إن صديقتها وزميلتها فى الفصل دينا صائمة أيضا . رفضت أن تشرب ولو جرعة ماء أمامها ، ولم تحضر معها الشطائر اليومية التى كانت تأتى بها يوميا من البيت ، لم تشرب كوكاكولا ..

دينا صديقة ماجى .

دينا قبطية «وماجى مسلمة» دينا أقرب صديقاتها . قالت ماجى أن دينا شجعتها عندما رأتها مغمضة العينين . يبدو عليها الإرهاق . قالت لها ماجى أنها متعبة بسبب قلة النوم ، تسهر إلى ما بعد منتصف الليل تشاهد برامج التليفزيون .

فى اليوم التالى جاءت ماجى ممسكة بلوحة ملفوفة ، فردتها رسم جميل لفانوس رمضان ، ألوان زاهية ، وخطوط قوية ، جملة خطت بحروف كبيرة . . .

كل سنة وأنت طيبة يا ماجى .

صاحبتك : دينا

قالت الأم بتأثر .

. . بكرة لازم تعزميها عندنا على الفطار . .

قال الأب بعد انصراف ابنته إلى المذاكرة . .

. . عالم الصغار أكثر براءة . .

. . عندما أصدر العملاقان مصطفى وعلى أمين أخبار اليوم عام أربعة وأربعين وتسعمائة وألف ، سعيا إلى ضم صفوة كتاب مصر إلى الدار الجديدة ، حتى أولئك الذين يختلفون معهم فكريا ، أو موقفا .

هكذا انضم إلى أسرة أخبار اليوم طه حسين ، وتوفيق الحكيم ، وكامل الشناوى ، وإبراهيم المصرى ، وأحمد الصاوى محمد ، وفى مرحلة متقدمة انضم سلامة موسى ، الاشتراكى ، سعى إليه مصطفى أمين وهو يعانى عزلة وضيقا . وأصبح من كتاب يوميات الأخبار .

فى الستينيات . كان الأستاذ أحمد بهاء الدين فى زيارة إلى مكتبة فى وسط المدينة ، أظن أنها الأنجلو إذا لم تخنى ذاكرتى . فوجىء بصاحبها يعرض عليه بعض الكتب النادرة التى تحمل اسم العقاد ، أبدى الأستاذ بهاء دهشته ، قال له صاحب المكتبة الذى كان يخصص ركنا ثابتا فى مكتبه لجلوس العقاد . إن الكاتب الكبير يعانى ضائقة وأنه اضطر إلى عرض بعض كتبه للبيع . وأى كاتب كبير يعرف تماما معنى أن يضطر أديب إلى عرض بعض كتبه للبيع ، هذا أقسى من بيعه قطعا من جسده !

تأثر الأستاذ بهاء ، ذهب إلى مصطفى أمين ، قص عليه ما جرى ، عندئذ بادر الرجل العملاق على الاتصال فوراً بالعقاد عرض عليه أن يكتب فى الأخبار يوميات الأربعاء مقابل مكافأة كبرى بمقاييس هذه الفترة ، أربعمائة جنيه فى الشهر . هكذا

ظهرت يوميات العقاد كل أربعاء ، وفى الأربعينيات ، مع صدور أخبار اليوم لم يكن نجيب محفوظ مشهوراً أو معروفا إلا من عدد قليل ، وعندما قرأ مصطفى أمين إحدى قصصه أحس أنه موهبة عظمى ، وكانت إحدى قريبات نجيب محفوظ تعمل فى أخبار اليوم ، طلب منها أن تخبر نجيب محفوظ برغبته فى كتابة قصتين شهريا مقابل أربعين جنيها ، وهذا مبلغ كبير جدا عام أربعة وأربعين فى وقت كان مرتبه من وزارة الأوقاف ثمانية جنيهات فقط .

وعادت قريبة نجيب محفوظ تحمل اعتذاره إلى مصطفى أمين الذى ظن أن السبب هو حماس الكاتب لحزب الوفد الذى كانت أخبار اليوم تتخذ منه موقفا معاديا .

بعد حوالى أربعين عاماً اتضح السبب ، عندما صحبت الأستاذ نجيب محفوظ لزيارة مصطفى أمين ، ولكن يطلع على مجموعة من الصور النادرة لثورة الف وتسعمائة وتسعة وعشرة .

عندما ذكرت الواقعة أمامهما كما رواها لى مصطفى أمين . قال نجيب محفوظ . أنه اعتذر بسبب انشغاله بكتابة زقاق المدق وقتئذ ، ولو التزم بكتابة قصتين قصيرتين فى الشهر لخرج من أجواء الرواية ولما استطاع إتمامها . كان ذلك فى سنة أربعة وأربعين وتسعمائة والف .

القناة الفضائية

أثير مؤخراً موضوع القناة الفضائية السعودية الجديدة ، ومنافستها للقناة الفضائية المصرية ، واستحواذها على أغلبية المشاهدين .

والملاحظ أن مكتب هذه القناة فى القاهرة شديد النشاط . وهذا يعنى أن جزءا كبيرا من المواد التى تقدمها القناة يعتمد على الفنانين والكتاب المصريين .

منذ شهرين أجرت معى هذه القناة مقابلة طويلة لمدة ساعتين وكان مكان التسجيل فى أحد الاستوديوهات الخاصة بالزمالك .

عند دخولى قابلت الأستاذ كامل زهيرى الذى تم تسجيل سهرة معه . وبعد خروجى استفسرت عن الذين تم التسجيل معهم ، فوجدت أسماء ، غالى شكرى ، رجاء النقاش ، يوسف القعيد ، سعد الدين إبراهيم ، أدوار الخراط ، إبراهيم اصلان .

ولا أظن أن أصحاب هذه الأسماء ممن يتعامل معها التليفزيون المصرى ، ربما ظهر بعضهم فى حوارات سريعة ، ولكن . . هل تم التعامل معهم فى برامج موسعة ، أو استطلع المسئولون آراؤهم؟ صحيح أنه لاتوجد قائمة رسمية بمن يجب تجاهلهم . فى زمن سابق كانت هناك قائمة بالممنوعين لأسباب شتى . أهمها وقوفهم بدرجة أو أخرى فى مواقع المعارضة .

سعت القناة السعودية إلى كل من يتجاهله التليفزيون المصرى ، ولا اعتراض على ذلك من وجهة نظرى ، فظهور المثقفين والمبدعين المصريين فى القنوات العربية المرئية من الأجدر ظهورهم بنفس القدر فى التليفزيون المصرى ؟

أقول ذلك وأنا واحد من الزاهدين تماما فى الظهور التليفزيونى والذى يعتقد كثير من الأهل أنه مواز للسلطة ، كثير من أبناء بلدتى جهينة ، أو الجمالية ، يلتقون بى إذا ما ظهرت صورتى أو اسمى فى التليفزيون ، يقولون .

«مبروك . . ربنا يزيدك كمان وكمان» .

وأحيانا يجيىء البعض للتوسط لقضاء حوائجهم ، ومرة رحت اشرح لأب طيب اننى لا أستطيع أن اسعى بأى شكل لالحاق ابنه بكلية الشرطة . هذا مستحيل تماما وبالذات بالنسبة لى ، عندئذ قال معاتبا .

«لكن ازاى مالكش كلمة وأنا لسه شايفك فى التليفزيون» .

التليفزيون يعنى السلطة عند الناس ، فمن يظهر فيه واصل ، أو مرضى عنه ، ما أريد أن أقوله ، هو ضرورة أن يصبح هذا الجهاز متاحاً أمام جميع أبناء مصر من كافة الاتجاهات ، عندما كنت فى البرتغال منذ شهور كنت التقط إذاعة الجزائر بوضوح ، المسئول عنها الآن الروائى المعروف الطاهر وطار ، لفت نظرى أن نشرة الأخبار تحتوى على أخبار الأحزاب المعارضة ، ورأيت فى ذلك خطوة ديموقراطية متقدمة عن تجربتنا . هل سمع أحدنا خبرا عن فؤاد سراج الدين أو إبراهيم شكرى أو خالد محيى الدين ؟

إننا نتباهى عند مواجهتنا الأجانب بالقدر الذى تحقق من حرية التعبير ، ولكن مازال هناك مراحل أكثر تقدما ، أهمها من وجهة نظرى قيام التليفزيون بدور ثقافى أكبر ، أن أنجح البرامج فى التليفزيون الفرنسى برنامج «اوبستروف» الذى يشاهده أكبر عدد

من الجمهور ليلاً ، ولكن الدور الثقافى للتليفزيون المصرى يتصل مباشرة بدورنا الثقافى الذى يعتبر جوهر وجودنا فى العالم ، وأننى لا أطرح تساؤلا الآن . بمن ستواجه مصر العالم بعد عشر سنوات؟ أننا ندعو بطول العمر لرموزنا الثقافية ، ولكن ما من شىء يدوم مع طى الدهر للأعمار ، ومصر مليئة بالمواهب ، ولكن المناخ الثقافى منعدم ، وكما شبهه الأستاذ نجيب محفوظ الأسبوع الماضى فى حوار معه ، قال أنه توجد شموع مصرية عديدة مضيئة ، ولكن لايوجد هواء يحتوى على اكسجين ! ما كان يجب أن يقوم به التليفزيون المصرى ، تقوم به القناة الفضائية السعودية . ألا يدعونا هذا إلى اعادة النظر فى كل ما يظهر على الشاشة الصغيرة ؟

◇ من عملة إلى عملة ..

ابريل ١٩٩٢

.. طلب منى صاحبى أن أرافقه .

لم يختر يوم الأحد عبثا ، فيه تخف الحركة فى القاهرة ، يمكنه أن يجد مكانا لسيارته قرب مقر البنك الذى يقع وسط المدينة ، قال أنه يخشى المشى مسافة طويلة وبيده حقيبة صغيرة تحتوى على خمسة عشر ألف جنيها ، قلت له أن هذا المبلغ لا يعد كبيرا فى أيامنا هذه ، وهناك من يحملون أضعافه ، قال أنه يستحسن الحذر ، فالمدينة لم تعد آمنة ، ولو أن أحدهم ترصده وخطف الحقيبة فلن يمكنه الجرى لوهن قلبه ، ولا فائدة من الصراخ فلن ينقذه أحد ، قلت ساخراً : وهل تنتظر منى النجدة وحالى لايقل وهنا عنك ، قال أننى سوف أبث الطمأنينة بوجودى معه ، عندئذ لم أتردد .

عمل صاحبى عدة سنوات فى احدى البلدان الخليجية ، وأدخر مبلغاً بالعملة الصعبة فى بنك مصرى ، أوروبى مشترك ، وكلما قابلته حمد الله كثيرا أنه لم يضع نتاج كده فى احدى شركات توظيف الأموال ، رغم قلة الفائدة فى البنك بالنسبة للعائد الذى كان أصحاب اللحى الطويلة الكثة يعلنون عنه ، وكان يردد دائما البنك أضمن ، ثم اشترك فى جمعية للاسكان أسسها رجل له ماضى سياسى طويل ، ومثقف من الذين اندمجوا تماما فى الواقع ولم ينفصلوا عنه ، وهو أحمد طه عضو مجلس الشعب عن الساحل حجز شقة فى أحد مشروعات الجمعية ، واليوم عليه أن يودع ما تأخر عليه من أقساط خلال السنوات الأخيرة ، أن يحول جزءا من مدخراته بالدولار إلى جنيهات ، ثم نذهب إلى بنك فى شبرا لايداعه .

الوقت مبكر ، والزحام خفيف نسبيا ، حالفنا الحظ فوجدنا مكانا للسيارة فى مواجهة البنك ، وعندما لمح أحد جنود الشرطة يتطلع إليه بملامح ريفية مجهدة ، أشار إليه فاقترب حاملاً سلاحه إلى كتفه ، دس فى يده ورقة مالية ، ربما نصف جنيه ، وقال أنه لن يتأخر .

اجتزنا المدخل الأنيق ، الأرض مبلطة برخام يلمع ، والهواء مكيف ، ونفر قليل أمام النوافذ التى جلس خلفها الموظفون ، خلفهم مكاتب أخرى ، بعض الموظفات يتحركن بسرعة ورشاقة ، يحملن أوراقا ، الأناقة بادية ، وملامحهن جميلة ، من الصعب أن يرى المرء أمثالهن فى الشارع ، أو المواصلات العامة ، أو فى ميدان العتبة . بعضهن ارستقراطيات الحضور ، احداهن تدخن سيجارة وضعت فى مبسم مذهب قصير ، وكلما نفثت الدخان تراجعت برأسها إلى الخلف فى حركة محسوبة ، دقيقة ، وخيل إلى أن وجود مثيلاتها هو للمظهر فقط ، ولبث الثقة فى البنك وأنه ما من وظيفة حقيقية تمارسها . سمعتها تتحدث بالفرنسية إلى احدى زميلاتها .

لمحت شابا أنيقا ، يرتدى قميصا وبنطلونا . ربطة عنقه حمراء منقوشة تتدلى على صدره . لابد أنه يعلق الجاكتة فى مكان ما الجو دافىء رغم البرودة التى تسود المدينة فى الخارج ، تذكرته ، إنه ابن مدير بنك استثمارى آخر ، مدير كان يحتل منصبا هاماً ، وكنت أراه فى بعض المناسبات العامة ، أظن ابنه تخرج منذ عامين فقط ، أصبحت بعض الوظائف تورث ، هذه ظاهرة جديدة وفكرت فى مشكلة البطالة ، والاعداد الضخمة التى تتخرج من الجامعات والمدارس الفنية والمعاهد ، وأولئك الذين لايتمون فرص تعليمهم ،

وشحوب الأمل فى المستقبل ، واليأس من سلوك الحياة فى مساراتها الطبيعية لانعدام فرص العمل وضيقها .

أمام صاحبى رجل أنيق ، مفتاح سلسلة ذهبية ، راح يتحدث عبر الشباك إلى الموظف ، كانت لهجته سريعة ، مختصرة شأن رجال الأعمال الذين يحسبون كل شىء بالثوانى والدقائق ، سمعته يسأل عن تحويل بمائة وتسعين ألف دولار ، ثم كتب شيكا من الدفتر الموجود فى الشباك . تناوله الموظف ، وراح يلمس ازرار الحاسب الآلى . ثم تطلع إلى الشاشة المواجهة له بتمعن ، على الفور بدأ بسحب رزم الدولارات . لا أدرى كم وضع أمامه . ولكنه راح يدفع بكل منها إلى آلة . سرعان ما سمعت صوتها المعدنى وهى تفر النقود ، ماكينة لعد الأوراق المالية . وعلى شاشة صغيرة تتوالى الأرقام بلون أحمر ، بعد اتمام العد يمسك الموظف برزمة الدولارات . يعيد حزمها من جديد بشريط نحيل من الورق . من فئة المائة دولار ، أى أن كل رزمة قيمتها عشرة آلاف . أى ثلاثة وثلاثين الفا من الجنيهات المصرية .

وضع الرجل حقيبته الجلدية الأنيقة فوق الحاجز الأمامى ، راح يتناول الرزم واحدة بعد الأخرى ويرصها بيد مدربة اعتادت مثل هذا العمل ، تطلعت إلى صاحبى ساخراً . الرجل لا يبدو عليه أى خوف أو حرص من ذلك الذى يشغل بالنا . مع الفارق الهائل بين المبلغين . استدار منصرفاً ، تقدم صاحبى .

راح يكتب الشيك بعناية ، قدمه إلى الموظف . عدت اتطلع إلى الموظفين الجالسين إلى مكاتبهم فى الخلف ، لمحت كاتباً صحفياً شهيراً يعبر بين المكاتب إلى حجرة المدير . عدت إلى صاحبى

الذى راح ينظر بثقة قليلة إلى الماكينة التى تحصى الأوراق المالية ، تناول المبلغ ، هز رأسه شاكراً ، مضى إلى نافذة أخرى فى نهاية الصالة ليبدل الدولارات . كان حجم المبلغ صغيراً بالنسبة للجنيهات المصرية . بعد العد الآلى . تناول الرزم ، رصها أمامه فوق الحاجز ، تطلع إلى منتظراً أن افتح حقيبتى الصغيرة التى اعتدت أن أحملها وداخلها كتاب اقرأ منه عدة صفحات فى المواصلات العامة التى اركبها ، أو خلال اللحظات التى امضيها فى المقاهى التى اعتدت ارتيادها . ابتسمت ، لم أقدم له الحقيبة ، إنما فتحتها لاخرج كيس ورقى أصفر مجعد ، كنت اشتريت فيه كيلو ونصف خيار ليلة أمس ، وفكرت أن نضع فيه المبلغ وبالتأكيد فإن مظهره المتواضع لن يوحى بما يحتويه تطلع صاحبي إلى الموظف الجالس خلف الزجاج الشفاف ، بدا الكيس الورقى غريبا فى صالة البنك الأنيقة ، التى يفيض فراغها بعبير العطور الباريسية .

على مهل راح يضع الرزم أو البكاوى بلغة عصرنا داخل الكيس الذى أمسكه مفتوحا ، تطلع إلينا حارس الأمن الخاص ، ثم مضى على مهل ويديه وراء ظهره ، كان يرتدى قميصا فى لون السماء ، وبنطلونا أزرق ، وقبعة . وعلى كتفيه شرائط غامقة . بعد أن ضممت حوافى الكيس خرجنا إلى السيارة التى كانت تقف وحيدة ، رفعت يدى شاكراً جندى الشرطة ذا الملامح الريفية المتعبة ، سألنى صاحبى

ـ تعرف الطريق إلى روض الفرج ؟

اومأت بثقة ، صحيح أننى لا أعرف القيادة ، ولكننى خبير بشوارع القاهرة قديمها وحديثها .

العملة المحلية :

يقع البنك فى عمارة ربما شيدت فى الأربعينات ، يحتل الطابقين الأوليين ، صعدنا السلم الذى تأكلت درجاته الحجرية ، وفوقه بقع من التراب الذى تجمد لطول المكث .

دخلنا الصالة المستطيلة ، ثمة حاجز خشبى تعلوه نوافذ تتصدر الأقسام الصغيرة التى جلس فيها الموظفون ، للنوافذ قضبان حديدية تتخللها فتحة دائرية يتم التعامل من خلالها ، خلف الحاجز الصالة الرئيسية ، المكاتب الخشبية العتيقة متراصة ، متجاورة ، على جوانبها بقع حبر قديمة ، وجروح ، فى صدر الصالة مكتب من الصاج الرمادى يجلس إليه رجل فى الخمسين أو أكثر ، يبدو أنه المسئول هنا .

المكاتب مكدسة بدفاتر ، بعضها مستطيل ، والآخر مربع ، وأوراق ، ودفاتر ايصالات ، واستمارات مشبوكة بدبابيس إلى أوراق أكبر أو أقل حجما .

على مكتب مواجه كان أحد الموظفين يكتب بيده اليمنى ، ويمسك بيده اليسرى ساندويتش بداخلها باذنجان مقلى ، وعند أقصى الطرف الأيمن للمكتب ، قطعة من ورق الصحف يرقد فوقها النصف الآخر من الرغيف !

اجتاز الصالة رجل يرتدى جلبابا وجاكتة صفراء وطاقية من صوف ، يرفع يده فى الفراغ ، فوقها استقر حوالى عشرة أكواب ، شاى وحلبة ولحت كوبا صغيرا مضلعا به قهوة ، كان العدد أمام النوافذ يقترب من ذلك الحد الذى يبدأ عنده الزحام ، لمحت فى

السقف مروحة من الطراز القديم ، ساكنة ، لن تتحرك قبل الصيف .

كل نافذة تحمل رقماً ، كانت النافذة الثالثة مخصصة للمعاشات ، يصطفى لمامها عدد من النسوة مرتديات السواد ، تبدو عليهن تلك السمات الخاصة بالأم المصرية التى عانت مع الأولاد والزوج وظروف تدبير المعيشة ، وضمان القوت للأسرة بما يصل إلى يديها من دخل محدود . مرة بطاطس مع باذنجان مقلية فى الزيت ، وفى الليل ساندويتشات الجبن والحلوى الطحينية ، زمان كان الحد الأدنى مكفولا للجميع وبأيسر الوسائل ، الآن علبة الحلوى الطحينية الفارغة لاتمتلىء بالفول المدمس إلا مقابل جنيهين ، الأم المصرية هى عماد الأسرة وسقفها ، وبدونها ينفصم العرى ، سواء فى حياة الأب أو بعده .

على الأرض جلس ثلاثة القرفصاء ، يرتدون الملابس الريفية ، والسراويل الطويلة بادية من تحت الجلباب ، كان أحدهم يمسك شيكا بنفسجى اللون لحت عليه اسم الجماهيرية ، لابد أن الابن العامل هناك أرسله ، أو أحد الأقارب .

على الجدار الموجه إعلان عن أوعية ادخارية جديدة . اقتربت من النافذة الرابعة . كان رجل عجوز يعد بحرص عدة جنيهات قدرت أنها لن تتجاوز العشرين ، بينما الموظف يتابعه على مهل .

قال أن حساب جمعية الشهيد فى النافذة التالية . تقدم صاحبى ، كانت الموظفة ممتلئة قليلا ، ترتدى ملابس متواضعة ، قميص غسل كثيرا وكوى أكثر ، وبدأ فى ملامحها آثار جمال غارب ، اتأمل فى الصباح أو عند الظهيرة مثيلاتها من النساء

العاملات يقفن على محطات المترو والمواصلات العامة ، استيقظن مبكرات ، بسرعة يقمن بأعداد الأفطار للأولاد الذين يجب أن يذهبوا فى موعد محدد إلى المدرسة . وللرجل ، وتطمئن على ما ستطبخه عند عودتها ، الأولاد يعودون جوعى وينتظرون ، كذلك الزوج الذى يغضب إذا رجع ولم يجد الغداء معداً ، ثم يتمدد فى انتظار الشاى ولايكلف نفسه عناء حمل الطبق الفارغ إلى حوض الغسيل ، ثم تنظيف البيت ، وترتيبه ، وفى المساء المذاكرة للأطفال ، ثم اعداد العشاء ، وبعد نوم الأطفال من المستحسن أن تتزين وتتجمل لارضاء الزوج والا !!

يوم فى حياة امرأة مصرية عاملة يعنى بطولة متجددة يومية ، يحاصرها دفتر الحضور والانصراف ، واعداد الطعام والغسيل والكواء ومراعاة الأطفال والزوج والبيت ومالا ندريه من عذاب المواصلات وتحرش المجهولين بجسدها وإذا رفعت صوتها محتجة يتطلع القوم إليها شذراً فقد أصبحت الأنوثة تهمة .

ماتأخذى لك تاكسى . .

يعنى هل توفرت الإمكانية وقصرت ؟

أبداً والله . . لكنه المجتمع الذى يتحول إلى غابة . والمرأة كائن ضعيف ، والضعيف مستهدف فى الغابة ، لسبب ما تعاطفت مع المرأة التى لا أعرفها ، ومع النساء المنتظرات صرف جنيهات المعاشات القليلة .

انتبهت إلى صاحبى ، الكيس الأصفر يبدو منطقيا هنا ، بحرص وضعه أمام الموظف النحيل الذى تناول منه النحاسة المربعة التى

تحمل رقماً ، بدأ يسلمه رزمة ، رزمة ، بأيدى مدربة ماهرة ، يخبطها الموظف فوق الرخام القديم . ثم يبل طرف أصبعه ويبدأ العد ، اتابعه معجبا ، سرعة عالية جدا ، أحيانا يلتفت إلى الوراء ليجيب شخصا ما بينما أصابعه مستمرة فى الحركة التلقائية ، أعجب من نفسى إذ أننى لا أستطيع عد ثلاثين أو أربعين جنيها ، بمجرد تجاوزى العشرين أنسى ما أحصيته فأبدأ من جديد !

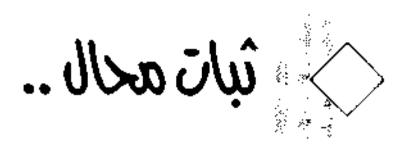
لم يستغرق العد أكثر من عشرة دقائق ، ربما أقل ، انتقلت النقود من الكيس الأصفر ، إلى داخل البنك ، إلى حساب جمعية الشهيد . راح صاحبى يتأمل الايصال الأبيض ، قال :

«ربنا يسهل والشقة بقى تخلص . .» .

بعد أن انتهى تقدمت شابة سمراء ، ناولت الموظف قطعة النحاسة ، كانت تمسك بدفتر توفير بنى اللون ، وثلاث جنيهات قدمتها لتضاف إلى رصيدها .

وكان الهواء داخل البنك مليئا بذرات من الغبار الدقيق ، ودفأ مبعثه انفاس البشر ، والزحام .

ثبات محال ..



ابريل ١٩٩٢

. . أحاول عبثا أن أتذكر المناسبة التى رأيته فيها لأول مرة ، لكن المؤكد أننى كنت أراه بانتظام أثناء انتظاره أمام المصعد الرئيسى بالمبنى القديم للمؤسسة . وفى الممرات التى تطل عليها أبواب الغرف أثناء حركة بين الطوابق المختلفة .

كان ذلك عام تسعة وستين وتسعمائة وألف ، وكان عمله فى مجال مختلف ، يتصل بالإعلانات ، كان وسيماً ، طويل القامة ، رشيقها ، أنيق ، يرتدى باستمرار حلة تتكون من جاكت غامق ، وبنطلون فاتح ، وحذاء شديد اللمعان ، وكان أسود الشعر ، يتحدث على مهل ، ويتحرك بحساب ، وكان البعض يتحدث عن الفتيات الجميلات اللواتى يحطن به باستمرار . قيل أن علاقاته عديدة ، وقيل أنهن مندوبات يقمن بمساعدته خاصة أن مجال عمله مع شركات أجنبية . ودوائر خارجية . لم أعرفه عن قرب ، ولكنه كان يبدو لى دائماً شخصيته مصقولة ، كل ما يمت إليه محسوب ، أما وجهه الخالى من التجاعيد فكان يبدو لى خاليا من انعكاس أى مشاكل داخلية أو هموم كتلك التى أشعر بها ـ خاصة فى هذه الفترة التى يفصلنى عنها الآن ما يقرب من ربع قرن .

لم أنتبه إلى خروجه من المؤسسة إلا بعد مضى وقت طويل ، وعندما سمحت بذهابه كان ذلك صدفة أثناء حوار بعض الزملاء ، ولم أهتم ، لم أتوقف كثيراً ، شأن أسماء عديدة ، ووجوه لشخصيات عابرة تمر بنا أثناء مرورنا بمحيط الحياة ، ثم تختفى بسرعة بدون أن تخلف أثراً حقيقياً ، وقد يبدو أحدها فى أفق الذاكرة لحظة ما ، فيتردد تساؤل مضمونه «ترى أين هو؟ أو هى؟» ، ثم تغيب الملامح الباهتة وربما إلى الأبد .

سمعت أنه أسس مكتبا خاصاً للإعلانات ، وأنه دخل نشاط النشر ، ربما خطر اسمه عدة مرات على ذهنى خلال سنوات عديدة ، وعندما يرد اسم انسان كنا نعرفه علينا فإننا نتذكر ملامحه ، أو بعضها ، دائما كنت أستعيد صورته الأنيقة ، وسامته .

حتى وجدت نفسى بصحبة صديق عزيز نتجه إليه منذ أسبوعين ، كان صاحبى ماضيا إليه لعمل يتصل ببعض أنشطته ، وكان الزميل القديم قد ترك نشاط الإعلانات تماما واتجه إلى مجال الكتب ، افتتح مكتبة ضخمة فى احدى ضواحى المدينة ، كنت متشوقا للاطلاع على ما عنده ، ولم يكن اللقاء به شخصيا يهمنى لأننا لم نكن أصدقاء يوما .

دخلنا قاعة المكتبة الرئيسية . الأرفف بحق عامرة ، العناوين شىء ، لوحات فنية ، اتجه صاحبى إلى غرفة المدير ، بعد لحظات سمعت صوته ينادينى بينما كنت أحدق إلى عناوين الكتب وأقلب صفحاتها .

التفت

ياه . .

هل هذا هو الرجل الذى كان زميلى يوما ؟

كانت الصور تتعاقب على ذهنى بسرعة ، الملامح القديمة الوسيمة ، وما أراه أمامى .

فى وجهه خطوط عامة تنتمى إلى الملامح القديمة . فقط مجرد الهيئة الخارجية ، السمات ، لكن العينان اللتان تنظران صوبى منطفئتان ، مرهقتان ، وكأنهما على وشك الاغلاق ، الشعر الأسود الفاحم ، اللامع أصبح رماديا ، لكن البياض غالب ، أما الذقن

فكلها بيضاء ، بدأ واضحا أنه لم يحلق منذ يومين على الأقل «خطواته أقصر» ابطأ ، تميل قامته إلى الأمام ، وكأنه على وشك أن يهوى» يتقدمه كرش مترهل يدفع بالصديرى الداخلى بعيدا عن البنطلون فيبدو جزء من القميص وزراره المفكوك !

أما ياقة الجاكت فلم يكن عسراً ملاحظة خط رمادى عند الاحتكاك بالعنق ، ثمة اهمال عام فى هيئته ، فى لباسه ، أما أنفه فبرز بشكل ملفت للنظر ، تحيطه وجنتيه المتهدلتين .

كان الواقف أمامى خابيا ، منطفئا ، على وشك الغروب .

وكان الماثل فى ذهنى قويا ، سامقا ، متوهجاً ، أنيقا .

مد يده ليصافحنى ، وكنت أرى آثار خطو الزمن ، فالزمن لا يمكن رصد جوهره أو كنهه . إنما نرى ما يتركه من أعراض فقط فجأة خطر لى بينما يتطلع إلى مرحباً بعينيه المتعبتين . .

ترى . . كيف يرانى ؟

كيف أبدو له بعد انقضاء كل هذه السنين ؟ هل يرانى كما أراه؟

الأرض:

كنت أعبر الطريق فى الضاحية الجديدة ، القريبة من طريق الاوتوستراد متجها إلى موقف المواصلات العامة الذى يجب أن أقطع مسافة عشرين دقيقة مشياً إليه .

الشوارع فسيحة . والأراضى المخططة للبناء جاهزة لدق الأساسات ، عند المنحنى لمحت عدد كبير من السيارات الفاخرة ، كانت تصطف فى مواجهة سور اقيم على عجل ، وانتبهت إلى صوت يرتفع من مكبر صوت ، ولأن الرياح تجيىء من الشمال وتمضى إلى الجنوب ، بدأ الصوت مبتعدا ، توقفت عن أفكارى المتوالية المرتبطة بالمكان . هذه الأرض التى كانت جزءا من الصحراء الممتدة حتى وقت قريب ، ومنذ آلاف السنين يقال أن حضارة نشأت هنا تعرف باسم حضارة المعادى ، قبل التاريخ الفرعونى المدون .

ترى من عاش ، ومن خطا فوق هذا الأويم ، وأى مشاعر أو أصوات ترددت؟ توقفت لأتابع الصوت المنبعث من مكبر الصوت . .

- ستمائة وأربعين . . ستمائة أربعين واحد . . ستمائة وأربعين اثنين . . ستمائة وأربعين اثنين . . آه . . ستمائة وستين . . ستمائة وستين . .

لم أسمع الصوت الآخر الذى رفع العدد ، ربما لبعده عن مكبر الصوت .

إذن . . هذا مزاد .

كان صوت الدلال قويا ، مؤثراً ، يثبت أنه متقن لحرفته ، فعندما يقول واحد . . اثنين ، تعلو نبرته متضمنة تهديدا غامضاً ، وكأن الحسم وشيك جدا ، فعلى من يرغب أن يلحق نفسه عليه أن يسرع ويعلى السعر .

ـ ستمائة وثمانين . . ستمائة وثمانين . .

ستمائة وثمانين واحد . .

عندما يعلن الرقم الجديد يحوى صوته دهشة ، كأنه هو نفسه مفاجأ ، وفرحة أيضا ، وتحريض ، لكن على أى شيىء يتزايدون ؟

قال رجل عجوز يبدو أنه خفير مقيم . .

ـ أنهم يبيعون أراضى الشركة .

إذن هذا المزاد على الأراضى الخالية تلك ، وما اسمعه سعر المتر ، لابد أن أصحاب هذه العربات درسوا الأمر جيدا قبل قدومهم ، ما من شىء أضمن من الأراضى للاستثمار ، الأرض هى المساحة الوحيدة الثابتة ، من أين ستزيد ؟ والكوكب معروف أمره وحدوده بالملليمتر ؟

ـ سبعمائة وعشرة . . سبعمائة وعشرة . . سبعمائة وعشرة واحدة .

إذن وصل المتر إلى سبعمائة وعشرة جنيهات ، تذكرت ما ذكره الوالد الكريم ـ رحمه الله ـ عندما نصحه البعض فى الثلاثينات أن يشترى الف متر من الأرض فى الدراسة ، الف متر بجنيه فقط ، كان المتر بمليم (الآن يتجاوز الألفى جنيه) ، لوح والدى بيده .

ـ هل أرمى جنيهاً فى الجبل ؟

كان يسكن وقتئذ على مقربة من سيدنا الحسين ، وكانت منطقة الدراسة على بعد خمسة دقائق سيرا على الأقدام ، لا . . لن أقع فى الخطأ الذى وقع فيه أبى .

إذن . . هل أدخل إلى المزاد ؟

ولكن من أين المال الآن ؟

ـ سبعمائة وأربعين . . سبعمائة وأربعين واحد . .

لو رغبت فى شراء الف متر . فهذا يعنى ما يقرب من المليون ، وهذا ما يقصر خيالى عنه الآن ، لكن . . الزمن تغير ، ولم اعرف معنى ملكية الأرض ، حتى الأرض الزراعية المحدودة التى ورثها أبى فى جهينة رهنها قيراطا ، قيراطا ، ثم باعها لينفقها على تعليمى أنا واشقائى . وقد كاد يفقد حياته بسببها يوما .

إذن فلأدخل واثقا ، اتقدم بين الواقفين أو الجالسين . . لا أدرى ، وأعلن بصوت مرتفع . .

ـ ثمانمائة . .

سوف يلتفتون مباغتين ، من هذا الذى رفع المزاد هذه الرفعة المفاجئة ، لابد أنهم أولاد سوق ويعرفون بعضهم بعضا ، ستبدو ملامحى غريبة بالنسبة لهم . سأقلب حساباتهم رأسا على عقب ، سيتطلعون إلى بحنق ، وربما بغضب ، وربما جاء من يفاوضنى على الانسحاب مقابل مبلغ !

لا . . سأرفض بحزم ، يمكننى أن أدفع الف جنيه ، نعم .

سأزيد السعر بالمائة حتى الألف ، الف جنيه يمكنني أن أدفعها مقابل متر ، متر واحد امتلكه ، اسجله فى الشهر العقارى ، متر مربع من الأرض ، طبعا عندما انطق الرقم ، سيهلل الدلال طرباً .

ـ الف جنيه . . الف جنيه واحد ، الف جنيه اثنين الف جنيه ثلاثة . .

يدق المنضدة بالمطرقة ، يشير إلى مهنئا ، يلتف جمع حولى ، ربما يفاجأون عندما يكتشفون أننى اشتريت متراً واحدا فقط .

ـ متر واحد ؟ ماذا سنفعل به ؟

الكثير ، الكثير جدا .

أولا سأصبح من ملاك الأراضى ، وملكية الأرض بالذات تبث فى النفس ثقة وقوة ، وربما اضيف إلى بطاقتى عبارة «من ملاك الأراضى» تماما كعبارة «عضو اتحاد الكتاب» التى يذكرها البعض فى رسائلهم إلى أبواب البريد فى الصحف ، وهؤلاء من الذين حشرهم الأستاذ ثروت أباظة حشراً فى الاتحاد لضمان الأصوات الانتخابية !

لن أحيد عن الموضوع . .

سأصبح إذن من ملاك الأراضى بفضل هذا المتر ، وادخل فى حديثى اليومى المفردات الخاصة بالأرض ، أقول لأصحابى .

ـ أنا ذاهب إلى الأرض . .

ـ أريد مقاولاً أمينا ليبنى الأرض . .

ـ اليوم جاءنى مشترى يريد شراء الأرض . .

سأرفع لافتة خضراء عليها حروف بيضاء .

ـ هذه الأرض ملك جمال الغيطانى الكاتب والصحفى بأخبار اليوم .

ربما اطلب مندوبا من مصلحة المساحة لتحديد أبعاد المتر ، أين تبدأ أرضى وأين تنتهى؟ ربما اطلب من صديقى نجاد البرعى المحامى اتخاذ إجراءات حادة ضد كل من تسول له نفسه الاقتراب من أرضى .

يرد اسمى على لسان من أجهلهم .

«هو الذي رفع سعر المتر هنا إلى الف جنيه تصوروا . . ثم اشترى مترًا واحداً» .

لكن هذا المتر كالخاذوق المدبب ، لنفرض أن بنكا استثماريا ، أو سفارة أجنبية ، أو ثريا عربيا اشترى المساحة كلها ، ثم جاء الحين لبناء مشروع ما .

سيجدون هذا المتر فى قلب أرضهم ، ربما يفسد تصميما لبناء ضخم ، ربما يعيق قيام برج للاسكان الإدارى أو الفنى ، عندئذ يسعى أصحابه للاتصال بى ، يعرضون مبلغا هائلا مقابل تنازلى عن الملك ، عن الأرض ، من يدرى . . قد يصل إلى مليون ، عندئذ قد أقبل ، أضع المبلغ فى البنك ، اتفرغ تماما للأدب ، واعيش من الفائدة ، ادخر طاقتى كلها للأدب . .

«يا بنى آدم . . اصحى بقى . .» .

راح قلبى يدق بسرعة بتأثير المفاجأة ، كانت السيارة على بعد سنتيمترات منى .

«حد يمشى كده في وسط الطريق» .

تطلعت إليه صامتاً ، ربما كان أحد الذين حضروا المزاد ، أما الريح فاستمرت تهب شمالية جنوبية تحمل الأصوات والأحلام بعيدا . .

◇ كوردونيرى .. لوزة ..

الجمعة ٨ مايو ١٩٩٢

أن نحتفظ بالأشياء القديمة ، التى انتهى عمرها الافتراضى ، فى كل بيت ركن أو أركان ستجد فيه عجباً ، اطار غربال نشبى ، غطاء خلاط ، علب فارغة ، زجاجات أدوية بها بقايا نفد مفعولها منذ سنوات ، اسطح المنازل والشرفات تفيض ببقايا لم يعد لها فائدة ، ومع ذلك نتمسك بها ، ونحتفظ ، أعرف زميلا يحتفظ بكافة بطاقات الدعوة التى تصل إليه ، خصص حجرة كاملة رتب فيها المظاريف مختلفة الأشكال ، دعوات إلى افتتاح معارض وحضور عروض مسرحية وسينمائية وندوات أدبية ، الجهات التى نظمتها حلت ولم يعد لها وجود ، ومع ذلك لا يفرط فى ورقة وصلته .

لست استثناء بالطبع ، إذ أننى احتفظ أيضا ببعض حاجاتى القديمة ، ومن بينها الأحذية التى لم تبل تماما ، إنما ما تزال تحتفظ ببعض ملامحها التى تمت بها إلى عالم الأحذية ، منذ أسابيع ، تطلعت تحت الأريكة فرأيتها مرصوصة متجاورة ، متباعدة ، بعضها حال لونه حتى أننى لا أقدر على معرفة ما إذا كان فى الأصل أسود أو بنى أو نبيتى ، ولكنها ما تزال متماسكة ، الحقيقة أن سبب استعراضى لهم ليس الحنين ، وإنما التفكير جيداً وجديا فى ارسال بعضهم إلى الكوردونيرى (بالفرنسية) للأصلاح ، وإعادة الرونق ، ذلك أن الأسعار ترتفع بشكل حاد . . ربما كان الباعث رؤيتى حذاء فى احدى الواجهات وثمة قطعة صغيرة من البلاستيك الأنيق ، سوداء ، عليها الأرقام بلون أبيض ، ستمائة

جنيه بالتمام والكمال ، ومنذ سنوات كانت المتاجر لا تعلن عن تلك الأسعار الفلكية الاستفزازية ولا شيىء يجعلنى حذراً مثل تلك المحلات التى تعرض البضاعة ولا تبرز الثمن . أما الآن فيبدو أن هذا عادى ، عادى ثمن الحلة الجاهزة الذى يدور حول السبعمائة جنيه ، والقميص حوالى المائة .

حذاء بستمائة جنيه ، يعنى هذا أن المكافأة التى سوف اتقاضاها من دار الهلال التى ستصدر بعد يومين ، وهى نتاج عمل سنتين لن تكفى لشراء فردة واحدة !

إذن . . فكرت جيداً فى استعراض تراثى القديم وترميم ما يصلح منه خشية الوصول إلى حد يصبح معه شراء زوج جديد فوق المتناول ، ولا شيىء يثير الخوف مثل أن يجد الانسان نفسه بدون حذاء ، وكثير من الأحلام تدور حول فقدانها ويتفق ابن سيرين والنابلسى وفرويد على أن ذلك من علامات خوف المجهول .

تناولت كافة ما وضعته تحت الأريكة ، رصصت كل زوجين اثنين بعيدا عن الأخريات ، وبالطبع دار فى خلدى الكثير . .

* * *

لا استطيع أن اتذكر عدد الأحذية التى ارتديتها منذ قدومى إلى هذه الحياة ، بدءا من طرف الثوب الذى كنت أتدثر به وليداً . إلى اللكلوك المصنوع من القماش الذى يرتديه الأطفال عند بدأ تعلمهم المشى ، كما أننى لا اذكر للأسف أول حذاء جلدى ارتديته ، لابد

أن ذلك كان حدثا هاماً ، ونقطة تحول . كذلك الحذاء الأسود الجديد اللازم لدخول المدرسة ، مناسبتان فى كل عام يرتبط الحذاء بهما ، بداية العام الجديد للدراسة ، والعيد ، كان الوالد رحمه الله يصحبنا إلى شارع السكة الجديدة ، ونعود إلى البيت بعد أن يكسونا ، ويحتفظ كل منا بكسوته ، والحذاء أحد أهم معالمها ، لكى أرتديه عند الذهاب لصلاة العيد ، أو المدرسة .

لم يكن سعر الحذاء فى بداية الخمسينات يتجاوز الجنيه ، وحتى الستينات ، كان هناك معرض كايزك الشهير بجوار سينما ريفولى الذى عرض أحذية بتسعة وتسعين قرشاً ، واذكر أن أحدها ظل صالحاً ، جيداً مدة ما يقرب من سنة وأنا تقريبا لا ارتدى غيره .

طبعا فى سنوات الدراسة ، كان هناك الجرى ، واللعب ، وأن لم أشارك فى كرة القدم الشراب ، ذلك أننى كنت اميل إلى انطواء وحب للقراءة مبكر ، برغم ذلك كان الحذاء سرعان ما يئن ويشكو ، ولأن الأحوال لم تكن ميسورة . واستبداله بآخر جديد ليس سهلا فى كل الأحوال لذلك عرفنا الطريق إلى محلات تلميع وتصليح الأحذية ، أحدهما مازال قائما حتى الآن تحت عمارة بنزايون الشهيرة فى شارع الأزهر ، والتى بنيت فى أوائل الثلاثينات ، وظلت ثلاث سنوات خالية برفض أهالى المنطقة السكن فيها ، لماذا ؟ لأنها تجاوزت فى ارتفاعها المسجد الأزهر ، ثم بدأت السكن ، الآن يصل الخلو إلى بضع مئات من الألوف للشقة الواحدة .

تحت هذه العمارة محل (كوردونيرى) ، كنت اجلس فيه إلى جوار الوالد ، منتظرا تلميع الحذاء ، أو . . اصلاحه ، فى ركنه مجموعة هائلة من القوالب الخشبية مختلفة الأحجام ، لكن ما كان يشدنى وقتئذ أمر آخر مختلف تماما ، تلك اللوحات المعلقة إلى الجدار المواجه ، فوق رءوس العمال الذين جلسوا فى مستوى أقل من المقاعد المرتفعة التى يجلس إليها الزبائن ، كانت مستنسخات مطبوعة لرسام أوروبى مجهول ، تصور قصة شمشون ودليلة ، وأثناء عودتنا كان الوالد يحدثنى عن دليلة التى قصت شعر شمشون ، لكم كانت هذه اللوحات تثير خيالى الغض وقتئذ فاتخيل الحياة قد دبت فى اشخاصها ، وأكاد اسمع سقوط أحجار المعبد .

ما تزال اللوحات معلقة ، لكنها بليت . وزجاج الاطارات تكسر ، كما أنها لم تعد تثير الخيال القديم .

كانت معالجة حذائى تتم فى هذا الكوردونيرى .

إذا كان النعل تآكل قليلا ، ورق وخف حتى ليتسرب منه تراب الطريق ، توضع له «لوزة» ، لوزة فى مصطلح الكوررونيرى أى قطعة جلد صغيرة تغطى الثقب فقط ، لوزة هو المصطلح المستخدم بين عمال اصلاح الأحذية حتى الآن ، وهذا من عبقرية شعبنا البلاغية ، فى تجميل الأشياء والتعبير عنها .

أما إذا اتسع الخرق على الواقف كما كان يقول شيخنا المؤرخ ابن اياس ، فلابد من نصف نعل ، أى قطعة من الجلد تغطى نصف

الحذاء الأمامى ، وإذا تآكل الكعب فلابد من قطعة كاوتشوك ، أما من اطارات قديمة ، ويستحسن اطارات الطائرات ، فقدرتها على الاحتكاك أكبر ، وهناك قطع جاهزة للكعب ، ويمكن تركيب قطع صغيرة من الحديد ، لزيادة المقاومة . المهم أن يكون الجزء العلوى «الوش» سليما فلكم مشينا بدون لوزة نعل ، المهم أن يكون المنظر مستوراً من فوق !

من المصطلحات الغريبة المرتبطة بالحذاء ولا أعرف أصلها اللغوى و«الوردل» أو «الباسو» وهذا ما يربط به النعل بالوش ، أما القالب فيسمى «الفوندو» ، ومقاسه طبقا للقدم ، فإذا زاد عرضها قليلا يمكن اضافة قطعة صغيرة أو أغلظ ، وإذا استعرنا لغة النرجيلة قلنا أنها بمثابة «تخشينة» تضبط المقاس .

اذكر أنه فى الخمسينات ظهر قماش «الشارتسكين» الهفهاف ، وكان من لوازمه حذاء كريب ، وكان نعله أبيض يميل إلى اصفرار غليظ ، يشبه نعال البوليتان ، الموجودة حاليا ، ومرة سمعت من يحذر المشى بالكريب فوق البنزين ، أنه يذوب ، يتآكل ، وكان الصناع يذيبون النعال الكريب القديمة فى البنزين ويطلقون على الناتج (سالسيون) ويلصقون به الجلد .

كان الكريب مثل البوليتان نعال من مواد صناعية ، ولكن لم تتفوق أى مادة على الجلد الطبيعى حتى الآن .

* * *

فى بداية السبعينات سمعت أحد زملائى فى الأخبار يتحدث عن كوردونيرى يقوم بتفصيل الحذاء على الطراز الانجليزى والثمن خمسة وعشرين جنيها ، واذكر أننى استكثرت المبلغ .

فى هذا الوقت كنت عـرفت طريقى إلى كـوردونيـرى اسكندرانى . . فى شارع الفلكى ، خواجه يونانى قديم ، يقوم بصنع هذه الأحذية ، وكان النعل من الجلد ، دوبل أو مزدوج ، عندى زوج منها اشتريته عام واحد وسبعين ، الوش تآكل ، والنعل باق كما هو ، هذا طرازى المفضل ، صحيح أن الملابس كانت للضرورة أكثر منها للإناقة . ولكن عندما بدأت تتحسن الأحوال لا مانع من تفضيل طراز على آخر . وهذا المعروف بالانجليزى لايتبدل ولايتغير ، أول ما رأيته فى قدمى المرحوم الأديب الكبير محمود تيمور . لا اذكر أين تم اللقاء ؟ ربما فى مكتب عمنا العظيم يحيى حقى ، مقر مجلة المجلة فى شارع عبد الخالق ثروت ، هذا المبنى رقم ٢٧ العزيز على جدا والذى طرقته أول سعيى فى الحياة الأدبية . .

ربما . . الذاكرة تبدو متعبة أحيانا مثل الفيلم الذى احترق جزء منه فمن الصعب رؤية ملامح الصورة كلها ، ما أراه فى قدمى محمود تيمور حذاء لامع أنيق جدا ، فوقه قطعة من الجلد ، بمثابة غطاء لقصبة الساق ، اسمها (جتر) ويبدو أن ذلك كان من عادة الباشوات الأصلاء الحقيقيين المتعلمين المثقفين ، كيف عرفت أن اسمه هو الجتر ؟ لأن عمنا يحيى حقى كان يستفسر عنه أيضا وكنت مصغيا ، صامتاً .

المهم . . أننى فى كل سنة اعتدت قضاء أسبوع اجازة مع اسرتى خلال ديسمبر فى الأسكندرية ، من الطقوس الرئيسية الذهاب إلى شارع الفلكي ، إلى الكوردونيرى اليونانى المأصل ، أو الأرمنى ، لست متأكداً ، وأشترى زوجين من الأحذية ، واحد نعل دوبل . والآخر عادة ، كان الدوبل فى البداية بسبعة جنيهات ، ثم راح يتزايد فى كل عام . . آخر زوج اشتريته من حوالى سبع سنوات بأربعين جنيها ، ثم توفى الخواجه الكبير ، وحل مكانه الخواجه الصغير ابنه . . كف عن صنع المزدوج ، بدأ يشكو من ندرة الأيدى العاملة وفى ندرة الخامات ، وردد كثيراً أن العائد من الرأسمال قليل وأنه لو وضع النقود فى البنك سيجنى عائداً أكبر .

يبدو أنه فعل . فلم يعد يصنع أحذية . تحول الكوردونيرى العتيق إلى مجرد معرض لا ترى فيه إلا منتجات الشركات الاستثمارية التى لا أفضلها ولا أثق فيها ، ومازلت أذكر يوم طوافى بشوارع الاسكندرية حزينا مهموماً ، وأنا لا أتصور المستقبل بدون حذاء دوبل صنع يد !

الحق . . أن للحذاء شأن عظيم فى مسار البشرية ، وأظنه فى الحقبة الأخيرة لعب دوراً فى تقويض المعسكر الاشتراكى مع الهامبورجر ، يقال أنه بعد انهيار الاشتراكية امتدت الطوابير أمام محلات البيتسا ، والهامبورجر ، والأحذية الرياضية الشهيرة ، كان حلم كل شاب هناك أن يرتدى أحدها ، وأخيرا أصبحت متاحة . . ولكن بكم ؟ الحذاء مرآة الأحوال ، فمن هيئته أعرف المستوى

الاجتماعي ، ومن الكعب الحريمى تبدو أحوال المرأة ، وهناك من يرتدون أحذية يظل نعلها بلون الجلد ، بدون تراب ، فمن البيت إلى الممر المفروش بالسجاد إلى السيارة .

اتأمل من جديد احذيتى القديمة ، معظمها من صنع ذلك اليونانى العجوز الذى كان مخلصاً لمهنته ، ومثل التاجر الذى يقلب دفاتره القديمة اتفحصها ، واقلبها ، تمهيدا لكى اصحبها إلى الكوردونيرى لاصلاحها ، ومد عمرها الافتراضى ، كثير من الأشياء فى حياتنا انتهى عمرها الحقيقى ولكنها ماتزال موجودة . فلماذا أجور على أحذيتى التى يمكن اصلاحها ؟ أما السبب القوى الدافع فهو ذلك الحذاء المطل من واجهة احدى المحلات ، والثمن ، ستمائة جنيه .

مفاجآت الأكاديمية..

عندما مضيت إلى قاعة سيد درويش بالهرم مساء الخميس ، كنت اتصور أننى سوف استمع إلى حفل تقليدى من تلك التى اعتدت .. حضورها منذ تأسيس فرقة الموسيقى العربية فى نهاية الستينات ، كنت متأهباً لسماع ألحان محمد القصبجى ، هذا الفنان العبقرى ، المتجاوز لزمنه ، اعشق مقطوعتين له ، الأولى بشرف سماعى رصد ، والذى يستقطر عندى خلاصة الشجى والرقة ، والثانية «ذكرياتى» والتى يمكن أن أضع فيها كتابًا كاملا من الف صفحة ولن أعبر عما تحويه .

على مدخل القاعة كان يقف الصديق الدكتور فوزى فوزى رئيس الأكاديمية قال لى أنه يطلب منى الاصغاء باهتمام إلى عدد من الأصوات الجديدة التى تظهر للمرة الأولى الليلة .

هكذا جلست فى المقصورة متأهباً ، وعندما أعطى المايسترو سامى نصير اشارة البدء ، فاضت انغام القصبجى من الفرقة الأكاديمية التى تقدم أول عروضها ، ونطق عود أشرف عزت ، لثوان معدودات بما أومأ به محمد القصبجى .

ثم تحققت المفاجأة .

أصوات جديدة تماما من طلبة الأكاديمية ، كل منها مفاجأة حقيقية ، حقا ، هذا بلد معطاء ، ولاد ، ولكن المناخ أحيانا لا يساعد . أتوقف أمام عدة أصوات نسائية جديدة تماما .

حنان عطية التى يقترب صوتها الرائع من منطقة اسمهان .

عبير أمين ، التى تتمتع بصوت فريد ، جديد تماما ، بحيث لايمكن قياسه إلى أى صوت معروف ، ثم سحر سيف وإيمان عبد الحميد وسلوى عبد الوهاب ومنيرة سعيد وجيهان الناصر كل منها صوت له جماله الخاص وأسراره .

ومن المطربين الجدد إيمان عبد الحميد ، ومحمود لطفى ، وعمرو ناجى وطارق فؤاد ، ومحمد شبانة ومحمد عبد الستار وأحمد سعد هذه الأصوات الجديدة ، الجميلة ، يمكن أن تدفع بحركة غنائية متكاملة . لماذا لاتجد طريقها إلى الإذاعة والتليفزيون بدلا من تلك

الأصوات الشاحبة ، المتسلخة التى تطالعنا باصرار ، مما زاد من تفاؤلى ما قاله لى الملحن الكبير محمد الموجى فى الاستراحة ، أنه يسعى لتقديم بعضها ، اتمنى ذلك قبل أن يدركهم تجار الكاسيت .

لقد قام الدكتور فوزى وأساتذة الموسيقى العربية بالأكاديمية بواجبهم ، قدموا إلى مصر هذه الأصوات الجميلة ، وبقى أن يؤدى الآخرون دورهم بأمانة لاثراء الغناء المصرى وانقاذه مما وصل إليه ، لكم اتمنى أن يذيع التليفزيون حفلات هذه الفرقة على الهواء مباشرة . . عندئذ سوف نرى أضواء المدينة الحقيقية !

◇ هموم صغيرة .. كبيرة

مايو ١٩٩٢

ماجى..

فى المساء ، بعد أن تقدم الليل ، دخلت غرفة المكتب حيث يعمل والدها حتى ساعة متأخرة ، تعرف أنه مشغول دائما ، أوراق ، كتب كثيرة ، أحيانا تراه محملقا إلى الفراغ ، كفت منذ تجاوزها العاشرة على مطالبته أن يجلس معها قليلا ، أن يخرج معها ، وكفت أيضا عن ضيقها بجلوسه الطويل إلى المكتب ، أنه يعمل كثيرا ، ويبدو مرهقا فى معظم الأحيان ، بل أنها تفرح جدا عندما تدخل إليه حاملة صينية فوقها كوب شاى ، أو كوب ماء ، تماما كما تفعل أمها . أما هذه الدقائق التى تقتنصها قبل نومها وتتحدث خلالها إليه فكانت من عوامل سعادتها التى تبقيها مرحة ، منطلقة حتى اليوم التالى .

تلك الليلة كانت مشغولة ، مهمومة بأمر لا تدرى كيف تعبر عنه ، ولأنها أعتادت التعبير عن أدق أفكارها مع والدها الذى كان يبدى تجاهها صدراً رحبا ، وترحيبا ، حتى أن أمها كانت تقول لها دائما .

«يا بختك يا ستى . .» .

تطلعت إليه ، عيناها المتقدتان بالحيوية والذكاء ، إلا أن ما فيهما من حيرة لم يغب عن والدها . .

«مالك يا ماجى ؟ » .

قالت بحيرة وهدوء . .

«صحيح يا بابا أن دينا صاحبتى مش هتدخل الجنة؟» .

قطب الأب عينيه متسائلا ، متأهبا لخوض مناقشة دقيقة كتلك التى اعتادها خلال السنة الأخيرة . قالت ماجى أن المدرس ، قال لهم فى الفصل أن الجنة لن يدخلها إلا المسلمين فقط ، وأن المسيحيين كفرة ، وسيدخلون النار ، قالت أنها حزينة جداً ، أنها تحب دينا جدا ، هى صديقتها الأولى ، وفى رمضان الماضى لم تكن تشرب أو تأكل فى الفصل ، أو أمامها ، بل أنها رسمت بيدها فانوس رمضان على ورق مقوى وقدمته هدية لها ، سألت ماجى فجأة . .

«هل المسيحيين كفرة يا بابا ؟» .

«لا يا ماجى ، المسلمين والمسيحيين واليهود مؤمنين ، ودى الأديان السماوية الثلاثة . .» .

«لكن الأستاذ بيقول أنهم كفرة . .» .

«أنت بتقرئ القرآن الكريم . . مش بنقراه مع بعض . .» .

«أيوه . .» .

«شفت القرآن الكريم بيتكلم عن أهل الكتاب ازاى . . أهل الكتاب يعنى المسيحيين واليهود . . بيتكلم عنهم «باحترام عميق» مش قرأنا مع بعض سورة مريم ، وحكيت لك عن سيدنا موسى والرسل . .

«صحيح . . لكن الأستاذ قال أنه التانين كفره لأنهم ما اسلموش» .

كان الأب مستنفرا الآن بكامل حواسه ، أنه حريص على أن

يبدو مقنعا بدون أن ينال من الأستاذ ، يعرف أن تأثير الأستاذ عميق على طلابه الصغار ، أنه القدوة فى عيونهم ، وما يقوله يعد فى نظرهم من المسلمات ، لايريد أن يقول لابنته الصغيرة أن هذا الأستاذ مخطىء لأنه يطرح القضية بهذا الشكل الذى يفتقر إلى معرفة حقيقية بالدين . وموقف الدين الإسلامى من الأديان السماوية الأخرى . وأنه لم يحدث أن اعتبر المسلمون غيرهم من أهل الكتاب كفارا .

حكى لماجى عن زواج الرسول الكريم بمارية القبطية ، وهى التى انجبت له ابنه الوحيد إبراهيم الذى توفى صغيرا ، ولقد احتفظت السيدة مارية المصرية الأصل ، وكانت من احدى قرى المنيا ، مارية القبطية لم تغير دينها .

حكى لها عن سيدنا عمر «الخليفة العظيم» الذى قرأ عنه كثيرا ، كيف أنه رفض أداء الصلاة فى الكنيسة بالقدس بعد فتحها حتى لايحولها المسلمون إلى مسجد ، وظل هذا مبدأ هاما يحطم نظرة المسلمين وسلوكهم تجاه الأديان السماوية الأخرى ..

«يعنى دينا حتدخل معانا الجنة ..» .

«الجنة يابنتى ندخلها بالعمل الصالح . بطاعة الله والعمل الصالح يعنى تعامل الإنسان مع الآخرين .. فيه مسلمين حيدخلوا الجنة ومسلمين حيدخلوا النار .. ونفس الموضوع بالنسبة لكل البشر . المهم العمل الصالح ..

«يعنى الأستاذ لو قال الكلام ده تانى ما اصدقوش؟» .

لم يشأ أن يرد بالإيجاب . كان يشعر بذلك التناقض الذى تعيش ابنته ، لم يكن يريد أن يعمقه .

«يا حبيبتى المدرس بشر ، والبشر يخطىء ويصيب» . .

تطلعت إليه بحيرة . وحب أيضا ، قالت :

«أنا مضايقاك؟» .

«ابدأ . . ابدأ . .» .

«طيب ليه ساعة حصة الدين بيطلعوا زمايلنا المسيحيين بره» . .

«بيروحوا فين» ؟

«بيلعبوا فى الحوش» . .

لأول مرة تلحظ ماجى حيرة والدها ، أنها لاتريد أن تثقل عليه ، فهى تعرف ارهاقه الذى يبدو عليه عند استيقاظه فى الصباح الباكر بعد سهره إلى ساعة متأخرة . ثم عودته عند الظهيرة ونومه ساعتين أو ثلاث قبل استيقاظه ليبدأ سهره الذى يستمر إلى ما بعد نومها بوقت طويل ، استدارت حول الكتب ، ربتت كتفه بحنان ، كان يقول لها دائما أنها ليست ابنته فقط ولكنها أمه الصغيرة بعد رحيل أمه التى أتت به إلى الدنيا . قالت ماجى . .

«أنا وجعت لك دماغك» .

«ابدأ يا حبيبتى . . أنت اسعدتينى» .

تميل عليه «تقبله» بعد انصرافها لم يستطع أن يواصل ما كان يعمل فيه ، لم يكن يدرى ماذا يفعله بالضبط ؟

فى اليوم التالى بدت ماجى حزينة جدا ، لم ينتظر والدها

جلستهما الليلية . قالت ببساطة أن ما قاله لها أمس حاورت به الأستاذ ، قالت له إن دينا ستدخل الجنة إذا فعلت عملا صالحا : وأن الإسلام يحترم الأديان السماوية وأن سيدنا عمر صلى بعيدا عن الكنيسة حتى لايصير ذلك مبدأ فيسرى فيما بعد ، قالت أن الأستاذ سألها عمن قال لها ذلك الكلام قالت ببراءة .

«بابا . .» .

قال بحدة

«ابوكى ده مابيفهمش حاجة . .» .

ربت الوالد على ظهر ابنته التى انفجرت باكية ، ازدادت حيرته ، إلى من يتوجه ؟

* * *

أديبنا العظيم من ضمائر العصر . عصرنا الإنسانى كله وليس زمننا المصرى فحسب ، اعتدنا اللقاء به كل ثلاثاء . لقاء محدود ، يضم صديقين أخرين ، الأول هو المخرج والفنان توفيق صالح ، وعلاقته بنجيب محفوظ فريدة ، عميقة ، ذات جوانب انسانية متعددة ، وتلك علاقة عمر ، أما الصديق الآخر فهو الروائى يوسف القعيد فى هذه الجلسة الخاصة جداً لا اسعى ابداً إلى استخدام أى حوار ، أو موقف يرد لعملى الصحفى ، وأن كنت اسمع من الرجل آراء غاية فى السداد ، والحكمة ، آراء اعتبرها الخلاصة فى كثير من القضايا والمشاكل التى نمر بها ، أو فى الأدب والحياة ، عندما أرجع إلى البيت أدون بعض مما سمعته منه ، ذكريات نادرة ، ملاحظات فنية أو أدبية ، لعلى انشرها يوماً ، ولعلى لا أفعل .

لكن خلال الأسابيع الأخيرة كان الرجل يصغى متألماً إلى تفاصيل الفتنة الطائفية فى ديروط ، فى الصعيد .

عاش نجيب محفوظ القرن العشرين فى مصر بكل ما فعل به من متغيرات ، وأحداث كبرى وتفاصيل صغيرة ، وانتاجه الأدبى الشامخ انعكاس دقيق لتفاصيل المجتمع المصرى ، قال بأسى إنه لا يذكر ابدأ خلال شبابه وحتى عنفوان رجولته ، لا يذكر أن مسلما حط من قدر مسيحى على أساس الدين ، أو مسيحيا ، كان الاحترام العميق هو الطابع السائد للعلاقات بين المصريين على اختلاف أديانهم ، لكن خلال السنوات الأخيرة بدأت ظواهر خطيرة تعمق الفرقة والانقسام وللأسف امتدت هذه الظواهر إلى مجالات أساسية ، منها التعليم ، وبعض أجهزة الإعلام .

لابد من احاطة كاملة ، مدروسة بالظروف المؤدية إلى تعميق الهوة . بين المسلمين والأقباط ، بدءا من اعادة النظر فى مناهج التعليم ووسائله ، وأمور القائمين عليه ، إلى الخطاب الإعلامى خاصة من خلال جهاز خطير التأثير مثل التليفزيون .

للأقباط فى مصر وضع يختلف عن وضع أى أولية فى العالم . فهم جزء من نسيج المجتمع المصرى على امتداد عصوره المختلفة فى الشارع الواحد يتجاور المسلم والمسيحى ، فى العمارة ، فى القرية ، لذلك اميل كثيراً إلى ما يقوله فؤاد سراج الدين من أن مصر تحوى عنصراً واحداً وليس عنصرين اثنين كما هو شائع ويقال ، هذا العنصر الواحد هو المصريون .

أن الطائفية هى الثغرة الوحيدة التى كانت القوى الأجنبية ودسائس الاستعمار تحاول النفاذ منها ، هناك وسائل مختلفة تبدأ من أدق شئون المجتمع ، وحتى النفاذ إلى الحياة الفكرية والثقافية ، والمعايش للحركة الأدبية يلاحظ تحركاً مريبا من جانبا دوائر أوروبية ، غربية ،لتبنى بعض الأسماء متوسطة القيمة ، وتقديمها على أنهم ممثلين للأولية المضطهدة ، وللأسف ، هناك من بدأ يستجيب إلى الإغراءات المصاحبة لذلك من ترجمة ومؤتمرات ، ورحلات ، وأوهام الجوائز الكبرى .

لايمكن أن نقبل التعصب وضيق الأفق من الأغلبية ، وكذلك الأمر بالنسبة للأولية . الطائفية مكروهة من كلا الطرفين وهى الخطر الحقيقى الذى يهدد وحدة هذا الشعب العظيم .

ونعود إلى أديبنا الكبير نجيب محفوظ ، هذا الموضوع أشد ما يقلقه ويشغل تفكيره خلال الفترة الأخيرة وهو . . غير متفائل !!

* * *

أم صابر..

عرفت هذه الأسرة المصرية ، الصميمة ، المكافحة ، من خلال عملى السنوى فى المشروع الإنسانى الذى بدأه المرحوم على أمين وتوأمه مصطفى أمين أمد الله فى عمره .

كان الوالد فنيا متخصصاً فى صناعة الساعات أو اصلاحها . كان يعمل عند خواجه أجنبى قديم فى شارع الجمهورية ، فجأة هاجر الخواجة العجوز ، فارق مصر ، وأصيب الأب بحالة نفسية ، شيىء ما حدث فى الأعصاب ، لوى يده اليمنى وجعلها عاجزة عن أداء أى عمل ، لزم البيت ، فقدت الأسرة دخلها الوحيد ، هنا تقدمت أم صابر ، القادمة من الصعيد البعيد ، سيدة مصرية صلبة ، انجبت ستة ، أسرة كبيرة العدد ، وفى الأحياء الفقيرة ثمة شكل من التكافل المباشر وغير المباشر ، لكنها لم تكتف بمساعدات أولاد الحلال من الذين وقفوا إلى جوارها ، إنما بدأت تبيع الكيروسين ، قرش يسند الحيطة التى مالته ، عندما وصلنا خطاب أحد الجيران الذى كتبه إلى ليلة القدر لم نتردد ذهبنا إليها ، قدمنا إليها مساعدة تمكنها من تنشيط . تجارتها الصغيرة فى بيع الكيروسين .

كان ذاك منذ عدة سنوات . مازلت أذكر الشقة الرطبة التى تقع فى الطابق الأرض ، كان زوجها يجلس فى القيمة عاجزاً ، صامتاً بعد أن انسحب من الحياة . كانت أم صابر فى بداية الرحلة مليئة بالتصميم والتحدى ، اعرف ذلك جيدا ، عندما تتقدم الأم المصرية لتحمى أسرتها من الغرق ، من الدمار ، كانت مصرة على أن يتلقوا

جميعا تعليمهم ، صحيح أنه متوسط ، لكن كانت تتطلع إلى يوم يتخرجون فيه ويلتحقون بأعمال ، وهنا تعرف الراحة . . كل منهم لم يقصر ، أعطى فى حدود امكانياته ، مازلت اذكر اصغر أبنائها ، عمره سبع سنوات ، عندما زرناها كان يعمل خلال ساعات بعد الظهر عند عجلاتى مجاور للبيت ، ثم يستكمل دراسته ليلا ، لماذا التحق بالعمل؟ لأن العيد كان يقترب وبنطلونه الوحيد ممزق ، وكان يريد أن يشترى بنطلونا جديدا يلبسه أول أيام العيد وينزل به إلى الشارع الولد صغير ، لكنه يرى أحوال الأسرة ، لذلك أقدم على العمل فى سن جد صغيرة . المفروض أن ينام فيها جيدا ، وأن يلعب ، لكنه تقدم ليخفف عبئا عن أمه ، هو يرى بعينيه الأحوال ، وكان العجلاتى يشيد بذكائه وقدرته على أن يلقط الصنعة . .

أذكر أننا قدمنا إليه ، إلى الطفل الصغير ، مائة وخمسين جنيها ، من ليلة القدر ليشترى ما يشاء من ملابس جديدة ، يومها أصر ألا يشترى إلا بنطلونا وقميصا ، أما بقية المبلغ فاعطاه لأمه . قالت لى أم صابر إنها تريد أن تقدم إلى البلد «زرعة» نظيفة قادرة ، كانت تعنى أولادها .

ومرت الأيام ، كانت تتصل بى بين الحين والآخر ، فاطمئن على أحوالها ، فى العام التالى سمعت صوتها متعبا ، حزينا ، قالت بلهجتها الصعيدية .

«والله تعبت يا أستاذ . . الحمل كثر عليه قوى . .» .

نعم . . الحمل ثقيل على من كان فى مثل وضعها ، الرجل انسحب نهائيا ، وتكاليف الحياة فى حدها الأدنى لم تعد قليلة فى

العام التالى قدمنا إليها مساعدة أخرى من ليلة القدر ، ثم توالت الأيام ، والشهور ، وكان أحد أبنائها يجيئنى على فترات ، كنت الحظ حرصه على فظهره رغم تواضع ملبسه ، ورجولة مبكرة ، نضجت مع الأيام .

كان يخبرنى عن تقدمه فى المذاكرة ، عن التحاقه بعمل مؤقت هنا أو هناك ، مرة قابلته يبيع الكتب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب ، ولكن كلها أعمال مؤقتة .

منذ شهور قليلة جاءنى ، لقد انتهى من دراسته منذ عامين ، اخبرنى أنه متقدم إلى وظيفة بمستشفى عين شمس التخصصى ، وأخرى بمصرف اسلامى ، وطلب منى مساعدته ، والحق أننى صرت ، فما قدمته إلى الأسرة كان من ليلة القدر ، من مشروع الأستاذ مصطفى أمين الخيرى الذى انقذ اسرا مصرية عديدة من الضياع . ولم أكن إلا مندوبا يقوم بتنفيذ مهمة . من ناحية أخرى يظن البسطاء أن الصحفى يمتلك سلطة ، وأنا شخصيا علاقتى بالسلطة واهنة جداً ، حتى أننى لم أستطع أن أفعل أى شيىء لشقيقتى التى تخرجت منذ عامين من كلية الحقوق وما تزال بدون عمل ، تعانى ما يعانى منه مئات الألوف من الشباب ، البطالة هذه المشكلة الرهيبة التى اعتبرها لغما يمكن أن ينفجر فى أى وقت على مستوى مجتمع بأسره .

حاولت أن اشرح ذلك لابن أم صابر ، ولكن نظرات الشك بدت فى عينيه كنت متعاطفا جدا معه ، وكنت اعى تماما ما سوف

يواجهه ، وما ستلاقيه أسرته من احباط ويأس فتعليم الابن فى أسرة فقيرة يستهدف مساعدة الأسرة ذاتها ، قبل مساعدة الابن لنفسه على تكوين حياة مستقلة ، ذكرنى الشك فى عينيه ببعض أقاربى من الصعيد الذين يتصل بى بعضهم ويطلبون منى التدخل فى جهات لا أعرف فيها شخصا واحداً ، ولم أتعامل معها قط ، مرة اتصل بى أحدهم وطلب منى أن أتوسط عند وزير الداخلية لالحاق ابنه بكلية الشرطة ، قلت له أن ذلك مستحيل عمليا . وهناك امتحانات . وشروط ، ثم أننى لا أعرف الوزراء ، وبالذات وزير الداخلية ، صحيح أنه رجل شيخ عرب ، ولكن علاقتى التاريخية بالشرطة معقدة منذ فترة الاعتقال السياسى وما تلاه ، قلت هذا كله ، فقال بشك كبير .

«يا راجل دا أنت اسمك بيطلع فى الجرنال وكمان شفتك فى التليفزيون . .» .

نفس الشك رايته فى عينى ابن أم صابر ، وفى صوت والدته عندما اتصلت بى وقالت بعتاب مؤخرا .

«أنت طنشته ليه يا أستاذ ، الولد مقدرش يلاقى شغل وحالته بقت صعبة قوى . .» .

وناء كاهلى بمشكلة بطالة أخرى أعرف كافة الظروف المحيطة بها . ولا أقدر على فعل أى شيىء ، ليس لعجزى فقط وقلة حيلتى . إنما لضخامة المشكل ، وصعوبة . . الوضع . . فهل من مذكر ؟

في محطة حلوان . وأثناء تجديدى اشتراك المترو ، قال الصديق رضا خليفة رئيس المكتب أنه يرجونى أن التقى بعم عبد العال . قال أنه رجل صعيدى شهم ، كان يعمل فى السكك الحديدية ، والآن يعمل فى شركة النظافة التى تشرف على نظافة المترو .

ـ ماله يا رضا . .

ارسل يستدعيه ، جاء عم عبد العال . شارب كثيف ، وعمامة ، ورداء الشركة الأزرق ، صافحته ، كانت يده خشنة تماما ، لمحت الدموع فى عينيه ، بدأ يخبرنى بصوت متهدج عن ابنه عبد الرحمن ، لقد غاب منذ ٣١ يوليو ١٩٨٨ ، خرج من البيت ، ولم يعد حتى الآن ، قلب الدنيا بحثا عنه وما من أثر ، سأل أصحابه ، أبلغ الشرطة ، دار البحث ولم يكف حتى الآن ، لكن الولد الذى من المفروض أن يكون عمره الآن اثنين وعشرين سنة اختفى تماما .

أين ذهب ؟

الله اعلم . .

لماذا طفش ؟

يقول عم عبد العال أن الولد حصل على دبلوم الصنائع ، ولم يجد عملاً ، مر عليه عام كامل ولم يدخل قرش واحد جيبه ، وفى يوم من الأيام قالت له أمه .

«أخرج شوف لك سبوبة تساعد أبوك بقرشين . . تجيب حتى مصاريفك . .» .

الولد تأثر . أخذ فى نفسه وكتم ، لم ينطق كلمة ، خرج ومنذ هذا اليوم لم يعد ، يبكى عم عبد العال ، وأنا أعرف أن بكاء الصعيدى صعب ، وعر ، يتمنى أن يعرف شيئا بسيطا ، هل مازال يسعى فى الحياة الدنيا ؟ الولد كان مهذبا ، لم يرفع صوته مرة واحدة فى وجهه . ولم يعرف رفقاء السوء ، ولم يكن يدخن ، فأين ذهب . . أين ؟ يمد عم عبد العال يده بورقة تحمل العنوان .

طره البلد ، مساكن السكة الحديد عمارة ٢ شقة ؟ لعل وعسى !

◇ وطننا.. يبقى أو لا يبقى؟

يونيه ١٩٩١

.. منذ ثلاثة أسابيع ، نشرت يومياتى السابقة ، «هموم صغيرة .. كبيرة» ، وكان محورها قصة حقيقية لطفلة صغيرة حائرة ، طرحت على والدها تساؤلا ، حول ما سمعته من أستاذها فى الفصل ، والذى قال لطلبة الصغار أن المسيحيين لن يدخلوا الجنة لأنهم كفرة .

أشرت من خلال هذه الواقعة الصغيرة إلى خطورة ما يجرى فى بعض المدارس . وأن طرح مثل هذه الأمور على الصغار يزرع بذور الفتنة ويرسخ الفرقة بين عنصرى الأمة ، المسلمين والأقباط .

ظهرت اليوميات يوم الثلاثاء كالعادة ، وكنت اتأهب للسفر إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج بعد أن مَنّ الله على بالفرصة ، كان ثمة إجراءات عديدة لابد من إنجازها خلال ساعات . ومنذ دخولى مكتبى لم يتوقف الهاتف عن الرنين حتى انصرافى فى الرابعة بعد الظهر . كلها كانت تعلق من منطلقات مختلفة وأصغيت . إلى ما قيل لى ، والحق أن الكافة كانوا راغبين فى توصيل آرائهم فى صبر ، وتهذيب ، وأن لم يخل حديث البعض من حدة .

سافرت إلى الحجاز ، وعدت نهاية الأسبوع الماضي ، وكما توقعت وجدت عدداً كبيراً من الرسائل يدور حول الموضوع ، ولم يخرج الأمر عن المحاور التى دارت حولها المكالمات .

وقد وقفت متأملا ، متألماً ، حائراً ، فالأمر أخطر بكثير مما قدرت ، وهناك هوة حقيقية بدأت وثمة عوامل عديدة تسهم فى اتساعها ، أخطر ملامح هذه الهوة هو ظهور كراهية بين العنصرين ، وصلت إلى حد النيل من جوهر دين الآخر ، والأمر يبدأ من دور الحضانة ،

ومناهج التعليم ، وبعض المدرسين المحيطين لظروف شتى ، وقد سمعت تفاصيل عديدة تفوق بكثير ما قاله المدرس لماجى الصغيرة .

من المكالمات الهامة جدا التى تلقيتها قبل سفرى ، اتصال من فضيلة الدكتور محمود حماية عميد كلية أصول الدين ، بأسيوط ، والحق أننى سعدت واهتديت بكثير مما قاله لى ، ومما أذكره حديثه عن الفرق بين المعتقدات ، والمعاملات ، وضرورة عدم فتح باب ابداء الرأى فى أهل الدين الآخر ، خاصة فى وسائل الإعلام ، ولينصب الأمر على المعاملات ، أى العلاقات بين المسلمين والمسيحيين هذا بعض مما وصل إلى فهمى من حديثه الطويل القيم ، وأننى لأرجو أن تقدم وسائل الإعلام ، خاصة التليفزيون أمثال هذا العالم الجليل ، وهم كثر . فى اطار مناقشة الأمور بصراحة .

ومن الخطابات التى وصلتنى أختار هذه الفقرة من رسالة المهندس عماد فهمى :

«اشكر سيادتكم على مقالكم فى باب يوميات الأخبار المنشور بتاريخ ٢ يونيو ، والذى قمت فيه بشرح واف لقضية حقيقية تحدث بين الأوساط العلمية فى مختلف المجالات وخاصة فى بداية تنشئة الأطفال فى مراحل التعليم الأساسى . وهى قضية خطيرة للغاية فهى تنشىء الطفل على إقامة العداوة بين الأصدقاء المسلمين الصغار مع أصدقائهم المسيحيون فى مكان واحد ـ فصل واحد ـ منزل واحد ـ مجتمع واحد ـ دولة واحدة ـ بين الدول وبعضها . لأن تنشئة الطفل على أساس غير منطقى وغير سليم يصعب علينا

عندما يكبر بأن نعدّل من أفكاره لأنها قد نشئت وعلى رأى المثل الشعبى ، «أن الطبع يغلب التطبع» . ويواصل قائلا : أن كل جملة مفيدة تسهم فى تكوين الطفل ، والأطفال أمانة فى أعناق مدرسيهم فلابد أن يحافظوا عليهم من شر الوسواس حتى لا نصبح لبنان ثانية . .» .

خطابات أخرى تريد أن تلغى الآخر تماما . ومعظمها مكتوب بأسلوب رصين ، ومزود باستشهادات عديدة ، أى أن من كتبها مقتنع تماما بإلغاء الاخر وتكفيره ، فإذا ما سنحت الفرصة سال الدم ، هذا هو التطور الطبيعى لاستشراء هذه الأفكار التى اعتبرها متناقضة مع الإسلام ، وجوهره العظيم ، السمح ، يقول الله تعالى فى القرآن الكريم :

«لكم دينكم ولى دين» سورة الكافرون وفى سورة البقرة آية ٢٥٦ .

«لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم وفى سورة البقرة أيضا آية ٦٢ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]

أننى قارىء مستمر للقرآن الكريم ، ولسيرة رسوله الكريم ، وكلما تمعنت وتعمقت ادركت مدى عظمة الرسالة وسماحتها واحترامها

الأديان الأخرى ومن هنا اكتسبت بعدها الكونى الذى هو فى صميمه انسانى عظيم ، وهذا ما رأيته متجسدا فى خلال أيام الحج . والشواهد عديدة .

من ناحية أخرى أرى أن الأمر الآن يتعلق بوطن واحد ننتمى إليه معاً ، عشنا فيه معاً واحترام كل منا الآخر ، وفى مصر لا يوجد صرب وبوسنة ولا ارمينيا واذربيجان ، ولا القاهرة الشرقية والقاهرة الغربية بل يمتزج عنصرى الأمة ، العمارة الواحدة يسكن فيها المسلم والقبطى ، الشارع الواحد ، القرية الواحدة . . هذا بجوار ذاك ، وذلك شريك فى تجارة هذا ، أنا صعيدى قُح ، وفى بلدى امضيت سنوات عمرى الأول وتعلمنا . احترام القسيس تماما مع تعلمى احترام شيخ المسجد ، هناك امتزاج كامل فى الحياة والعمل والجيرة ، صحيح أنه مع تزايد حدة الفتنة الطائفية ظهرت بعض مظاهر الفرز الطائفى ، ولكنها ظواهر محدودة جداً ، لا يمكن القول ابدأ أن مصر فيها منطقة كل سكانها أقباط ، أو مسلمين ، لهذا أضع يدى على قلبى من هول الحريق الذى ادعو الله مخلصا أن يبعده عن وطنى هناك من ينفخ فى النار . .

هناك من يشيع أوهاما مغلوطة فى كلا الجانبين . . هناك أسباب اجتماعية واقتصادية معقدة . . هناك قوى خارجية متربصة . . لكن الأوان فى رأيى لم يفت بعد ، لنسأل أنفسنا بصراحة .

هل نريد لهذا الوطن أن يستمر كما استمر منذ آلاف السنين :

إذن . . لتكن الخطوة الأولى هى احترام كل جانب للآخر ، وهذا ليس بجديد على واقع مصر ، ولنا فى تجربة ثورة ١٩١٩ دروساً عظمى .

هل اترجم ما أقول إلى إجراء عملى ؟

أن تنص القوانين صراحة على معاقبة كل من يطعن فى جوهر الدين خفية أو علانية ، أيا كان موقعه ، فهذا أخطر ما يمكن أن يثير الفتنة .

أتمنى تشكيل لجنة من عقلاء الأمة ، مسلمين وأقباط ، من جميع المجالات ، تشكيل حقيقى قوى ، همه الأساسى ، الحفاظ أولا على وحدة الوطن . وليس هذا بمستحيل ، فالحاجة ماسة الآن ، خاصة النار تلفح ، فحيحها يسمع ، وأخشى ما أخشاه الاندلاع ، فيضيع عندئذ التاريخ ، وكل ما كان وسيكون . .

مكرم.. والله زمان !

. . إذا استعدت أيام عملى كمراسل حربى . فإننى اذكر أغنى تجربة إنسانية مررت بها فى حياتى ، وحتى الآن لم اعبر عنها فى أدبى .

ومن الوجوه التى تطل على دائما من أفق الذاكرة ، ومن خلال حياتى اليومية أيضا ، زميلى مكرم جاد الكريم ، كان شجاعا إلى حد التهور ، محباً لوطنه فى بساطة ، وبدون لفظ ينطق ، أو أشعار تنشد ، دفع بنفسه على مرأى منى فى مواقف كثيرة إلى لحظات مشتعلة دامية . ليحفظ لوطنه لمحة قبساً من لحظة ، يسجلها بالكاميرا التى لا اتخيله إلا بها .

عدت من الحج لتطالعنى صورته فى صحيفتنا الأخبار العزيزة ، مع الزميل فوزى شعبان . رسالة صحفية ، ومن أين ؟ من أشد

مناطق العالم اشتعالاً ، من البوسنة والهرسك ، من سراييفو .
تأملت ملامحه ، وقلت بصوت مرتفع . .

«والله زمان يا مكرم . .» .

وعندما سألت عنه لا عرف موعد وصوله ، عرفت أنه هو الذى أصر على السفر ، وتمثل فى هذا الوفد الصحفى الصغير لجريدة الأخبار معنى الوحدة الوطنية ، والسفر إلى سراييفو فى حرب الإبادة التى تشن هناك ضد المسلمين ليس نزهة بالتأكيد لكنه موقف ، ورأيت فى تواجد الزميلان العزيزان هناك ، خاصةرفيق سلاحى القديم مكرم جاد الكريم معنى ومغزى ، لقد تقاعدت عن متابعة الحروب ، ولم يتقاعد هو ، لذلك كررت من قلبى . .

«والله زمن يا مكرم . .» .

الفهرس